جاك أتَلِي

أخوية اليقظانين

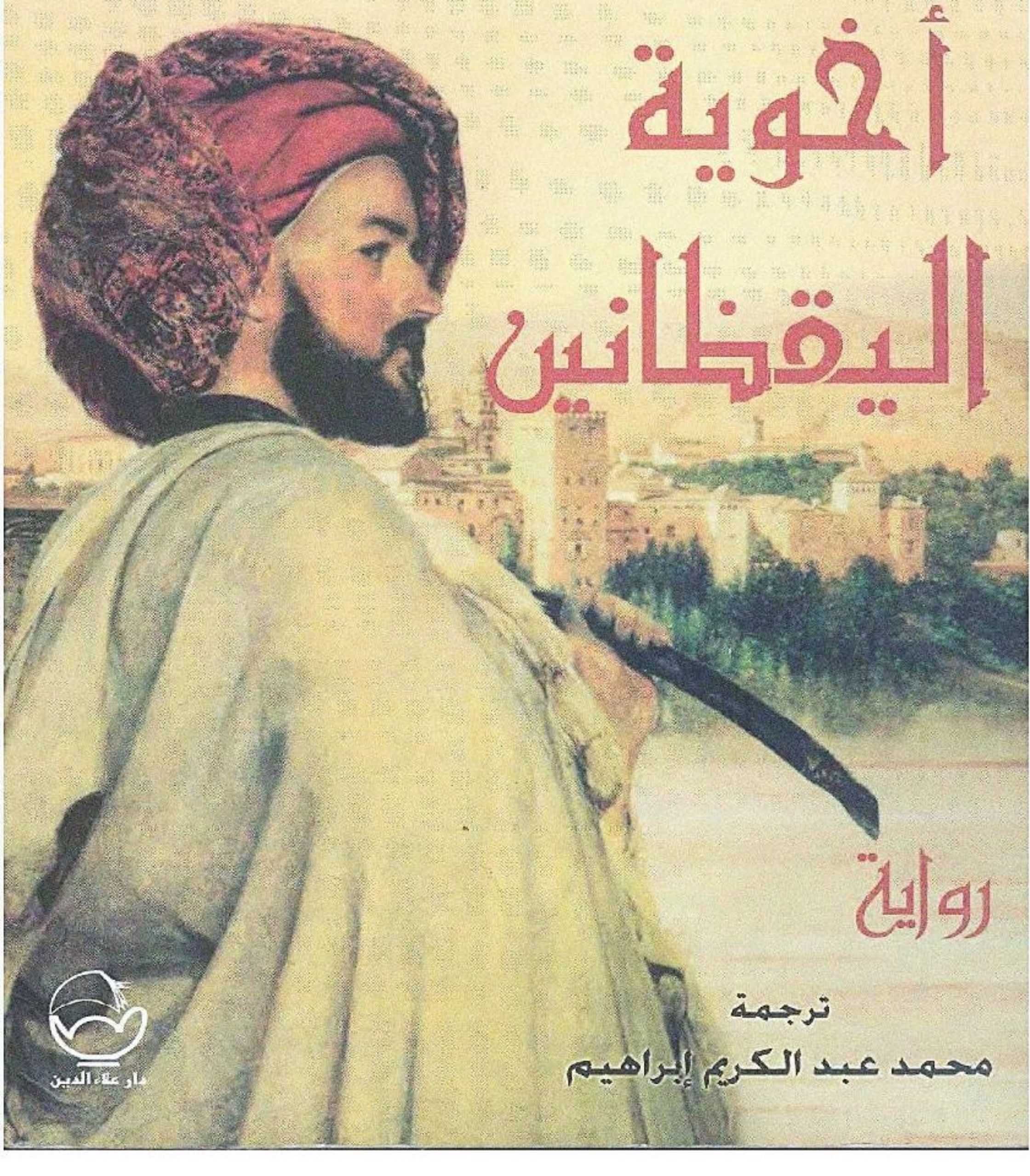

رواية

ترجمة

محمد عبد الكريم إبراهيم

دار علاء الدين

Jacques Attali

جاك أتالي

[illegible]
[illegible]
الاقتصاد. حاصل على درجة الدكتوراه
الفخرية من جامعتي كينت وبيزا.
عضو في الأكاديمية الثقافية العالمية في
باريس. شغل منصب المستشار الخاص
للرئيس الفرنسي ميتران بين ١٩٨١ و١٩٩١.
من منشوراته الفرنسية :

Au propre et au figuré (1988)
1492 (1991). Verbatim (1995)
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Les [illegible]
[illegible]
La Figure de Fraser (1984)
Lignes d'horizon (1990)
Chemins de sagesse, traité du
[illegible]
[illegible]
[illegible]
Un homme d'influence : [illegible]
[illegible]
Blaise [illegible]
çais, (2000)

الروايات :
[illegible]
Le Premier jour après moi
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

أخوية اليقظانيين

Jacques Attali

La Confrérie Des Éveillés

roman

جـاك أتـلِي

أخوية اليقظانين

روايـة

ترجمة

محمد عبد الكريم إبراهيم

منشورات دار علاء الدين

- أخوية اليقظانين.
- تأليف: جاك أثلي.
- ترجمة: محمد عبد الكريم إبراهيم.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.

- هيئة التحرير في دار علاء الدين:

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: أمل كمال البقاعي.
- المتابعة الفنية والإخراج:
أسامة راشد رحمة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

تمهيد للقارئ

هذه قصة عقدين رائعين من الزمن وضعا نهاية للمرحلة الوحيدة في التاريخ التي تعايشت فيها المسيحية والإسلام واليهودية بانسجام. في فترة فريدة من التاريخ، هي القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، وفي مكان فريد، هو الأندلس قررت الأديان التوحيدية الثلاثة تبادل الاحترام والتقدير والغنى الفكري. كان كبار فلاسفة هذه الأديان يتحاورون آنذاك مع بعضهم بعضاً ويناقشون فلاسفة الإغريق بحرية تامة. وكانت العلوم والأديان على وفاق وانسجام تامين.

وفجأة انقلب كل شيء. فلو أن الأحداث في تلك الفترة أخذت منعطفاً آخر، ولو لم يصطدم أبناء إبراهيم بعضهم ببعض لكان مجرى التاريخ قد تغير تغيراً جذرياً. تدور أحداث هذه الرواية خلال هذا المنعطف. وجميع الأحداث التاريخية المذكورة هنا وقعت بالفعل مهما بدت غير معقولة، وجميع الأفكار وأنماط العيش هي من ذلك العصر. وباستثناءات نادرة جداً فجميع الشخصيات واقعية بالفعل، ومعظم أحداث سيرها الذاتية حقيقية، وتعبر عن نفسها على النحو الذي نعلم أنها عبّرت به في الواقع، وعلى وجه الخصوص الفيلسوف الإسلامي العظيم محمد ابن رشد الذي يسميه الغربيون اليوم Averroès وموسى بن ميمون، المفكر اليهودي الكبير، وهو الذي يطلق عليه اليوم اسم

Maï monide. لقد عاشا بالفعل كما ورد في الرواية بين قرطبة التي غادراها سنة ١١٤٩ ، وبين المغرب التي غادراها سنة ١١٦٥. وبين هذين التاريخين، في هذه الفترة الحاسمة من التاريخ، نكاد لا نعلم شيئاً عما فعلاه، ولكن كل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن أكبر المفكرين اليهود وأعظم الفلاسفة المسلمين قد التقيا وتحاورا كما فعلا في الرواية.

و كل ما له صلة حصراً «بأخوية اليقظانين» و «بالأبدية المطلقة» وبالسنوات الغامضة لحياة أرسطو تكاد تكون من نسج الخيال، مع أنه سرت شائعات من هذا النوع عن أعظم الإغريقيين طراً في كثير من الأماكن وفي عصور مختلفة. وعلى كل حال، كل شيء في حياة أبطالنا وفي أعمالهم يدعونا للاعتقاد أنهم كانوا على معرفة بسر غير عادي لأخوية عمرها آلاف السنين. أما في التاريخ بمعناه الواسع، فقد جرى كل شيء دائماً وما زال يجري تماماً كما لو أن الأحداث المروية في هذه الصفحات قد وقعت فعلاً، وكما لو أن «اليقظانين» ما زالوا بيننا، يحملون سراً جوهرياً من أجل مستقبل الإنسانية، وقد فقد إلى الأبد، إلا إذا...

J. A

الفصل الأول

الخميس ٢٧ أيار ١١٤٩،
الطرد من قرطبة
١٨ سيوان ٤٩٠٩، ١٧ محرم ٥٤٤

في ذلك الوقت، في قرطبة كان الجسر الحجري الذي بني قبل أحد عشر قرناً فوق نهر الوادي الكبير، وقد قام ببنائه جنود الإمبراطور أغسطس، مكاناً لجميع اللقاءات بعد انصرام العصر.

كان الرجال والنساء في الصيف حاسري الوجه أو شبه ملثمين بحجاب أبيض، ويتبادلون السلام أو يرمقون بعضهم بعضاً بابتسامة أو بكلمة. وفي الشتاء، عندما كانت الشمس تجهد نفسها لترتفع فوق البرج الغربي لمسجد المسلمين الكبير، كانت النساء المسلمات واليهوديات والمسيحيات يخرجن من الحمام وقد ارتدين سراويل طويلة حمراء وذهبية فتلتقي نظراتهن بنظرات الشبان من مسلمين يضعون العمامات ويلبسون الجلابيب الحريرية والسراويل المعقودة من أطرافها، ومن يهود يرتدون ألبسة بنية فضفاضة وقلنسوات مستدقة الرأس، ومن مسيحيين يلبسون البنطلونات المنفوخة والسترات

الحريرية المطرزة. وكان يرافق أغنى المتنزهين عبيد يرتدون ألبسة صوفية وقطنية، ويحملون الشراب والحلوى.

وكان يسمع التحدث بجميع اللغات، من العربية إلى البربرية، ومن الرومانية إلى العبرية. وكان بعض القادمين من الشمال ما زالوا يتشاجرون باللغة الفرنسية أو لغة جنوه أو اللغة الفلمندية. وفي الحوانيت التي نصبت فوق الجسر، كان الصائغون يزنون الذهب ويتعاملون بالدينار أو بالريال أو بعملة قشتالة[1] أو بعملة البرتغال.

وكان الحشد يقصد بعد العصر أحياناً أوسع ساحة في المدينة بالقرب من المسجد الكبير، بجانب أشجار ليمون القصر لمشاهدة الثيران وهي تنطلق في الشوارع المرصوفة بالحجارة والشبان يركضون بالقرب منها علامة على التحدي والنساء يصفقن. فكان احتفالاً لا نظير له تختلط فيه الصرخات والضحكات وقرع الطبول وأنغام العود والآلات الموسيقية المختلفة.

في ذاك المساء، بعد مناداة المؤذنين لصلاة العشاء من على المآذن، كان أهالي قرطبة على موعد مع مشهد مختلف كل الاختلاف، جديد بقدر ما هو مخيف. كانوا يتنحون جانباً صامتين ومرعوبين أمام الرجال الذين يلبسون الثياب الزرقاء، وهم فرسان مقنعون ومشاة من البربر ينفذون أوامر الغزاة الموحدين أسياد المدينة الجدد.

قبل منعطف الألفية بزمن طويل كانت الممالك المسيحية في أوروبا ما تزال في حالة من الركود، بينما كان أمراء بني أمية قد

١ـ عملة إسبانيا قديماً (المترجم)

وصلوا إلى الأندلس قادمين من الشرق بعد طرد العباسيين لهم. وكان برفقتهم جنود بربر ويمنيون، فأسسوا إمبراطورية مستقلة تمتد حتى شمال طليطلة. شيدوا أكبر إمبراطورية قوية في العالم في ذلك الوقت، جنباً إلى جنب مع الصين. وكانت إمبراطورية غنية، فقد أصبحت عملة قرطبة الذهبية هي العملة الأساسية في المبادلات التجارية. وكانت إمبراطورية متسامحة، فالمسيحيون واليهود كانوا يعتبرون ذميين وكانوا تحت الحماية. وكانوا بالطبع يخضعون لضرائب باهظة، لكنهم كانوا محترمين. واستمر الكهنة بإحياء قداسهم في الكنائس، كما استمر الأحبار المقيمون في المدينة منذ أول شتات حصل لبني إسرائيل قبل قدوم المسيح بستة قرون، في تعاليمهم في الكنيس.

كان الأمراء المسلمون قد شيدوا مؤسسات متطورة جداً على النقيض من الفوضى التي كانت تعم المسيحية. وكان أسطولهم البحري يسيطر على البحر المتوسط. وقد بنوا في طليطلة الحدائق الغنّاء، وبنوا في غرناطة قصر الحمراء، وبنوا في قرطبة أكبر مسجد في العالم وهو صورة عن المسجد الأقصى الذي كان قد شُيّد للتو في القدس، وكانت قبته الرئيسية محمولة على أكثر من ألف عمود.

كانت قرطبة قد أصبحت عاصمة لإمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف، ووريثة روما تمتد من أفريقيا إلى إكسترمادورا[1]. كانت قد أصبحت المدينة المنارة التي يُتباهى بها ويُفتخر، كانت قد أصبحت «زينة العالم»، المدينة ذات المليون نسمة، وذات المئة ألف حانوت، وذات

١- منطقة في جنوب غرب اسبانيا، عاصمتها مريدا. (المترجم)

الألف مدرسة، وذات الألف وستمائة مسجد، وذات الثلاثة آلاف حوض للسباحة. وكان التجار القادمون من مملكة الفرنج وتوسكانيا وبحار الشمال وشواطئ الهند وباكتريان وإمبراطوريات أفريقيا والصين يحملون إليها قصب السكر والرز والتوت وصَنعة الحرير والجلود. وكانوا قد صنعوا من هذه المدينة الضائعة وسط أراضي الأندلس المدينة الأكثر ازدهاراً في الغرب وأول مركز تجاري في غرب الهند وملتقى العقول ونقطة تلاقي جميع الأديان وملاذاً للهاربين من الظلامية. وسرعان ما غدت الثقافة هاجس المدينة التي أمست مسلمة. كان الحَكم من أوائل أمراء قرطبة، وقد بعث ألف دينار من الذهب إلى أبي الفرج الأصفهاني مقابل الحصول على الكتاب الأصلي لمختاراته في الأدب والشعر العربي. وقد أرسل الأمراء من بعده رسلاً إلى باليرمو والقاهرة ودمشق وحتى الصين من أجل شراء مخطوطات بأي سعر كان. كانوا قد بنوا أضخم مكتبة في العالم تضم ما يقارب ثماني مئة ألف مجلد. وكان يقصدها للدراسة العلماء والخطاطون والمختصون بالمنمنمات والجغرافيون.

و شيدت بالقرب من الجامع جامعة، هي الثانية في الإمبراطورية بعد جامعة القرويين في فاس. وكانت تدرس فيها العلوم الدينية والطب وعلم الفلك والرياضيات والفلسفة، وهو اسم كان يطلق حينئذ على العلم. وأصيب من كان فيها بالدهشة أمام رقم الصفر القادم من آسيا، وشاركوا في النقاش حول مسار كوكب الزهرة الغامض. وتوافد إليها الفلاسفة من بغداد والإسكندرية والقسطنطينية. ومزج فيها المترجمون الشعر البدوي بالشعر اليهودي وكانت رحى المنافسة

تدور بين الأسياد المسيحيين وبين المقرظين في بلاط الخليفة. وكان أن التقى الفن المدجن بفن البناء القادم من فرنسا وجمع ما بين القوس نصف الدائري وبين الأرابسك.

قبل بداية هذه القصة بقرن ونصف، كانت الإمبراطورية قد تفتت إلى ممالك صغيرة تناهز العشرين. وبعد سقوط الإمبراطورية بتسعين سنة، نزل في العامرية في جنوب شبه الجزيرة فرسان بربر قدموا من أقاصي موريتانيا، ويطلق عليهم اسم «المرابطون» وعلى رأسهم شخص يدعى يوسف بن تاشفين. كان قد جمع ثروة كبيرة من نهب الخشب والذهب والعاج من القارة السوداء. وكان يتباهى بالأخلاق، فندد بانحطاط الإسلام المغربي وأعلن أن الموسيقا والشعر هما من أعمال الكفر، والمسؤولان عن تشتت الأندلس وسقوط طليطلة في أيدي المسيحيين. احتل الغزاة فلنسية وسحقوا في طريقهم ملك قشتالة ودخلوا إلى قرطبة سنة ١٠٩١ ميلادية.

وفي الوقت نفسه، بعيداً نحو الشرق، كانت جحافل التتار قد دخلت بغداد وقضت على سلالة العباسيين. وبعد سنتين استعاد المرابطون طليطلة من المسيحيين وأعادوا تأسيس الإمبراطورية.

عندئذ حذر بعض علماء الدين في اليمن من الزهو والاعتداد بالنصر، ورأوا أن المسلمين ليسوا في بيوتهم في الأندلس، فليس وجودهم هناك سوى عقاب على خطاياهم التي كانت سبباً في ضياع عاصمتهم الحقيقية بغداد.

كما قال أكثرهم تشدداً إن الأندلس لن تكون في يوم من الأيام مكاناً لائقاً لمسلم متمسك بدينه. وبرهنت الأحداث أنهم

كانوا على صواب، إذ إن الأندلس نجحت مرة أخرى في قهر فاتحيها.

جاء المرابطون إلى الأندلس لتطهيرها من الآثام لكنهم ما لبثوا أن وقعوا في هوى رغد العيش في قرطبة. فتخلوا عن تشددهم الديني وأغرموا بالشعر والموسيقا وتركوا المذاهب الدينية الثلاثة تتعايش بسلام. ولا يُرى في مكان آخر مثل هذا التعايش بين رجال الإيمان والعلماء والأطباء والتجار لصالح الجميع. وهكذا حكموا أكثر من نصف قرن منطقة تمتد من الأطلسي إلى ليبيا، ومن قرطبة إلى نهر السنغال، بيد أنهم تراجعوا أمام المسيحيين وخسروا طليطلة من جديد.

ولكن هذا لم يكن ليرضي الجميع. فقررت قبيلة أخرى من البربر (الموحدون) أن يعيدوا مسلمي الغرب إلى جادة الطهارة. واستعاد هؤلاء المتعصبون الجدد ممن سبقوهم مكناس وفاس والرباط ومراكش. في البداية لم يشعر أحد بالقلق، ورفض المسلمون واليهود والمسيحيون في بادئ الأمر التصديق بما يرويه اللاجئون القادمون من سبتة وفاس من أن هؤلاء المتشددين كانوا يجبرون سكان المدن التي يفتحونها على أن يحفظوا عن ظهر قلب بعض نصوص شخص يدعى ابن تومرت وإلا كان الموت من نصيبهم. وابن تومرت هذا كان إماماً بربرياً وكان قد أمضى عشر سنين في الشرق الأوسط. وكان هؤلاء المتشددون قد نصّبوه زعيماً فكرياً عليهم، وبلغت بهم الجرأة إلى أن يطلقوا عليه اسم المهدي، وهو اسم خصته الشيعة بالذي سيأتي لينقذ الأرض «بعد أن يعمها الجور والظلم». كان ابن تومرت قد أنشأ مذهباً

يقضي بالتطبيق الحرفي للقرآن، وكان يدعو إلى نبذ أي مفهوم عن الله لا يكون مفهوماً مجرداً. وعندما توفي ابن تومرت ظن جميع الناس أن هذا الضلال سوف يزول معه.

لذا لم يولِ أحد أهمية لزعيم حربي خرق القواعد الجماعية التي وضعها المهدي واتخذ لقب أمير عبد المؤمن (أمير المؤمنين) واحتل كامل المغرب حتى سبتة، من وهران إلى سجلماسة[1] ومن تلمسان إلى مراكش. ولم يقلق أحد لأعمال الابتزاز التي ارتكبها بحق الطوائف المسيحية واليهودية في المغرب. كما لم يحرك أحد ساكناً عندما جعل من ابن تومرت نفسه شبه نبي والمفسر الوحيد للقرآن. كما أنه لم يجد أحداً يأخذ على محمل الجد المنظمة المدهشة التي أسسها مع شبكة في كل قرية من الجواسيس والعملاء المروجين لدعوته والمؤهلين تأهيلاً كاملاً، وحوله ارستقراطية الدولة ممثلة بالشيوخ.

كانت اللامبالاة تضرب أطنابها في قرطبة، عاصمة المرابطين. وقبل بداية هذه القصة بستة شهور، حوصرت المدينة، حاصرتها القوات المسيحية بقيادة الفونس الأول البرتغالي الذي كان استولى للتو على لشبونه بمساعدة الفرسان الإنكليز والفونس السابع القشتالي، فطلب الأمير النجدة من الموحدين. وأيد مسيحيو ويهود المدينة هذا الطلب، وكان الجميع مقتنعين أن تعصب الموحدين ليس سوى واجهة وأنهم على كل حال سوف يستسلمون لرغد العيش كما كان الحال مع جميع المحتلين قبلهم.

١ـ مدينة في المغرب (المترجم)

وبانت بوادر الشك عندما عبر مئة ألف من الفرسان الموحدين المضيق واجتاحوا ميناء أليسانه[1]، وأجبروا المسيحيين واليهود الذين استقبلوهم بالورود على اعتناق الإسلام بالقوة. وأعلن هؤلاء المحاربون المتعصبون أنهم مطهرون للأرض وخصوم للعباسيين السنة في بغداد وللفاطميين الشيعة في مصر وللإمبراطورية الرومانية الجرمانية ولأتباع تانغ في الصين. وأعرب زعيمهم عبد المؤمن عن نيته في تشييد إمبراطورية متوسطية تضم من الأندلس إلى الهند أراضي لم يفتحها قبله الإسكندر أو قيصر.

بعد الاستيلاء على أليسانه ببضعة أسابيع وبعد ثلاثة أيام من الأعياد الكبيرة التي تقام مع بدء الربيع، وبينما كان حصار قرطبة ما زال مستمراً، ضربت هزة قوية المدينة. سمعت في البداية أصوات مدوية اعتقد أنها قادمة من مكان آخر في المدينة. وتبع ذلك زلزلة عنيفة قلبت الشمعدانات والأثاث والأواني رأساً على عقب، وهبت رياح عنيفة من الغرب فأثارت سحابات من الغبار وترنح أكبر مسجد في العالم فوق قواعده، وتصدعت سبعة وخمسون من أعمدته البالغة ألف وثلاثة عشر عموداً، وانهارت انهياراً جزئياً ثلاثة من صحونه التسعة عشر، وسقط على الأرض درج أحد أبراج المراقبة فيه، وتشققت جدران ثلاث من أقدم الكنائس التي تخص مذهب wisigoth - وهي سانتا كلوتيدا و سانتا ماريا دي فلور وسانتا جم -، وانخسفت عشرات البيوت في الأحياء القديمة من المدينة السفلية التي تقع على

١- مدينة صغيرة بالقرب من قرطبة، وكان معظم سكانها من اليهود. (المترجم)

مقربة من ورش الصباغين، وهلك فيها مئات من ساكنيها. وقدرت الخسائر بملايين الدنانير ومليارات الفلوس. وعقدت السلطات الدينية بصورة استثنائية اجتماعاً بزعامة القاضي المعظم ابن رشد ومطران دييغو دو سانتا ماريا والحبر الأعظم موسى بن إسحاق بن ميمون، وقرروا أن تقام صلوات مشتركة لترافق الضحايا إلى جنة الله.

بيد أن بعض رجال الدين المسيحيين والإسلاميين قالوا إن هذه الصلوات المشتركة غير لائقة. وكانوا على اقتناع أن اليهود هم المسؤولون عن حدوث الهزة الأرضية بسبب أعمال السحر التي يمارسونها. وكان دليلهم في ذلك هو أن الكنيس الكبير لم تمسه الكارثة بأي ضرر ولم يتهدم أي من بيوت الحي اليهودي. وكان البعض يلمح إلى أن أحبار كنيس بار كوشبا، وهو أصغر كنيس وأكثرهم تواضعاً، قد طلبوا من أفراد طائفتهم عشية الكارثة أن يقضوا الليل في الخلاء. وذهب بعض الأئمة إلى التأكيد أنهم رأوا بين الضحايا عدداً كبيراً من المسلمين الجدد، من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، وكان أبناء دينهم السابق يسمونهم باحتقار «المُكرَهون».

ورأى البعض الآخر وهم الأقوى بصيرة بين الأئمة والأحبار والكهنة في ذلك علامة على أفول شمس المدينة المحتوم. وطلبوا من أتباعهم أن يكذبوا هذه الاتهامات الباطلة وأن يستعدوا لمواجهة أحداث مأساوية، وأن يحتفظوا بذكرى الأيام الحلوة التي مضت إلى غير رجعة.

وبعد الكارثة بأيام فرض علي بن تاشفين، وهو آخر أمير من سلالة الأمراء المرابطين الذين استوطنوا هنا منذ أكثر من ستين

عاماً، على اليهود ضريبة استثنائية فورية تسمى الجزية، وعلى المسيحيين ضريبة تسمى الخراج لكي يعوض عن ضعف الزكاة التي يخرجها المسلمون. ولكن هذا الإجراء لم يفِ بالغرض، إذ إنه لم تبذل أيّ عناية جدية للضحايا وقضى الكثير من سكان الأحياء السفلية نحبهم جوعاً وعطشاً، لا بل واختناقاً تحت الأنقاض.

وقعت بعد ذلك أعمال شغب وظهرت إلى العيان من جديد مذاهب وأخويات اعتقد أنها اندثرت. واضطر الحرس الشخصي لأمير المرابطين، وهو مؤلف من جبابرة مصريين، أن يخرج من ثكناته ليدافع عن القصر الذي كان الأمير قد تحصن فيه. ومن أجل منع أعمال النهب توجب سحب قسم من المئة ألف جندي من على الأسوار وقسم آخر من الخيالة المخيفة التي كانت تدافع عن المدينة المحاصرة من المسيحيين والذين حوصروا بدورهم من الموحدين الذين كان أهالي قرطبة قد استنجدوا بهم.

في خضم هذه الفوضى وبعد ثلاثة أسابيع من الزلزال، قام ضابط مغمور اسمه ابن حمدان بالإطاحة بأمير المرابطين ونصب نفسه أميراً على المسلمين «الإمام الأعلى»، وأمر بمواصلة الجهاد ضد المسيحيين وضد آخر أنصار المرابطين في وقت واحد. وكان هؤلاء قد التجؤوا إلى جزر البَليار. وشعر أن عليه أن يختار بين أعدائه الكثيرين، فاعتنق المسيحية وأثار بذلك حفيظة أهالي قرطبة الذين أطاحوا به وفتحوا أبواب المدينة أمام الفرسان البربر وعددهم يناهز المئة ألف فارس، فدحروا المحاصرين المسيحيين وأوقعوا بهم الهزيمة.

كان في استقبال الجنود المنهكين والفرسان المهيبين باللباس الأزرق والملثمين كما درجت العادة عند بدو الصحراء الرّحل، مواكب طويلة اختلط فيها الموسيقيون والحيوانات من كل صنف ونوع.

وخرج وجهاء المدينة من مسلمين ومسيحيين ويهود لاستقبالهم. وكان لديهم قناعة أن القادمين الجدد سيسحرهم رغد العيش في أجمل مدينة في العالم كما سُحر المرابطون من قبلهم، وأنهم سوف يحافظون على الحرية التي لا نظير لها والتي كانت قد سادت منذ أكثر من أربعة قرون.

زار الحكام الجدد المكتبة العامة دون ضجة وعبروا الحي اليهودي على ظهور الأحصنة قاصدين المسجد الكبير فاستقبلهم الأئمة بحرارة كبيرة. ودهش الجميع لرؤية هؤلاء الرجال وهم يضعون اللثام في كل مكان يذهبون إليه، وهو في نظرهم دليل على الطهارة كما كان في نظر المرابطين الأوائل.

رفض عبد المؤمن أن يشغل الشقق الفخمة التي شغلها سلفه في القصر، وسكن الطابق الأرضي المؤلف من غرفتين صغيرتين وأمر بتجهيزهما بسجادة للصلاة وبغطاء، بجانب الفناء الداخلي المخصص للمقابلات. واشترط على الموظفين والقضاة والمعلمين والأدباء والمترجمين، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً يمين الوفاء لقاعدة ابن تومرت التي تؤكد على التوحيد، أي وحدانية الله المطلقة. وكان على كل واحد أن يتلو هذا القسم عن ظهر قلب كلما طلب رجل باللباس الأزرق ذلك: «أعاهد الله أن تكون طاعتي للعلي الأعلى

وأن أدخل في شريعة التوحيد كما يقتضي التوحيد الأكثر كمالاً، وأجهر أن الله قد أرشدني إلى الطريق المستقيم وإلى صحبة رجال التوحيد.» وأفصح عبد المؤمن عن نيته بحظر الموسيقا الأندلسية والرياضيات الفارسية والشعر العربي. وكان يقول إنه أتى إلى هنا لكي يوقظ الإسلام من غفوته كما فعل المرابطون منذ ستين سنة خلت، ويعيد توحيد الأندلس واستعادة الأراضي التي أخذها المسيحيون.

ما عاد أولئك المسيحيون واليهود الكثيرون جداً ممن دعموا الموحدين ضد القشتاليين، ما عادوا يشعرون بالارتياح، فانتقل البعض منهم ولا سيما التجار والعلماء إلى طليطلة. وهاجرت بعض العائلات اليهودية إلى تركيا ومصر دون أن تتمكن من بيع بيوتها أو تجارتها أو أراضيها. ضاعف الرجال الزرق من دورياتهم لوقف هذه الهجرات وأغلقوا أبواب المدينة إغلاقاً محكماً. ولأول مرة منذ قرون يكون العبور من الأندلس المسلمة إلى قشتالة المسيحية خاضعاً لمراقبة شديدة جداً.

دُفع اليهود والمسيحيون الذين لم يهاجروا لاعتناق الإسلام. ولم يكن هذا قسرياً بعد وإنما ضغطاً قوياً جداً. وساد شعور بأن الكفار، أهل الذمة أنهم سوف يتعرضون للإهانات الكثيرة ولن يعود في مقدورهم ممارسة معظم مهنهم وأن أملاكهم سوف تفقد كل قيمة لها. وقيل لليهود لا سيما أن أجدادهم كانوا قد قطعوا عهداً على أنفسهم أمام محمد أن يعتنقوا الإسلام بعد خمسة قرون إذا لم يأت المسيح. وشرح الأحبار أنه لا يوجد أي أثر في أي مكان

لمثل هـذا الوعـد، لكنهم لم يستفيدوا شيئاً وأخـذ الضغط عليهم يشتد يوماً بعد يوم. وراح الناس يسألون أحبارهم في الكنائس: لماذا يقف المسلمون الذين خلصوا اليهود من بطش الفيزيقوت والفرس والبيزنطيين اليوم ضدهم؟ هل استبدل الله شعبه المختار؟ وما هي الخطايا التي يكفرون عنها هكذا؟ ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟ الدخول في دين غير دينهم؟ هل يبقون أم يهربون؟ وطفق بعض الأحبار يشرحون أن قرطبة عاصمة اليهود السفارديم، الموطن الذي يحلمون به والذي تكلم عنه النبي - عوبديا «Abdias» قد أصبحت من الآن فصاعداً ملعونة وأنه ينبغي مغادرتها إلى الأبد. وأوصوا بالالتحاق بالجماعات اليهودية في أرض المسيحية في طليطلة وفي البروفانس. ولم يتصور البعض الآخر أن بإمكان اليهودي أن يعيش على أرض أخرى غير أرض الإسلام، فعرضوا الرحيل إلى الأرض المقدسة أو إلى مصر وكان يقال عنها أنها مضيافة. وقال فريق ثالث إن كل ذلك لن يدوم، وإنهم لا يستطيعون التخلي عن مستخدميهم المسلمين اللذين يحتاجونهم ولا أن يهاجروا تاركين وراءهم أملاكهم وموتاهم على وجه الخصوص. فبالنسبة لهم كان ينبغي إذاً البقاء مع احتمال اعتناق الإسلام ظاهرياً، ولم يكن الموحدون يراقبون ممارسات الداخلين حديثاً في الإسلام، ولم يطلبوا منهم القيام بأي عمل يدنس القُدسيات. فالأمر ليس على درجة كبيرة من الخطورة، وإنما ظرف عصيب ينجلي والمهم هو أخذ جانب الحيطة والحذر. لم يُوصَ أحد بالانتحار كما فعل حاخام Worms الذي تعرض لموقف مماثل عندما التقى بصليبيين في طريقهم إلى القدس.

وفي الأيام التالية طلب أعيان الطائفة مقابلة رئيس المحكمة الدينية اليهودية، ويدعى «أبو عمران ميمون بن عباد»، الحبر ميمون، ويقال أنه يتحدر مباشرة من سلالة الحبر إيهودا حنسي، أمير الأمراء الذي ألف في القدس الميشنا Mishna وهو من أقدس كتب تفاسير التوراة التي كتبت منذ ألف سنة. ولم يكن الحبر جاهزاً لاستقبالهم، فزوجته سارة كانت مريضة جداً، لا بل كانت تحتضر، ولم يعد في مقدور أي طبيب في قرطبة أن يفعل لها شيئاً. ومما زاد لا سيما في مرضها هو أن أخاها القصّاب إليفار أبو ألف ابن عطار كان قد اعتنق الإسلام عند دخول الموحدين المدينة.

كان أخوها رجلاً بسيطاً ورث مهنته عن أبيه تاركاً أخته سارة لتصبح فرداً من أفراد آل ميمون الموقرة. وتسبب زواجها بفضيحة، فكيف يمكن لوريث أكبر عائلة من الأدباء في الأندلس وأفضل مفسر للتلمود والقاضي الأعلى لجميع الطوائف أن يتزوج ابنة وشقيقة قصّاب؟ من المؤكد أن سارة كانت جميلة جداً وكان شعرها الأشقر حلية فريدة في الأندلس، ولكن ذلك لم يكن يكفي لتمويه أو لتبرير هذا الزواج غير المتكافئ. فتساءل البعض إن لم يكن إليفار قد دخل الإسلام بموافقة صهره وإن لم يكن قد أرسل في مهمة استطلاعية تمهد لدخول الطائفة بأجمعها في الإسلام.

قبل الحبر ميمون بعد عدة أيام قضاها في الصلاة على زوجته المحتضرة أن يستقبل الأعيان. قال لهم: لا تقلقوا فكل شيء سوف يسوّى. من الممكن أمام تهديد الموت القبول باعتناق صوري مؤقت فتصبحون من جماعة «المُكرَهون» anoussim ولا يعتبر ذلك عملاً

تجديفياً على غرار ما فعله إليفار. وعلى كل حال فإن الإسلام أنقى الديانات التوحيدية، فلا تحوي جوامعهم وهي أبنية من حجر وخشب أصناماً بخلاف الكنائس.

ولكي يبقى اليهودي المجبر على اعتناق الإسلام على دينه، يكفي أن يستمر في الصلاة بسرية ولو باختصار، وأن يبقى محسناً للجميع. وهو بنفسه أضاف للتو إلى اسمه لفظة «عبد الله القرطبي» دون أن يعتنق الإسلام، (كان هذا من شأنه أن يفسح المجال للظن أنه مستعد لأن يكون من «المُكرَهون») ولكنه أضاف أن ذلك فقط من أجل كسب الوقت استعداداً للرحيل.

إذا كنت أمام قاطع طريق يطلب منك مالك أو حياتك، فالأفضل أن تتخلى عن المال ثم تولي الأدبار. إذ إن اعتناق دين غير دينك ولو في الظاهر ليس بريئاً أبداً. وقد أصبح أبناء «المُكرَهون» في كثير من الأحيان مسلمين حقيقيين ذوي صيت وسمعة، فابن بركات البغدادي الذي اعتنق الإسلام تحت اسم أوحد الزمان كان قد أصبح في وقت من الأوقات واحداً من أكبر الفلاسفة المسلمين، وكان تلميذه صموئيل المغربي عالماً رياضياً مشهوراً، وهو يهودي اعتنق الإسلام، ومؤلف كتاب «الجبر البحيري». وأخيراً أوضح ميمون قائلاً بأنه تكلم في الأمر مع المطران وكانت تلك هي بالضبط النصيحة التي نصح بها هذا الأخير مسيحيي المدينة: «اعتنقوا الإسلام وأعدوا للرحيل عدته. ولا تقلقوا فذلك لن يدوم زمناً طويلاً، فسوف نعود وسوف تكون عودتنا إلى قرطبة الحبيبة في أسرع وقت.»

وعمل الكثير من اليهود بنصيحة ميمون، فأعلنوا إسلامهم على الملأ في المساجد وأعدوا أنفسهم للرحيل وعمدوا إلى بيع أملاكهم خلسة إلى أصدقائهم المسلمين. واستمروا كما أمرهم ميمون في ممارسة طقوس دينهم بسرية، فلا يجوز أيام السبت إضاءة النور أو الذهاب إلى العمل أو التوجه إلى المسجد تلبية للأذان.

افتضح أمر البعض منهم. فقد دهش رجال شرطة الأمير الجديد من هذه الموجة الحماسية للدخول في الإسلام، فاستدعوا بعض الذين أعلنوا عن تغيير دينهم بطريقة أكثر صراحة وعلانية، وبلغتهم الأوامر بالقدوم إلى المسجد الكبير يوم السبت بالنسبة لليهود ويوم الأحد بالنسبة للمسيحيين. أحس البعض بالفخ فذهبوا إلى المسجد. وغادر البعض الآخر المدينة ليلاً على الرغم من نواهي يوم السبت ويوم الرب ونجحوا في مغافلة حراس الأبواب.

أما الذين لم يستطيعوا أن يقرروا مع هذا الرأي أو ذاك فقد تم اعتقالهم. ورُحِّل معظم السجناء من مسيحيين ويهود إلى سالي في المغرب واعتبروا عبيداً. وحُكم على آخرين بالموت مع بعض المسلمين المشتبه بأنهم ساعدوهم عن طريق شراء أملاكهم منهم.

سيق المرتدون إلى حتفهم في موكب مخيف. وكان ذلك بعد عصر يوم جميل من أيام الربيع. وكان في انتظارهم حشد من الناس على جانب ضفتي نهر الوادي الكبير، وكان مختلفاً جداً عن الحشد المبتهج والمسرور في الأمسيات الأخرى. كان حشداً صامتاً معظمه من الرجال وكانت أبصارهم شاخصة إلى فرسانٍ قارب عددهم المئة، وقد ارتدوا ثياباً طويلة زرقاء وعمامات زرقاء. كانوا يتقدمون على طول

النهر، على الضفة اليمنى منه، ويدفعون أمامهم زهاء ثلاثين رجلاً وامرأة يمشون حفاة ويلبسون جلابيب حمراء وقد ربطت أيديهم إلى ظهورهم، ووضعت قبعات كبيرة صفراء على رؤوسهم وعلقت لافتات في أعناقهم.

كان بينهم خمسة عشر يهودياً وستة مسيحيين وأحد عشر مسلماً. وكان من بين اليهود يوسف ابن بروجل، ابن أخ الشاعر الكبير إيهودا حليفي الذي هاجر للعيش في فلسطين قبل عشر سنين. وكان يوسف هذا شخصية معتبرة، فهو ابن مستشار ملك طليطلة المسيحي، وقد جاء للعيش في قرطبة قبل ستة أشهر عندما أقدم مسيحيون على اغتيال أبيه، وقد ظن كسائر الناس أن مسلمي قرطبة سيعاملون اليهود معاملة أفضل من معاملة كاثوليكيي طليطلة لهم. وكان أيضاً من بين المحكومين بالإعدام أليفار أبو ألف بن عطار، شقيق زوجة الحبر ميمون.

في إحدى نوافذ البرج الحجري الوردي المشرف على الواجهة الشمالية لقصر مدينة الزهراء والمطل على السور ذي الشرفات والمدعم بالأبراج المربعة الشكل، كان مظهر الأمير الجديد عبد المؤمن تبدو عليه إمارات الضجر.

كان الأمير «الرهيب» محاطاً بحاشيته وبالسفراء من جميع أنحاء العالم. وكان إلى جانب الأمير المنجمون الذين يلبسون جلابيب سوداء ويعتمرون عمامات مذهبة، والذين لم يكن العاهل ليفترق عنهم مطلقاً. وكان المنجمون قد تجادلوا أياماً حول موعد عقوبة الإعدام، وحول طبيعة هذه العقوبة. ارتأى البعض أن تنفذ العقوبة بوساطة الطوق

الحديدي الذي يخنق ضحاياه، وكان البعض الآخر مع الصلب، وكان فريق ثالث مع الخازوق، أما الفريق الأخير فكان مع المحرقة. كان الأمير قد مل جدالهم فانتهى إلى اتخاذ القرار بنفسه. فاختار الخازوق للمسلمين المتواطئين مع المرتدين، واختار الصلب للمسيحيين، واختار المحرقة لليهود، واختار الطوق الحديدي للنساء (لأنه الأسرع)، وخص رجلاً واحد بمعاملة خاصة هو إليفار أبو ألف بن عطار فحكم عليه بالشنق.

سرت عن إليفار إشاعات تقول إن أناساً ذوي نفوذ كبير ومقربين من الخليفة الجديد أرادوا تهريبه من السجن، لكنه رفض ذلك بنفسه. وقيل أن أحد مستشاري حاكم المدينة الجديد قد زاره في السجن لكي يرجوه أن يقبل عفوه فرفضه. ولم يكن أحد ليفهم أين تكمن أهمية هذا القصّاب، ولماذا أعدم إذا كانت له مكانة عالية.

جلس بين أعيان المدينة في الصف الثالث خلف العاهل الجديد شاب في الثالثة والعشرين من عمره، وكان يرنو ببصره إلى الموكب وهو يتقدم. كان اسمه أبا الوليد محمد بن رشد الذي يسمونه «Averroès»، وكان قد عين لتوه قاضياً نظراً لموهبته من جهة، ولأنه ابن قاضي القضاة من جهة أخرى. وجلس إلى جانب الأمير مباشرة والده القاضي جليل القدر أبو القاسم أحمد بن رشد. وكان أيضاً حفيداً للمعظم محمد بن أحمد بن رشد الذي كان بدوره طبيباً ذائع الصيت وقاضي الطائفة ومستشار السلطان علي، كما كان أبو جده عند يوسف بن تاشفين فاتح الأندلس. وكانت كنيتهم أشهر من نار على علم، فقد كانت تعني الحقيقة والنزاهة. وقد استعار الخليفة

البغدادي الكبير هارون الرشيد[1] هذه الكنية واتخذها لقباً له منذ قرنين من الزمن.

كانت هيئة الفتى وجلسته وكذلك حال أبيه تتباين تبايناً عن بقية المشاهدين الجالسين في منصة الخليفة، فلم يكن في سلوكهما مجاملة ولا في ثيابهما وسعة وإنما بساطة. ولم يصفقا لوصول الموكب إلى الجسر الروماني. ولم يكن الأب ولا ابنه ليقبلا بتحمل مسؤولية الحكم، إذ إنه حتى ذلك الوقت لم يكن الإسلام في قرطبة يقر الإكراه في الدين، فلم يكن هؤلاء الناس في نظر آل ابن رشد مرتدين.

كان الفتى ينظر إلى المشهد نظرة حزينة، فلم يتعرف على مدينته عندما كان فيها طفلاً يحضر قداس عيد الميلاد في كنيسة «سانتا ماريا Del Fe»، وقداس[2] Roch Hashanah في الكنيس الكبير المُهدى إلى باركوشبا. وخمن أنه لم يعد في استطاعة الفتية المسلمين أن يلعبوا كما كان يلعب هو في أغلب الأحيان مع الفتية الذميين من أعمارهم، ولا الجري سوية خلف الثيران التي أعدت للاحتفالات.

ومع ذلك لم يكن معادياً للسلطة. اتصفت السلطة السابقة بالفساد، وكان ابن رشد يعلم أنه لا بد لهذا السلطة الجديدة من أن تمر بفترة من الخشونة قبل أن تلين، كما كانت الحال مع السلطة السابقة. كان مقتنعاً أن الموحدين لن يستطيعوا بصورة مستديمة حظر دراسة العلوم والفلسفة التي تفتخر بها بغداد وقرطبة، ولن يستطيعوا

١- كلمة رشد ورشيد هما من جذر واحد. (المترجم)

٢- رأس السنة الجديدة عند اليهود. (المترجم)

فرض الرقابة على عباقرة اليونان الأفذاذ الذين لا يستطيع الإسلام من دونهم التقدم أو فرض نفسه على العالم. لقد تقرر مساعدة الحكام الجدد على الوعي بالدور الجوهري للأندلس في طليعة الإسلام، ووعي رفعة الأندلسيين لأن ابن رشد كان يحس بنفسه أندلسياً يفتخر بإسلامه دون أدن شك، ولكنه أندلسي قبل كل شيء.

قبل بضعة أسابيع من ذلك، أدى الفتى قسم الولاء للأمراء الجدد كسائر قضاة قرطبة. وكتب لهم من فوره معبراً عن إخلاصه «رسالة حول الجهر بالإيمان للإمام المهدي» و «ورسالة في كيفية دخوله في الحالة الأسمى». ولم يكن هذا النوع من السلوك يضايقه قط، فقد كان يعلم أن النضال الحقيقي المقبل سيدور ليس حول طهارة الإيمان وإنما حول حق الإسلام في بقائه منفتحاً على العلم. كان يعلم أن القضية السياسية الكبرى المقبلة هي الصدام بين الإسلام والمسيحية، وهو صدام أساطيل بحرية أكثر منه صدام عقائدي من أجل السيطرة على الطرق التجارية والنفوس. وقد فهم أن الفلاسفة والعلماء الذين ينشد الحكام الحاليون مساعدتهم تارة والتضحية بهم تارة أخرى، سيكونون أول رهاناتهم.

و تنبأ أن بقاء الإسلام في أوروبا مرهون بقدرته على الانفتاح والتسامح وقبول الأفكار الجديدة والابتكارات في المجالين التجاري والتقني.

لم يكن ابن رشد إذاً يحسب المشهد الذي تجبره مكانته الاجتماعية على حضوره. كان مقتنعاً بتفوق الإسلام فلم يكن يؤمن أن اعتناق الكافرين للإسلام يجب أن يتم بحد السيف. حاد ببصره

عن الساحة التي كانت تحضر فيها أدوات تنفيذ الإعدام وراح يتأمل عامة الناس، فلمح بعيداً على الجسر جماعة صغيرة من اليهود يعرفون من ثيابهم وكان يبدو جلياً للعين أنهم يصلون. كيف تجرأ هؤلاء المساكين على المجيء لمشاهدة تنفيذ إعدام إخوانهم بينما كان يتوجب عليهم في هذه اللحظة تحضير أمتعتهم للسفر؟

وتعرف من بين هذه الجماعة على واحد من أصدقاء والده، ويشغل منصب رئيس جميع الطوائف في قرطبة، واسمه ميمون ابن عبد الله القرطبي الإسرائيلي، وكان برفقته غلام شاب.

ساعد الحبر ابنه موسى ذا الأربعة عشر ربيعاً لكي يقف على حافة الجسر. وكان الغلام يسعى ألا يفوته شيء من المشهد. وما كان أبوه ليصطحبه معه على طريق الآلام هذا لولا أن زوجته المحتضرة سارة بنت عطار ألحت عليه كي يأخذ معه ابنهما البكر على الأقل، فقد كانت مصرة أن يحضر موت أخيها ويسمعه للمرة الأخيرة وينقل إليها آخر كلماته.

شد موسى يده اليمنى على قطعة النقود الذهبية الثقيلة التي لم تفارقه منذ أسابيع وأسبل عينيه نحو أبيه الذي كان يصلي مع الآخرين.

وعند الوصول قال له ميمون: «انظر يا ولدي ولا تنس شيئاً على الإطلاق مما أقول: نحن هنا منذ خمسة عشر قرناً، وانظر إلى المعاملة التي نلقاها. لسنا في بيوتنا إلا عندما نكون مع الله في العقل، ولن ننعم بالسلام في أي مكان على هذه الأرض، وعندما ننسى ذلك تأتي المصائب وتذكرنا به.»

ولم يفهم موسى لماذا والده يكلمه بهذه الطريقة. فمنذ نعومة أظفاره سمعه يكرر عكس هذا الكلام، ويشرح له أن قرطبة مدينة يهودية أسسها اليهود قبل سبعة عشر قرناً على الأقل، قبل أن يتعلم المسيحيون طريقة العد بخمسة قرون. وقد عاش اليهود فيها مع سينيكا وأدريان وربما أيضاً مع أرسطو. وكانوا في بيوتهم بأحسن حال مما لو عاشوا في القدس. كانت قرطبة عاصمة لا مثيل لها ولم يستطع أي من الغزاة أن يغير هويتها اليهودية، فقد كان اليونان والقرطاجيون والرومانيون والإثيوبيون والأفار والسلتيون والإبيريون والفنيقيون والفاندال والسويفيون والفزيقوت والبيزنطيون والفرنجة جميعهم مجرد عابرين، أما اليهود فقد كانوا فيها مستوطنين.

ومنذ أن فتحها الإسلام قبل أربعة قرون، كانوا يشعرون أيضاً أنهم بأحسن حال، أحرار في الصلاة في معابدهم العديدة والتي يخضع كل منها لتنوع لا ينتهي من الطقوس: مصري أو روماني أو بيزنطي أو يوناني أو ألباني أو بغدادي. وكانوا أحراراً أن يدرسوا في جميع هذه اللغات وأن يبدؤوا مع المسيحيين والعرب والبربر والقشتاليين والإيطاليين والأتراك والصينيين، أحرار أن يسافروا ببالاتهم القطنية وأقمشتهم الحريرية ورسائلهم وكتبهم. وحتى أن كثيراً منهم كان يعمل في بلاط الخليفة كتجار أو مصرفيين أو موسيقيين أو فلاسفة أو شعراء. وكانوا يتكلمون باللغة العربية التي كان يقول عنها والد موسى إنها بين اللغات كالربيع بين الفصول. كانوا ينتمون إلى هذا العالم الأندلسي لدرجة أن بعض المسؤولين في الطوائف البولونية زاروا قرطبة وطليطلة شمالاً مرات عديدة لمعرفة أخطار الضلال المحدقة

باليهودية الإيبيرية بسبب التعايش المفرط في السهولة مع الديانتين التوحيديتين الأخريين.

وأولى قليل منهم اهتماماً للمواجهة الجذرية التي كانت تلوح في الأفق بين المسيحيين والمسلمين، بين إيدوم وإسماعيل، وقلة قليلة تنبأت أن اليهود قد يكونوا ضحايا هؤلاء وأولئك.

كان موسى يستبعد فكرة مغادرة مسقط رأسه لاسيما أن والده كان قد بدأ منذ ثلاث سنين بتلقينه كل ما من شأنه أن يعده لتبوؤ منصب رئيس الطائفة في قرطبة. بل وشرح ميمون لابنه البكر أنه سيأتي يوم يتوجب عليه فيه أن يعد فلذة كبده للمهمة نفسها كما كان والده قد أعده لها، وجميع هؤلاء الجدود منذ ألف سنة وحتى نهاية الأزمنة إذ إن ميمون قد أكد أنهم سيعيشون حتى مجيء المسيح.

كان الحبر ابن ميمون قد بدأ بإطلاع ابنه على أسرار التلمود وعلى جميع تفاسيره. وكان موسى يتمتع بذاكرة عجيبة، فكان ماهراً في هذا النشاط. شرح له ميمون أن اليهودية ديانة منفتحة ذات صدر رحب وأن أي شخص يمكنه الدخول فيها إذا كان يطمح إليها طموحاً صادقاً. كان يقول إن من يعتنق اليهودية ليس بأدنى مستوى من يهودي المولد، فالدخول في اليهودية هي قرابة رمزية وليست قرابة دموية، وإن اللُحمة الكبرى للشعب اليهودي الذي يوجه طاقته لخدمة الله هو التقيد بالوصايا التي هي التجلي المحسوس المرئي للعناية الإلهية. وكان يشدد على أن هذه الوصايا لا تتمتع بقوة سحرية لأن مكافأتها هي خدمة الله التي هي غاية بحد ذاتها.

وشـرح ميمـون لولـده أيـضاً أن أعيـاد المسلمين واليهـود واحـدة وتقاليـدهم واحـدة وموسـيقاهم واحـدة، وإلهـم واحـد ظهـر للنـاس بالكلمـة الـتي أنزلـت علـى الأنبيـاء في مناسبات عـدة، وأنهـم يؤمنـون بالحياة الأبدية وممارسة الختان واتباع القواعد الغذائية، وأضاف: إن لغتينا تعبرا عن تقاربنا. واختتم حديثه قائلاً: نحن مع ذلك مختلفون، فلـدينا معاهـدة خاصـة مـع الله يعترف بهـا المسلمون. وأرض الإسـلام بالنسبة للمسلمين هـي كـل الأرض، وكـل رجـل هـو خليفـة الله في الأرض. ولديهم أماكن مقدسة ولكنهم لم يرسموا حدودها أما نحن فقد حـددناها. فهـم يمارسـون الديانـة الوحيـدة ذات الـشمولية المطلقـة. ولهذا السبب ينبغي احترامهم، ولهذا السبب ليس الإسلام بديانـة مقلقـة لليهودية.

واحتاج المسلمون في كل مكـان استولوا فيه علـى السلطة إلى اليهـود لجبايـة الـضرائب وإدارة الـديون وترجمـة النـصوص وتنظيم التجارة ودفع الطب إلى الأمام. وأضاف ميمون: «إن مسلمي قرطبة مولعون مثلنا ولعاً خاصاً بالحقيقة والعلم والعقل والفلسفة، ويحبـون مثلنـا النقـاش حـول طبيعـة الكـون وأسـباب تكوينـه ومكانـة الإنـسان في الخليقـة. ولهـذا الـسبب نقـف إلى جـانبهم في مواجهـة المسيحيين المشركين الـذين يمقتوننـا لأنهـم بنـوا إيمـانهم على موت إيماننا.»

وكـان ميمـون قـد حدثـه عـن المنازعـات المشهودة بـين العلمـاء اليهود القرطبيين من القرن الماضي الذين انقسموا بين فريق يرى أن العالم لا يُفهم إلا بالإيمان وآخر يفهم الله بوساطة العقل.

ونجد بين الفريق الأول الميتافيزيقي والشاعر العظيم ابن غابريول. كان يقول إنه ينبغي أن نؤمن من دون أن نفكر، وأن نفكر بالخير لا بالحقيقة وأن نكافح الكبرياء بالندم وبالتوكل على الله وبالاعتراف المباشر وبالبحث عن المغفرة.

وكان موسى يحب قراءة هذه العبارات: «الكلمات على اللسان والفهم في القلب والصلاة في الجسد والتركيز في العقل.» ولكن ميمون حدثه على وجه الخصوص عن صديقه إيهودا حليفي الذي هاجر إلى قرطبة ومنها إلى طليطلة ثم عاد إلى قرطبة، وكان يكره الإغريقيين ويمقت إله الفلاسفة وكان يعتبره نوعاً من «نرجسي أبدي» أدار ظهره لخليقته. وهو أيضاً كان يعتقد أنه ينبغي أن نؤمن من غير تفكير وأن «العبودية نحو الله هي الحرية الحقيقية وأن التواضع أمامه هو الشرف الحقيقي.»

كان جميع يهود قرطبة معجبين به. وهو الذي كتب: «إن قلبي في الشرق بينما أنا في صميم الغرب.» وقد فاجأ الجميع برحيله قبل عشر سنين إلى الأرض المقدسة تاركاً وراءه فراغاً كبيراً. وذكر ميمون من بين الفريق الثاني العقلاني بايا ابن باكودا الذي كان يرى أن أفضل طريقة لمحبة الله هي السعي لفهم منطق الكون.

تدافع الجمع المحتشد لرؤية المحكومين على نحو أفضل وهم يعبرون الجسر ففقد موسى توازنه وكاد أن يسقط في نهر الوادي الكبير. وصرخ الغلام وكذلك الأب، وذهب تفكير موسى إلى أمه المريضة وتمنى أن تكون بالقرب منه. وكان الهلع بادياً في عيون هذا، وعيون ذاك. وأمسك ميمون موسى من كم قميصه وضم كل واحد

منهما الآخر إلى صدره. وكانت البقية الباقية من الجمع تنظر إليهما بعيون متضايقة. وكان البعض يرمقهم بابتسامات سريعة ولم يكن أحد ينظر إليهما نظرة عداء.

مر المحكومون بالقرب منهما في صمت لا يقطعه سوى طقطقة الحوافر فوق أحجار الطريق. وكان بعض الرجال يضع إكليلاً من الشوك وقد غرز في جلدة الرأس، وكانت أيادي البعض الآخر مشطبة وأرجلهم تقطر دماً. وكان يبدوا على آخرين أيضاً أنهم فقدوا نعمة البصر ويسيرون متكئين على جيرانهم. وكان كثير منهم يبتسم. وكان بعض الرجال يبكون أو يصلّون أو يتوسلون أن توضع نهاية لحياتهم بأسرع وقت ممكن. وكانت النساء الثلاث يرتلن الصلوات وكان يبدو أن الجلادين لم يتعرضوا لهن.

جال موسى بعينيه بحثاً عن خاله وهو يمسك بقوة كبيرة بقطعة النقود الذهبية في قبضته، وكان قد ائتمنه عليها قبل بضعة أشهر. كان إليفار بن عطار يقف منتصباً ومحدقاً بنظره أمامه. وكان وجهه قد لف بوشاح أحمر لا يظهر منه سوى عينين تشعان من الحمى.

لم يعد موسى يرى فيه ذاك التاجر المتزلف الذي كان يقضي نهاره في تعظيم محاسن أولئك الذين يسدون له شرفاً كبيراً بترددهم على دكانه لدرجة أن البعض كان يأتي فقط لسماع تقريظه المنمق ووصفه المبهم لبضاعته. وكذلك لم يعد يجد أثراً لذاك الذي كان يقضي السهرات الطويلة ليعلمه ما يعرف عن التشريح وعن اختصاصات كثيرة أخرى. فقد كان القصّاب قبل حصار المدينة بزمن طويل يحدث الفتى عن الكتب التي لم يكن يخطر على بال أحد أنه

قرأها: عشرات المؤلفات لفلاسفة إغريقيين وكتاب صينيين وشعراء فارسيين. وكان إليفار قد روى له أن هناك أسطورة يهودية قديمة تقول إن العلوم كانت في بادئ الأمر حكراً على اليهود، وقد انتزعت منهم بعد سقوط القدس. أذهل القصّاب موسى بسعة معارفه الفلسفية فقد شرح له أنه بعد نزول الوحي على النبي موسى استمر الله في إرسال أنبياء آخرين لأقوام آخرين، وربما للإغريقيين والهنود والعرب.

وكان إليفار قد اختصر لابن أخته بكلمات بسيطة جوهر فكر أرسطو، أعظم الإغريقيين طراً وتلميذ أفلاطون ومعارض له، ومعلم الإسكندر وجامع الفراشات ومؤسس المدارس ورجل جميع الأسرار. روى على طريقته الخاصة حياة هذا المقدوني (وكان من جهته يجله كما يجل الأنبياء) الذي ولد قبل خمسة عشر قرناً لأحد أطباء الملك فيليب. تيتم وهو طفل وكان دميم الخلقة فقيراً جداً وخطيباً رديئاً. وكان قد قدم إلى أثينا ليدرس مع أفلاطون الذي كناه «العقل الأول». ومن ثم روى إليفار هروب من كان يسميه «المعلم» خارج أثينا عندما اشتبكت مع المقدونيين.

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن المعلم قد التجأ حينذاك إلى جزيرة تقع في شمال اليونان، كان إليفار يعلم أنه في الحقيقة قد قضى خمس سنين في الهند ولم يغادرها إلا ليصبح مربياً لابن ملك مقدونيا، الإسكندر الأكبر مستقبلاً.

ومنذ أن اعتلى هذا الأمير العرش ورحل هو أيضاً إلى الهند عاد أرسطو إلى أثينا وأسس فيها مدرسته الخاصة وكانت تسمى «مدرسة المتنزهين» لأنه كان يلقي دروسه وهو يمشي. بيد أنه لم يستطع

المكوث فيها فلم يلق المحبة من سكانها لأنه كان مقدونياً على غرار فاتح بلادهم، على الرغم من أنه لم يكن يحب الإسكندر، وكان هذا الآخر يبادله الشعور نفسه. وقضى المعلم نحبه في سن متقدمة مباشرة بعد الإسكندر الشاب الذي كان يكرهه.

علّم إليفار الغلام أن هذا الإغريقي الذي لا يُضاهى ينظر إلى الكون على أنه محكوم بقوانين رياضية ثابتة في متناول العقل البشري. فقد شرح المعلم حركة النجوم وحركة القلب متخيلاً نوعاً من المسننات «محرك أول»، وكان أحياناً يسميه بصورة غريبة «العقل الفعال». وشرح إليفار له أيضاً كيف استنتج أرسطو أن الكون لم يخلق أبداً. لقد برهن القصّاب العالِم لتلميذه أن أرسطو كان يفكر كما يفكر اليهودي إلى حد كبير، «فمحركه الأول» ضرب من النفس المطلقة وهذا التعبير ليس ببعيد جداً عما يسميه اليهود «الله» أو بالأحرى ممثل له أسند إليه مهمة إدارة العالم. وغالباً ما ردد إليفار على مسامع الغلام هذه العبارة الغامضة للمعلم: «ليست الأرانب من ستفرض القوانين على الأسد»، وكان يحثه على عدم نسيان ذلك.

وكان إليفار يسخر من فلاسفة آخرين مثل زينون الذي يرى أن الكون لا يمكن أن يوجد منذ زمن لانهاية له، وإلا لتسطحت الأرض منذ زمن طويل، أو آخرون مثل لوكريس الذي يرى أنه إذا كان الأمر كذلك، لكان كل تقدم ممكن قد تحقق في بناء السفن، ولتم تأليف كل أنواع الموسيقا. وكلمه أيضاً عن المفكرين المسلمين الذين يرون في القرآن صورة مبسطة عن فكر أثينا العظيم. وتحدث على وجه الخصوص عن الفارابي الملقب «بالمعلم الثاني» وأول تلميذ مسلم

لأرسطو، والذي كان قد أكد قبل منعطف الألفية تماماً على الحق في مواجهة التناقضات الظاهرية بين أرسطو وبين الكتاب المنزل دون تعرض السلامة للخطر.

كان إليفار يشرك ابن أخته في تقطيع الحيوانات في دكانه ويشرح له كيف أن الطب الإغريقي وجد ابن سينا في «الإلهيات» أفضل مفسر حقق في سن السابعة عشرة مأثرةً بشفاء الأمير الساساني نوح ابن منصور من كآبة شديدة، وكان يدعي (إليفار) أنه (ابن سينا) ولد من أم يهودية وأب شيعي. وكان يكلمه أيضاً عن ابن زهر، أعظم طبيب من المدرسة العربية، الذي لم يكن يجيز لتلاميذه قراءة أرسطو إلا بعد دراسة القرآن دراسة دقيقة. وعلمه أن انفتاح المسلمين على العقل والعلم مرده إلى نبيهم الذي قال إن «فضل العلم خير من فضل العبادة» وأن «عالماً واحداً أشد على إبليس من سبعين ألف عابد»، وأضاف أن المسلمين يعتقدون أن الفلسفة هي اسم آخر للعلم وأن الحقيقة أنزلت في وقت واحد على النبي محمد، أنزلها الملاك جبريل، وعلى بعض الفلاسفة بفيض آخر من الله.

وروى له كيف أن أبو بكر ابن باجه، وهو تلميذ متحمس لأرسطو كفّر عن اتهامه بالهرطقة بالسجن ولم يُطلق سراحه إلا بفضل والد ابن رشد. فالتفكير أصبح خطراً على اليهودي والمسلم على حد سواء. وحدثه بشجن عن عبد الملك ابن وهيب، فيلسوف ذاع صيته في إشبيلية، وعندما أحس بتهديد الموت امتنع عن كل تفكير فلسفي وحتى عن التحدث مع أي كائن كان. ولخص له بانفعال أعمال عدة مفكرين مسلمين كانوا على العكس يرون في العلم

خطراً على الإيمان، ولا سيما أبو حامد الغزالي، وكان فيلسوفاً وقد توفي قبل خمسة وثلاثين سنة بعد أن اختار حياة الصوفيين المتشردة وكان يرى أنه «لا يوجد تفسير بعد الله» فالذكاء البشري محدود جداً. وكان هذا الغزالي الذي كان عدواً للعلم يلقى قبل كل شيء الاحترام من الموحدين الذين سيهيمنون قريباً على المدينة.

أطلع إليفار ذات مساء من أمسيات الشتاء ابن أخته على مخطوطات غاية في الأهمية مخبأة في أرضية غرفته فوق دكانه مباشرة، وهي نسخ لاتينية عن «الجبر» من تأليف روبير شيستر، و «عناصر» إقليدس قام بترجمتها أبيلار دو بات، ونصوص لبطليموس وغالينوس، وكتب حوت قصصاً حول كيف كان النبي يداوي نفسه. وكان موسى يتساءل كيف أن قصّاباً يمكنه أن يقتني كل هذه الأشياء العجيبة، ولكنه لم يحصل قط على جواب لهذه الأسئلة.

روى له إليفار حياة أبيلار المأساوية الصاخبة الذي كان توفي لتوه، وهو رجل اللاهوت الباريسي المسيحي الكبير، وكان قد قرأ له Historia Calamitatum. وكلمه بإعجاب عن زوجته هيلويز ابنة أخ كاهن نوتردام، وكان يبدو أنه يكن له الاحترام والتقدير، ، وقد تحولت إلى راهبة نزولاً عند طاعة زوجها بعدما تعرض للخصاء.

وتطرق إلى جواشيم دو فلور، وهو ابن كاتب عدل في كلابرا وكان وصيفاً في بلاط ملك صقليه، وكان يزعم أنه يبرهن بمجرد لفظ العدد سبعة واثني عشر على القدوم القريب «ليوم انقضاء الدهر المشهود»، وقدوم «شعب ثالث» يستبدل بالكتاب المقدس «الذكاء الروحي» ويأخذ بيد اليهود والمسيحيين والمسلمين إلى الحقيقة المحضة.

وعندما كان موسى يصاب بالدهشة من اطلاع قصّاب على كل هذه المعارف، كان إليفار يبتسم له ويستمر في حديثه عن أكثر امرأة مؤمنة أعجب بها، وكان اسمها هيلدغراد دو بنجن، وكانت أكثر المؤمنات تفرداً في المسيحية قاطبة. كانت تعمل في مجال الموسيقا والكتابة، وقد عاشت في بلاد الألمان، وقد ابتاع لها مخطوطة رائعة بعنوان «كتاب الأفضال».

وأخيراً، عندما يتيقن كل التيقن أنهما بمفردهما كان يكلمه بصوت منخفض عن أهم كتاب في نظره، ويحمل عنوان «الأبدية المطلقة» أو «مفتاح الغيب»، وكان يؤكد أنه كتاب من تأليف يهودي تتلمذ على يد أرسطو، أو ربما كان من تأليف المعلم ذاته الذي جاء إلى قرطبة بحثاً عن الإلهام عند حكماء اليهود الذين تم نفيهم إلى هنا منذ الشتات الأول، إن يكن أرسطو نفسه يهودياً قدم إلى قرطبة وعبر إلى بلاد الإغريق لكي يتخفى.

ويعتبر هذا الكتاب في نظر من قرأه في الماضي أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور، لأنه يجيب على جميع الأسئلة حول طبيعة الكون والزمن الحقيقية وحول إمكانية المصالحة بين خلود الفكر وهشاشة المادة، ولا سيما حول طريقة جعل المادة خالدة كما الفكر. كان إليفار يقول إن قراءة هذا الكتاب قلب الكثير من المفاهيم لدرجة أن جميع نسخه قد اختفت، وأن الذين اقتنوه وفتحوه وتصفحوا ما بداخله ماتوا ميتة عنيفة، وإن جميع ناسخيه ماتوا غيلة. وكان إليفار يهمس قائلاً للفتى إن هذا الكتاب يجلب الشؤم، ومع ذلك ما زال هناك نسخ قليلة منه وجدت

من يحميها من الطامعين. وذات يوم... كان إليفار يتوقف هنا دائماً عن السرد.

كان موسى يحب فكرة وجود كتاب يضم إجابة على جميع الأسئلة التي كان الناس يطرحونها على أنفسهم. وكان يقول لإليفار لو أن أرسطو لم يكتبه من قبل لكان تولى المهمة بنفسه.

و إلى هذا القصّاب العالم جاء قبل شهور عندما هرب من أبيه لأنه لم يعد يتحمل ثورات غضبه وشروطه. وهذا القصّاب هو الذي أقنعه بالعودة إلى البيت بعد عدة ليال قضاها في الصلاة معه في أحد كنائس أليسانه قبل أن يفتحها الموحدون مباشرة.

في هذه الليالي الطليقة كان موسى الذي كانت الطائفة كلها تبحث عنه في قرطبة يمطر خاله بوابل من الأسئلة الصعبة جداً أحياناً: لماذا يدع الله الناس يفعلون الشر إذا كان يعلم أنهم سوف يرتكبونه؟ هل يفكر الله في الكون منذ الأزل؟ ماذا يحصل لو توقف عن التفكير فيه؟ هل تتوافق حرية الإنسان مع قوة الله الكلية القدرة؟ هل تموت روح الإنسان بموته أم تبقى خالدة؟ وهل يلتقي في الحياة الآخرة بمن أحب في الحياة الدنيا؟ هل كل الأنبياء يهود؟ الخ... الخ.

وكان يرد عليه مبتسماً ويختتم دائماً إجاباته المستفيضة ملمحاً إلى «الأبدية المطلقة»، ذاك الكتاب الغامض الذي أقر أخيراً أنه قد قرأه دون أن يفصح كيف حصل على نسخة من نسخه النادرة التي لم تمسها يد بعد.

همس إليفار إلى موسى بعد الانقلاب مباشرة الذي أطاح بحكم المرابطين وقبل دخول الموحدين المدينة بوقت قصير قائلاً:

- لقد أصبح الوضع صعباً. ينبغي أن أكلمك مرة أخرى عن هذا الكتاب. وذات يوم ستقرؤه أنت أيضاً. وستعلم من أي شيء صنعت المادة وما هي الحياة وكيف يكون الخلود في متناولنا.

عندها فقط تحسن المواءمة بين الدين والعلم والتفكير بحقيقة الكون دون أن تقع في التجديف وتحكّم عقلك دون أن تنكر الله وتمحي الاختلافات التي تقتل الناس وتصون التمايزات التي تشرفهم. سيتوجب عليك أن تبقي طي الكتمان ما سوف تقرأه، وربما تصبح الشخص الذي سيسمح له بنشره على الملأ.

- وكيف أحصل عليه؟

تردد إليفار قبل أن يجيبه:

- أنا من سعيطيك إياه.

- أنت؟ وهل لديك نسخة منه؟ أرني إذاً إياه؟

فابتسم الآخر:

- ليس الأمر بهذه البساطة. سيكون لك في الوقت المناسب، عندما أحس أن العالم يغور تحت قدمي.

- أنا لا أفهمك.

تردد إليفار ثم قال:

- إذا حدث لي مكروه قبل أن أستطيع توصيله إليك، ستذهب من قبلي لتقابل شخصاً في طليطلة.

- أنا أذهب إلى طليطلة؟ إلى المسيحيين؟ وهل لديك أصدقاء مسيحيون؟

انفجر إليفار بالضحك:

- ليتك تعلم! فأصدقائي في كل مكان... ومن ثم سوف ترى أن طليطلة مدينة رائعة، ويوجد في مدخلها ساعة مائية عجيبة بنيت منذ سبعين سنة، وقد قام ببنائها عالم فلك يهودي كان المسيحيون يسمونه Azorquiel وكانت تنظّم ملء وتفريغ مستويين ضخمين من الماء وفقاً لأطوار القمر. ستذهب إذاً وتلتقي من قبلي مترجماً يدعى جيرار الكريموني. إياك أن تنسى هذا الاسم. وهو يقيم هناك عندما لا يكون مسافراً لتعلم لغة جديدة. وإذا كان مسافراً انتظره حتى يعود من سفره ولو كلفك ذلك سنين عديدة. انتظره واعثر عليه، فسوف يبوح لك بما لم يسمح لي الوقت بشرحه لك. وإذا وقعت ذات يوم في خطر تعطيه بدورك لشخص تختاره بنفسك.

- ولكن لم لا تعطيني إياه الآن؟

- لم يحن الوقت بعد. اعلم فقط أنه إذا حلت المصائب بهذه المدينة كما أخشى، وإذا فقد الناس فيها حقهم الوحيد في التفكير تفكيراً حراً، أصبح مستقبل الإنسانية كله مهدداً بالخطر. عندها سيكون هذا الكتاب، وهو أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور، أكثر ضرورة وحاجة من أي وقت مضى.

- أنا لا أفهم شيئاً من كلامك فأنت تتكلم بالألغاز. كلمني عنه أكثر. أطلعني على هذا الكتاب على الأقل.

- لا أستطيع ذلك ولو أحببت. ولكن عندما أصبح طاعناً في السن سأقول لك كل شيء. سأخبرك كيف تعثر على نسختي في قدس الأقداس. وتذكر، إذا وافتني المنية قبل أن أشيخ فإن شخصاً آخر سيقوم بتسليمك هذا الكتاب، فلا تنس أن اسمه هو جيرار الكريموني.

- ستعمّر أنت كثيراً ولن أحتاج أنا للذهاب إلى طليطلة.

هز الخال كتفيه ونظر إلى السماء، ثم أخرج من جيبه قطعة نقود ذهبية لم يرَ موسى مثلها من قبل، وقد نقش عليها من جهة وجه أمامي، ومن الجهة الأخرى وجه جانبي لرجل جالس على عرش وقد أحاطت به إشارات لم يستطع موسى فهمها. فأعطاها للغلام الذي وجدها ثقيلة جداً، ثم استأنف قائلاً:

- لا تُضع هذه القطعة أبداً، ولا تقل لأحد أنها معك ولا من أعطاك إياها. لا تخبر أحداً بها على الإطلاق حتى لو كان أباك أو أمك أو أخاك، هل تفهمني؟ لا تخرجها إلا أمام جيرار الكريموني أو أمام من يرشدك هو إليهم. وبهذه الطريقة يتعرف عليك ويسلمك الكتاب.

لا تحاول الآن أن تفهم أكثر من ذلك، فسوف يأتي الأوان. ومن الآن إلى ذلك الحين تعلم وابحث وابق يقظاً.

وقد وفى موسى بوعده، فلم يكلم أحداً عنها أبداً. ولم يكلمه خاله عنها بعد ذلك قط، فلم يسنح له الوقت بذلك. بعد أسبوع كان الضابط الذي أطاح بأمير المرابطين قد سقط بدوره في أعمال الشغب ودخل الموحدون المدينة، وكانت مفاجأة لموسى عندما اعتنق إليفار الإسلام وقطع صلته بعائلته.

من على الجسر حيث هما الآن، لا يكاد يظهر شيء لميمون وموسى من الصلبان أو الخوازيق أو المحرقة أو المشنقة، فالليل كان قد أظلم. لم يعودا يبصران الأمير وحاشيته وهم يأكلون مربى الفاكهة ويشربون شراب زهر البرتقال. تكورا فوق بعضهما وراحا

يصليان في صمت ويخمنان في البعيد في شبه العتمة خيالات أناس تسير إلى مصيرها. لما ظل إمام يقترب من المحكومين، فأشاح الجميع برؤوسهم عنه، وبصق بعضهم. كان يخيم على الجمع المحتشد صمت لا يحتمل. وسمعا أنين الرجال الذين أجلسوا فوق الأوتاد المسنونة أو الذين ثبتوا أحياء على قطع خشب الشوح. وسدا أذنيهما عندما علا صراخ النساء لما رأين الطوق الحديدي الذي سيخنقهن. ولم يريا إليفار يصعد إلى المشنقة. ردد القصّاب على مسمعه في آخر أمسية: «عندما أحس أن العالم يغور تحت قدمي...»

ولم يجسرا على تحويل أنظارهما نحو النيران التي كانت نهاية المشهد. لم يفهم موسى، فالنار كانت حتى ذلك الحين صديقة تدخل الدفء وتنير الشوارع وتتيح للناس العودة إلى بيوتهم بلا خوف بعد انقضاء الفروض الدينية في المساء.

قسر ابن رشد نفسه على مشاهدة الحفل المرعب حتى نهايته كما لو كانت لديه شكوك أن مثل هذا الفعل المخزي يمكن أن يحدث في مدينته، أم الحريات كافة. كان يستشعر أن هذه النيران التي كانت تنير نوافذ المسجد والمكتبة العامة ستلتهم ذات يوم جميع الكتب ومعها إسلام الأندلس.

رجع ميمون وموسى بعد أن أصابهما الحزن بالخبل إلى الحي اليهودي من الجهة الأخرى للمسجد الكبير بعيداً عن الساحة، وكانت جثث من نفذ بهم الإعدام ما زالت معروضة هناك كأنها دمى متحركة تثير الشفقة. ولم يستطيعا الهروب من شم رائحة اللحم الآدمي المحروق.

شعر ميمون بألم فظيع في جسمه كما لو أن أظافر يديه ورجليه قد اقتلعت. كان على أحر من الجمر للعودة إلى البيت لرؤية زوجته التي تركها على فراش الموت. وكان الحشد يفترق أمامهما كأنه لا يريد أن تنتقل عدوى مصيبتهما إليه. وتصور موسى بين هؤلاء الناس وجود بعض أقرانه الذين كان يلعب معهم قبل أيام قليلة على طول ضفتي النهر. أشاح ببصره عنهم كما لو أنه كان يشعر بالذنب والعار فهو لم يعد ينتمي إلى عالمهم.

اجتازا بوابة المودوفار وصعدا شارع روبيريا، وولجا إلى الساحة الصغيرة المستطيلة عند نهاية الطلعة، والتي تفصل المسجد الكبير عن بقية المدينة القديمة وتشير إلى بداية الحي اليهودي، فلمحا الناس مضطربين اضطراباً قوياً. مرا أمام فناءات البيوت الأولى فرأيا النسوة يحزمن أمتعتهن بينما كان الرجال يركضون في كل الاتجاهات للانتهاء من الأعمال. فحثا الخطى أخيراً لموافاة سارة.

وعندما وصلا أمام منزلهما وجدا النوافذ مغلقة ورأيا النساء يخرجن ويدخلن ويتعانقن منتحبات. وأسرع ميمون وابنه إلى الداخل. رأى موسى أخاه الأصغر داوود في صحن الدار وقد ارتمى في أحضان مربيتهما سفيرة، ففهم أن ما كان يخشاه منذ شهور قد وقع بالفعل.

نزل ميمون بعد نصف ساعة من الطابق الأول. كان وديعاً ولكن ظهره قد تقوس قليلاً. خمن موسى أن أباه يشعر بحزن شديد، هو من الشدة بحيث لم يستطع تصوره. سمع يهمس قائلاً لولديه بصوت مبحوح:

- تبارك الله الذي توفى أمكما. لا تحزنا على موتها فتلك كانت أمنيتها لأنها كانت تتألم تألماً تخطى في شدته كل حد، ولأنها كانت مستعجلة للصعود إلى السماء قبل أخيها لاستقباله هناك. هي الآن سعيدة، وسنواريها الثرى غداً وسنرحل بعد غد. لا تقلقا فلن يحدث لنا مكروه ما دمنا سوية.

دهش موسى لعدم شعوره بالحزن. وعلى كل حال لم يشعر بالحزن كما كان يظن. بدأ يدرك أن بلوغ سن الرشد هو أن نتعلم العيش بعد رحيل من نحب. حاول أن يقنع نفسه أنه لن يسمع مطلقاً بعد الآن صوت أمه، وأنها لن تحتضنه أبداً بذراعيها، ولن تأتي مطلقاً لتصغي له في الليل عندما كان يشعر بالضجر من عدم اهتمام أبيه به. على الأقل لم تر أمه أخيها إليفار يتأرجح على عود المشنقة.

كان يعلم أن حياة أخرى بدأت في ذلك اليوم مهما حصل فيما بعد، وأن مدينته ومن كان يحبهم قد انقلبوا مع الشر. ولكنه كان يعتقد أيضاً أن ذلك لن يدوم سوى زمن قصير وأن العقل سينتصر في النهاية على الهمجية وأن قرطبة ستعود من جديد قلب العالم، لأن إرادة الله الذي لا يموت لا يمكن أن تكون خلاف ذلك.

اصطحب ميمون ولديه إلى الكنيس الكبير، وكان أرباب العائلات الكبيرة يتجادلون في هرج ومرج حول ما ينبغي اتخاذه من تدابير، وكانوا يمثلون ما يقارب عشرين ألف يهودي ما زالوا يعيشون في المدينة.

ارتأى البعض أن ينتظروا حتى يتحلى الأسياد الجدد باللين فيعود الهدوء كما في المرات السابقة. وعلى كل حال فإن الخطر

لا يحدق إلا بالمرتدين، والتسامح مع اليهود كان ما زال شائعاً، كما سمح ليهود آليسانه بالعودة إلى المدينة مقابل ضريبة باهظة. فينبغي عدم اعتناق الإسلام وإنما اتخاذ جانب السرية والانتظار ليس إلا.

وكان جواب البعض الآخر بالنفي، وكان يبدو أنهم يتكلمون عن معرفة. فالمرسوم قد كتب، وهو يُكره جميع يهود قرطبة على ترك دينهم. ولن يكون هناك تساهل في مراقبة المسلمين الجدد. ومن يريد مشاهد إعدام جديدة؟ ينبغي الرحيل في الحال.

واحتج آخرون وقالوا إنه يجب الدخول في الإسلام والبقاء فمن المستحيل أن يبيع اليهودي أملاكه بالسرعة القصوى، كما أنه لا يصعب علينا أن نكون أكثر خبثاً من أولئك الذين افتضح أمرهم. حاول ابن صديق حبر الكنيس أن يسمع صوته، وكان يحظى بالاحترام إذ إنه كان صديقاً لإيهودا حليفي المعظم. وقال إن لا فائدة من الرحيل فلا يوجد شيء في مكان آخر، وقال إنه يكفي المرء أن يسافر في ذاته لكي ينجو من التهديد، فينبغي اعتناق الإسلام إذا كانت تلك مشيئة الله.

عندما دخل الحبر ميمون إلى باحة الكنيس الصغيرة المكتظة بالنساء والأطفال، سكت الجميع.

حرص الشيخ على إبراز مكانته فتباطأ في مشيته ومد يده للذين انحنوا أمامه ليقبلوها. ودخل إلى قاعة الكنيس الكبرى على مهله وصعد الممشى الرئيسي. وأجلس ولديه وسط القاعة وارتقى السلم ووضع يديه على المقرأ وبدأ في صمت ثقيل:

- ليس أحد اليوم بحاجة لأن يصلي أكثر مني. أطلب منكم أولاً أن تتلوا معي صلاة الميت. (Kaddish)

فنهض جميع الحاضرين لتلاوة صلاة الميت، آخر الصلوات وأقدمها والوحيدة التي لا تتلى باللغة العبرية وإنما باللغة الآرامية، وتقام عندما ينهار كل شيء وعندما ينبغي تذكر الموتى.

وعندما نهض الرجال رأى موسى أن الكثيرين منهم يبكون مثل معظم النساء في الممشى فوقهم. ورأى أباه يحاول أن يكتم حزنه ثم سمعه يقول بعد أن تنحنح ثلاث مرات:

- النصائح التي أوصيكم بها والتي أريدها لنفسي ولمن أحب وكذلك لمن يلتمس مني الرأي هي التالية: إذا أردتم الاستمرار في العيش هنا حيث عشتم دائماً وحيث دفن آباؤكم وآباء آبائكم، فعليكم اعتناق دين الإسلام. ويمكنكم فعل ذلك دون أن تكونوا غير ما أنتم. ويكفيكم أن تتلوا في السر بعضاً من صلواتنا ولو باختصار، وأن تؤدوا على الأقل واجب البر وهو أول علامة يعرف بها اليهودي، وليس هذا نحونا فقط وإنما نحو جميع جيراننا أيضاً. إلا أنكم لا تستطيعون المداومة عليه دون أن تخسروا نفوسكم وتصبحوا حقاً ذات يوم ما زعمتم أنكم عليه. فليس لدخولكم في الإسلام من غاية سوى الاستعداد للرحيل إلى بلد تستطيعون أن تمارسوا فيه ديننا بكل حرية. ولكن إذا استطعتم فارحلوا حالاً دون أن تستبدلوا بدينكم ديناً آخر. وعلى كل حال غادروا هذه الأماكن عاجلاً أم آجلاً ونفذوا تعاليم التوراة دون خشية أو اضطهاد. تخلوا عن أملاككم لأن الديانة التي أورثنا إياها المولى أهم وأغلى بكثير. ارحلوا واتركوا كل شيء وراءكم ماعدا كتبنا ومخطوطاتنا المقدسة. سيروا نهاراً وسيروا ليلاً حتى تجدوا شاطئاً آمناً. لا تقلقوا

فالعالم واسع. وفي يوم قريب سنعود، وستعود قرطبة قدساً لليهود وعاصمة لآمالنا وإيماننا.

وفي يوم قريب سيعلم هؤلاء الوحوش أنهم لا يستطيعون من دوننا ومن دون المسيحيين إدارة هذه البلاد، وسترون توسلهم إلينا كي نعود ولو بدفع ضريبة باهظة كما فعلوا لتوهم مع إخواننا في أليسانه. ليس أمامنا من مخرج الآن سوى أن ندع كل شيء والاتجاهات التي أمامنا كثيرة. فاختاروا وجهتكم مع أفراد عائلاتكم، وأستحلفكم ألا تتشتت العائلة وأن يتبع الصغار أهاليهم وأن ينصاع الكبار للذين في سن العمل، فعلى عاتق هؤلاء يقع اختيار مكان الإقامة إذ إن مستقبل أقربائهم منوط بهم. انعموا بالسلم وأنا على يقين أننا سنلتقي هنا لكي نحتفل بالسنة الجديدة المقبلة. فيا أخوتي الأعزاء جداً، أقول لكم إلى اللقاء العام المقبل في قرطبة. ارحلوا الآن! ارحلوا! ولتكن بركتي معكم جميعاً.

راح ميمون يتمايل عندما أراد أن ينزل من على المنصة، فأسرع إليه موسى وداود. وأقبل الحبر يوسف بن صديق يعانقه وتبعه كثير من أرباب العائلات. وران الصمت ردحاً من الوقت قبل أن يقطع ويعود الهرج والمرج وسط الدموع.

صرح البعض أنهم سيرحلون في ذات الليلة إلى أليسانه لملاقاة الطائفة الوحيدة التي ما تزال تنعم بحريتها في الأندلس. «نستطيع هناك أن ننتظر حتى يعود الهدوء، فالمعلم على حق بقوله أن الأمر لن يستغرق سوى بضعة شهور. ويكفي أن نودع مفاتيح بيوتنا ومحلاتنا التجارية لدى أصدقائنا المسلمين، ومن منا ليس له أصدقاء بينهم؟»

اعترض البعض الآخر قائلين «ذلك هو الخطأ بعينه. فالوضع هنا سيتفاقم لفترة طويلة، وأليسانه صغيرة لا تستطيع استقبالنا جميعاً. أضف إلى ذلك أن الهدنة لن تدوم فيها. والقرآن يفرض على المسلمين أن يلزموا الكافرين باعتناق الإسلام عندما تكون لهم الغلبة.

إن الموحدين مسلمون حقيقيون وهم المسيطرون، فسيطردوننا من جميع أراضيهم وسيقتلون كل من يبقى ولا يدخل في دينهم. ولا تعولوا على أصدقائكم لحراسة أموالكم فسوف يحتكرونها لأنفسهم ولن تكون الغلطة غلطتهم فتلك هي الطبيعة البشرية.»

وأعلن فريق ثالث عن رحيله إلى أرض مسيحية قريبة في طليطلة: «سوف يرحبون بنا هناك، والمدينة غنية وإخواننا يعدون فيها أكثر من عشرين ألفاً، وهم مزدهرون في جميع المهن: في الفن والمصارف والتجارة وزراعة الكرمة والطب. ويعمل بعضهم مترجمين لدى مستشارية المملكة، لا بل يشغل أحد إخواننا القرطبيين منصب وزير المالية لدى ملك قشتالة، فليس هناك ما يدعو للخوف.»

ورد فريق رابع: «هذا مستحيل فالقشتاليون يكرهوننا أكثر من أي أحد في العالم. لقد كنا نساعد دائماً الفرسان المسلمين ضد جنودهم، فسيعاملوننا على أننا جواسيس. وهناك أيضاً يعدم المرتد، ناهيك عن أننا لن نستطيع مع ذلك بلوغ طليطلة. وبينما كنا حتى انتصار الموحدين نسامح بعضنا بعضاً وننتقل من معسكر إلى آخر أحراراً في اعتناق الإسلام أو المسيحية، وكان ذلك يحدث أحياناً مرتين في السنة الواحدة، أصبحت الخطوط الآن تخضع لمراقبة دوريات من الفرسان. وعندما تتقابل دوريتان متعاديتان، تظن كل منهما أن

عليها الاشتباك مع الأخرى. ويلهو حراس هذا المعسكر أو ذاك بتعذيب أو قتل من يظنون أنهم جواسيس أو من يظنون أن جيوبهم منفوخة بالمال فلا يميزون بين هؤلاء وأولئك. لنرحل إذاً نحو الشمال أو الشرق، إلى فرنسا وألمانيا والقسطنطينية.»

واحتج فريق خامس أيضاً ورفض القبول بهذا الرأي، وكان يبدو أنهم مطلعون جيداً على الوضع في أوروبا المسيحية، فقد كان لتجارتهم محطات هناك. «لقد ثارت ثائرة المسيحية هناك ضدنا ولا سيما منذ الحملة الصليبية الأولى. هل نسيتم ذلك؟ وتعرضت جماعاتنا في بعض المدن الألمانية والفرنسية للنهب والسلب، وقتل من رفض منهم اعتناق المسيحية وبقرت بطون نسائهم. وحتى أن بعض الأحبار في كولونيا وفي «Worms» قاموا بتنظيم انتحارات جماعية كي لا يتعرضوا للقتل والاغتصاب. وقد بلغ مجموع من لقي حتفه من جماعاتنا في غضون بضعة أسابيع ثلاثين ألفاً. ولم تحل بنا قط مصيبة بهذا الشكل منذ مجازر يهودا التي وقعت منذ أكثر من ألف عام. ولم يقف الوضع عند هذا الحد؛ فقد دعا البابا أوجين الثالث إلى حملة صليبية ثانية، ورفع الإمبراطور كونراد الثالث الصليب، وكذلك فعل ملك فرنسا لويس السابع الذي أراد أن يكفر عن حريق كنيسة فيتري فدفع بجنوده في حرب ضد كونت شمبانيا.

وفي نورفيتش في انجلترا اتهم إخواننا بقتل شاب وشرب دمه، وهذه أول مرة منذ العصور القديمة يوجه إلينا إصبع الاتهام في جريمة قتل طقسية، وكانت هذه الجريمة حتى ذلك الحين توجه للمسيحيين المهرطقين. وبعد ذلك تريدون أن نذهب ونلقي بأنفسنا في أتون

الجحيم؟ كلا فمن المستحيل التوجه إلى ارض مسيحية في طليطلة او في غيرها.

وتلاميذ Joshua في بيت لحم أعداؤنا منذ زمن سحيق. يقولون إننا قتلنا إلههم ونسوا أنه كان يهودياً وأن أجدادنا كانوا في الأندلس عندما مات. ومن ثم لا نتكلم لغتهم وثقافتهم غريبة عنا،

والعيش عند المسيحيين معناه أن نعيش في عالم يسوده الشرك والسحر. فعلينا إذاً أن نبقى في أرض الإسلام. ولكن أين؟ ليس عند الموحدين حتماً، فحيثما استولوا على السلطة سواء في فاس أو في مراكش أو في سجلماسة أو في وهران أو في تلمسان، فإنهم يحكمون بالخازوق على من لا يعتنق الإسلام. وقد دخل أحبار مشهورون في الإسلام مثل يوسف بن عمران لكي ينقذوا طائفتهم من الموت. أين إذاً المفر؟ إلى دمشق عاصمة الخلافة؟ نحن مكروهون هناك. إلى بغداد، عند العباسيين السنة حيث ما زال يعيش أكثر من أربعين ألفاً من أتباعنا؟ وهي أول مدينة يهودية في العالم، فهي تضم ثمانية وعشرين كنيساً وعشر مدارس ولكن الحياة فيها تزداد صعوبة يوماً بعد يوم ويموت فيها المرء من الجوع. إلى الأرض المقدسة؟ ليست الحال أفضل مطلقاً، فالصليبيون شديدو الكره لنا منذ أن علموا أن بين صفوف الجيوش السلجوقية بعض الجماعات اليهودية التي كان الإسلام يعاملها معاملة منصفة. ومنذ ستين عاماً، عندما استولى جودفروا دو بويون على القدس بعد حصار دام خمسة أسابيع، جمع يهود المدينة وكانوا عدة آلاف في كنيس من الكنائس القليلة التي كانت ما تزال على حالها وأضرم النار فيه. وبيع اليهود الذين قبض عليهم

والسلاح بأيديهم كعبيد بسعر أدنى بكثير من سعر الجنود المسلمين وذلك إمعاناً في إذلالهم. فلا فائدة ترجى من الرحيل إليها ، فهي ليست مكاناً لليهود. كانت إسرائيل لنا لمدة ألفي عام ، وما أن أصبحت فلسطين حتى صارت أرضاً مسيحية إلى الأبد.»

واحتج فريق سادس قائلاً : «الأرض المقدسة ستصبح إسلامية. الفرنجة في اندحار وهزيمة ،

فكونراد ولويس وألينور في طريقهم إلى ديارهم.»

وارتفعت بعض الأصوات بالموافقة : «هذا صحيح ولكن ذلك لن يسوي أمورنا ، فسيقوم الجيشان بسحقنا في طريقهما. يجب أن نرحل بسرعة إلى القسطنطينية التي أصبحت مع بكين إحدى أكبر مدينتين في العالم ، فالمسيحيون فيها لا يخضعون لسلطة روما ويوجد فيها المال والبضائع ومجالات العمل والقوات العسكرية والشبكات التجارية ، ويعمل فيها يهود بغداد صباغين وخياطين للفراء وتجاراً وسماسرة في كل شيء ، ويقوم بعضهم بتوريد الحلي والمواد الصحية للبلاط. تلكم هي وجهتنا.»

لم ينبس ميمون ببنت شفة. كان في حيرة من أمره. كانت أمنيته الدفينة أن يأخذ ولديه إلى فاس الخاضعة لسلطة الموحدين ليكون قريباً من قرطبة ومن اللغة العربية ، ويلتقي بمعلمه ابن شوحانا الذي جاء إلى قرطبة قادماً من بغداد منذ خمسين سنة ، وكان يحب كثيراً في شبابه النقاش مع أستاذه حول جوهر التلمود قبل أن يرحل للاستقرار في فاس في زمن المرابطين السعيد ، في أحضان طائفة يهودية مزدهرة آنذاك. وقد أصبح في فاس معلماً مبجلاً يقصده الناس من

كل مكان للاستشارة. كان ميمون يخشى أيضاً تهديد الموحدين لطائفته القريبة من عاصمتهم، لكنه لم يتخيل نفسه في الجزائر أو في نابولي أو في ناربون أو في الإسكندرية أو في القسطنطينية، فكل هذه الأماكن بعيدة كل البعد عن قبر زوجته. ولم لا طليطلة؟ كان يقول في سره: «لن يطول الأمر على كل حال، وربما لا يتسنى لنا الوقت للوصول إلى مكان ما حتى يعود الهدوء إلى هذه الربوع. لا يمكن لقرطبتنا أن تموت. سوف نعود وبسرعة، قبل أن تنتهي سنة الحداد على سارة.»

كان موسى ينظر إلى أبيه وكأن لسان حاله يقول: لماذا الرحيل، ولماذا المخاطرة بالحياة بينما يكفي اعتناق الإسلام للمحافظة عليها؟ نحن أندلسيون ونعيش بالعربية وجيراننا يؤمنون بالإله الذي نؤمن به. هل من الأهمية بمكان أن نبقى يهوداً إذا كان هذا الشيء يجبرنا على الرحيل؟

ومن ثم هناك ربيكا ابنة ابن صديق الصغيرة الرائعة والتي لم يجرؤ موسى أن يعترف لأحد بحبه لها. فلا مجال للتخلي عنها! وحالما ينتهي هذا الخطاب سيذهب لملاقاتها. كان الوقت متأخراً ولكنها لم تكن نائمة. وحدها تستطيع تخفيف عذابه بعد موت أمه وإعدام خاله. ولكن إذا كان لا بد من الرحيل، كان موسى يعلم جيداً إلى أين يريد الرحيل: إلى طليطلة للعثور على جيرار الكريموني الذي كان خاله قد حدثه عنه في آخر لقاء بينهما. وشد مرة أخرى في قبضته على القطعة الذهبية التي لم تعد تفارقه. وعلى كل حال أينما يصطحبهما أبوهما، فسوف يسرع إلى طليطلة عندما يكبر وفاء منه لذكرى خاله

حتى ولو لم يصدق كلمة واحدة من قصة المخطوط السري «لأهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور.»

في صباح اليوم التالي، اجتمعت الطائفة من أجل آخر مأتم قبل النفي من جديد، ألا وهو جنازة سارة زوجة ميمون بن ميمون كبير أحبار المدينة. كان رجال يلبسون اللباس الأزرق يراقبون الناس حول المقبرة ولكن عن بعد كما لو أنهم كانوا يريدون احترام حزن أقرباء من ساقوا بهم إلى المصير المحتوم.

مر النعش في الحي اليهودي وفي الساحة التي نفذ فيها الإعدام وكأنه استفزاز أخير ونظرة وداع أخيرة لمن تدين لهم المدينة بالكثير. مشى موسى في الصف الأول مرفوع الرأس وقد أمسك أخاه الصغير من يده. أما ميمون فلم يستطع السير في الجنازة، فقد عثر عليه في المقبرة جاثياً على ركبتيه بالقرب من الحبر ابن صديق وابنته ربيكا التي لم تكن تجرؤ على النظر إلى موسى.

اكتشف موسى مندهشاً بالقرب من كومة الأحجار التي وضع عليها نعش أمه كومة أخرى وضع عليها نعش إليفار، فقد قام الفرسان الذين يلبسون الأزرق والمذهب، وهو زي الحرس الشخصي للأمير، بإحضار جثمانه في موكب مهيب صامت كما لو أنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة. وقد حفرت قبور أخرى لنعوش صفت صفاً تعود إلى جميع من نفذ فيهم حكم الإعدام عشية أمس. وقد عدهم موسى فكانوا أربعة عشر.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي يذكر فيها دور هذا العدد في حياته القصيرة. فقد ولد في الرابع عشر، وكان قد التقى بربيكا في الرابع عشر من شهر حزيران وكانت كنيته الكنية الرابعة عشرة

التي بقيت محفوظة في أرشيف الطائفة، وهاهي أمه تموت وهو في الرابعة عشرة من عمره.

استند الحبر الطاعن في السن ابن صديق على كتفي صديقه ميمون ثم نهض. قال بعد أن ران الصمت بين الناس:

- بدأ التقويم الزمني بالنسبة لنا سنة ٣٠٤٠ قبل أن يبدأ بالنسبة لأغسطس و٣١٠٢ قبل أن يبدأ المسيحيون بحسابه، ثم بدأ بعد ذلك التقويم سنة ٦٢٢ للمسلمين. فنحن إذاً رواد العالم وسنبقى كذلك. ولم يختر الله شعباً غير شعبنا ليكون في طليعة البشرية ويسهر على مستقبلها. ونحن قلقون على مصيرها لدرجة أننا نصلي في النهار حتى يأتي الليل ونصلي في الليل حتى يأتي النهار. وتقيم هنا بعض عائلاتنا مثل عائلة الحبر ميمون منذ أكثر من ألف سنة، أي منذ أن غادر جده المجيد إيهودا حنسي القدس. وسيكون اثنان من هذه العائلة آخر من سندفنهم هنا. سنصلي من أجلهما ومن أجل جميع الشهداء. ومن ثم سنرتكب الأسوأ، ألا وهو الرحيل تاركين وراءنا قبورنا. سنخرج من قرطبة كما خرج أجدادنا من مصر والقدس وبابل. سيمضي العذاب وستبقى اليهودية. وحيث ستكونون ستحافظون على طقوس الحداد بنفس الدقة التي نحافظ عليها هنا. ستطلقون اللحية وستصومون وستصلون، وهذه الشعائر هي شرفنا وشرط بقائنا على قيد الحياة. وأنا على يقين أنه بدءاً من العام المقبل سنلتقي هنا بالقرب من موتانا، فهذه ديارنا كما هي ديارهم. لتكن عين الله معنا ومعهم آمين!

يسجى جثمان كل منهم في قبره، ثم يتلو ابن صديق صلاة الجنازة مع جميع الناس، ويمرون بعدها ببطء أمام القبور التي كانت ما تزال مفتوحة.

عاد ميمون إلى البيت وهو محتار في وجهته. لو كان بمفرده لرحل من فوره إلى فاس، ولكنه مع ولديه الاثنين... كان في انتظاره أمام باب بيته الفتى ابن رشد، ابن لخير صديق مسلم قاضي المدينة المعظم. كان الفتى يبدو قلقاً.

- كلفني أبي بالحضور إلى هنا لكي أعبر لك عن وقوفنا إلى جانبك في هذه الأوقات العصيبة. نأمل أن تعودوا بسرعة. إن كنتم ذاهبين إلى أرض إسلامية، يمكننا مساعدتكم في تنظيم رحيلكم. ونستطيع أن نحتفظ لكم بكتبكم وبأي شيء لا تودون أخذه معكم. واطمئنوا فسوف نردها لكم لدى عودتكم. وإذا كنتم بحاجة إلى ذهب أو فضة...

قاطعه ميمون قائلاً:

- شكراً لك فقد قمنا بتسوية جميع أمورنا. عزمت الرحيل إلى بيت أحد أصدقائي في فاس، هو القاضي ابن شوحانا.

- ترحل إلى المغرب؟ هذا ليس معقولاً، إنها أرض الموحدين. لا تذهب إلى هناك الآن، فعبد المؤمن شديد البأس، ولن يلقى اليهود هناك معاملة أحسن من هنا. نصيحتي لكم أن ترحلوا إلى الشمال، إلى أرض مسيحية، إلى طليطلة حيث يلقى اليهود والمسلمون الاستقبال والترحيب. ومن ثم تكونون هناك أكثر قرباً للعودة عندما تستتب الأمور، وسنعمل من جهتنا على أن تكون هذه العودة في أسرع وقت.

التفت ميمون إلى ولديه، إذ إن ابن رشد قد زعزع عزيمته. فالذهاب إلى فاس يتطلب رحلة بحرية طويلة مستحيلة مع أطفال صغار

في السن، بينما الرحلة إلى طليطلة لا تستغرق فعلاً سوى ثلاثة أيام على ظهر الحصان، على قاب قوسين أو أدنى من قبر سارة.

وأخيراً عزم ميمون الرحيل إلى طليطلة. وسيصطحب معه سفيرة خادمة سارة فهو لا يستطيع الاستغناء عنها للعناية بولديه. وعندما أخبرها بالنبأ لم تشعر بالقلق في أن تتبعه إلى أرض مسيحية تنظر إليها على أنها أمة. إن ما كان يقلقها هو كيف سيرحلون، وكيف تعتني بنظافة الولدين وكيف تطعمهما. أما الباقي فكان سيان بالنسبة لها.

لم يرحلوا في اليوم التالي نحو الشمال مباشرة. ادعوا للجميع من أجل تسهيل خروجهم من المدينة إنهم ذاهبون إلى أليسانه لبضعة أيام يقومون خلالها بزيارة عائلة سارة واليفار لمواساتهم في مصابهم. وبعدها سيرجعون ويعتنقون الإسلام ويعودون إلى حياتهم السابقة. ليس في هذا القول شيء غير معقول، فكثير من يهود قرطبة كانوا يسلكون هذا الطريق.

انطلقوا إذاً على ظهور أربعة أحصنة ومعهم سفيرة وأمتان مسيحيتان، وفي هذا دلالة على علو مكانتهم الاجتماعية. وكانت أربعة حمير تحمل حقائبهم.

وقبل الرحيل مباشرة اصطحب ميمون ولديه إلى الكنيس للمرة الأخيرة. وكان موسى يأمل أن يرى ريبكا في المدرسة بالقرب من بيت الصلوات، لكنها لم تكن هناك، فهي الأخرى قد رحلت في إجازة كما كانت قد شرحت لمعلمها. نعم كان رحيلها إجازة، وسوف تعود مثله وربما قبل نهاية الصيف. وسيكون ذلك بمثابة العودة بعد العطلة الصيفية.

الفصل الثاني

الأربعاء ٦ كانون الثاني ١١٦٢،
ثيران Zocodover
١٧ محرم ٥٥٧، ١٨ طابات ٤٩٢٢

بعد مضي ثلاث عشرة سنة، وبينما كانت نيران محرقة جديدة تلتهب أمام عيني موسى في الساحة الكبيرة في طليطلة هذه المرة، كانت نيران قرطبة تتراءى له في كل ليلة تقريباً منذ موت خاله. ولما بلغ أشُدّه، ظل يحلم بالضجيج والروائح والمخاوف والأحزان التي كانت قد ألمّت به لدى وصوله إلى طليطلة مع فجر اليوم الرابع من سفر مضنٍ من أجل إقامة كان يظنها حينئذٍ قصيرة جداً. ولكنه منذ ذلك الحين، وخلال ثلاث عشرة سنة، لم يغادر موسى قط عاصمة قشتالة، ولم يستطع مطلقاً خلال هذه الفترة أن يعود إلى قرطبة.

لم تكن مدينته مع ذلك تبعد عنه سوى مسافة ثلاثة أيام ركوباً. وكأن بحراً واسعاً كان يفصل بينهما، شبيهاً بذاك البحر الذي يستعصي على العبور ويثير الخوف، والذي يمتد بعيداً نحو الغرب ويدور حول العالم كما كان يقول بعض الجغرافيين من أصدقاء والده.

الدوران حول العالم... ما العمل للدوران حول قرص؟ هل كان ينبغي في وقت من الأوقات الغوص بدءاً من الحافة؟ وماذا كنا نفعل ونحن ممسكون بالحجر المثبت هناك في الفضاء؟ قال له خاله إن أرسطو يعتقد أن النجوم والكواكب والمذنبات تمتلك حقيقة مادية وأن الأرض كرة...

لماذا اعتنق خاله الإسلام؟ لماذا مات؟ هل كان الموت يدرك دائماً الطيبين قبل الأشرار؟

لم يتوقف الفتى اليافع عن طرح هذه الأسئلة على أبيه منذ ذاك اليوم الرهيب الذي هربا فيه من قرطبة، حاملين معهم ثيابهم وكتبهم ومخطوطات التوراة وصندوقاً صغيراً لم يعلم به إلا أثناء السفر وأنه كان يحوي ألماساً اشتراه أخوه داوود. شعر موسى بجرح في داخله عندما فوجئ بوالده وأخيه الصغير يتكلمان عن الألماس وأحجامه. كيف يمكن لميمون أن يتحادث سراً مع صبي عمره اثنا عشر عاماً حول الأحجار الكريمة وهو الذي لم يكن يريد أن يأتمن أحداً غيره على أسرار التلمود؟ كيف تمكن أن يعتبره خبيراً في علم الأحجار الكريمة؟ كان من المؤكد أن داوود سيكون سبباً في إفلاسهما.

أدرك المسافرون عند دخولهم في الوادي الكبير الذي يمتد حتى وادي تاجو أن الرحلة بين أندلس الموحدين وقشتالة المسيحية ليست رحلة ترفيهية. فقد اضطروا في بادئ الأمر إلى التواري عن أعين المسلمين في حقول الزيتون، ثم الانسلال بمجرد عبور الخطوط بين كروم مطران طليطلة المنبسطة على الروابي التي تحد وادي تاجو، دون الدوران حول مريدا.

اختبؤوا عند عبورهم ما كان يشكل خط الجبهة في ذلك اليوم في مستودع للحبوب، فرأوا كميناً نصبه فرسان مسيحيون لفصيلة صغيرة من الموحدين، وبدا أن هذه الفصيلة قد فقدت الاتصال مع بقية الجيش. وفي غضون ساعة واحدة لم يبق مسلم واحد على قيد الحياة ولا جثة دون تشويه. وعند سماع موسى لأنين وصراخ المحتضرين، تذكر أنين وصراخ من سمع في ساحة مسجد قرطبة. وكان تهليل المنتصرين هنا لا يختلف عن تهليل من ارتكب المجزرة بحق ذويه هناك. إن الضحايا والجلادين على شاكلة واحدة في كل مكان... أخذ أخاه الصغير في حضنه وتمسكت سفيرة بميمون بكل قواها.

ولما أصبحوا على مسافة قريبة من طليطلة نصبوا خيمة في العراء على الحدود بين قشتالة والأندلس.

تأمل موسى صفحة السماء مطولاً فاستشاط غيظاً لعدم وجود إليفار ليشرح له لمعان الضوء الملتصق في سقف السماء. وتكلم والده مهمهماً عن المعرفة الملحدة عديمة النفع. وطفق موسى يفكر أن الإلحاد ربما يكون في نظر ميمون أسلوباً للدلالة على جهله الخاص. وقد شغلتهم همومهم عن الخوض في هذا الموضوع الآن، ولكنه أمل بالعودة إلى ذلك ذات يوم.

أخرجت سفيرة بعناية فائقة من أسفل الصندوق آخر وجبة طعام كانت أعدتها في قرطبة طبقاً لتعليمات سارة قبل دخولها في غيبوبة مباشرة. تناولوا الطعام في صمت ولم يجرؤ أحد على الكلام أمام الأب الذي بارك الطعام بينما دموعه تسيل على خده.

لم يجد موسى سبيلاً إلى النوم، فكان كل ما مر به خلال الأيام الأخيرة يتسلط عليه: الموكب ومشاهد الإعدام وجنازة أمه وانفصاله عن ريبكا والرحلة. هل ستسير حياته من الآن فصاعداً بهذه السرعة؟

ومع إطلالة اليوم الرابع من النزوح، في تلك اللحظة التي يشتدّ فيها سواد الليل، ومع آخر أضواء نجم ذات الكرسي الخافتة، ومع أولى خيوط الشمس المتوهجة، لاحت لهم طليطلة، هذه القلعة الرائعة الجاثمة على جرف صخري والمحاطة بمسلك ضيق يجري فيه نهر التاجو.

استولى عليهم القلق مع طلوع الشمس عندما رأوا على الضفة الأخرى الأسوار والأبواب الثمانية المحروسة حراسة مشددة. تُرى كيف سيكون استقبالهم؟

ساروا بمحاذاة مجرى النهر ومروا أمام قصر سانت سرفان المطل على جهة الجنوب، ثم لمحوا جسراً ما يزال يحمل اسماً عربياً هو القنطرة وتقع مقابله بوابة اسمها بوابة القنطرة. وعبروا القناة الرومانية الجميلة الممتدة فوق النهر حتى الطاحونة التي كانت تنقل الماء الضروري لتغذية المدينة لمسافة تسعين غلوة[1]. ثم سلكوا جهة الشمال الغربي إلى أن بلغوا جسراً من القوارب يطل عليه «قصر اليهود» وهو قلعة سميت هكذا لأنها تشرف على مدخل الحي الذي يعيشون فيه.

١ـ وحدة قياس للطول في اليونان القديمة وتعادل ١٨٠ م تقريباً. (المترجم)

كان على جميع المسافرين القادمين من الجنوب العبور من هذه البوابة ودفع رسوم المرور. كان عليهم إذاً أن يدخلوا من هنا عندما يفتح الرتاج الثقيل.

كان الجسر يرزح تحت وطأة المسافرين والحمير وصرر الملابس، وكان تدافعها يعرض دوماً اتزانه الضعيف للخطر. جاء دورهم بعد ساعة من الانتظار. وتم تفتيشهم تفتيشاً فظاً، فقد كان رجال التفتيش يبحثون قبل كل شيء عن الطعام والأواني والأقمشة، وعلى الرغم من هذا ما من شيء كان يحدّ من عدد اليهود القادمين من قرطبة والتي كانت المدينة مستعدة لاستقبالهم.

وأصيب موسى بالدهشة عندما خرج من البوابة، فلم تكن طليطلة تشبه في شيء قرطبة أو أليسانه، وهما المدينتان الوحيدتان اللتان يعرفهما. كانت تبدو له كمتاهة ضخمة فوق سطح الماء، ففي كل مكان ترى الحدائق التي تروى بماء القنوات والبحيرات والأحواض والحمامات العامة والسواقي والطواحين الهوائية. ولم يصدق ما تراه عيناه من خصوبة وسط هذه الأرض القاحلة. أتصرف كل هذه المياه من أجل متعة الأغنياء؟ لا ريب أن المسيحيين أشد جنوناً من المسلمين. ووقع بصره عندئذ على الساعة المائية الخرافية التي كانت كما وصفها خاله له تقوم بملء وتفريغ مستويين كبيرين من الماء تبعاً لأطوار القمر. وشدّ موسى بقوة على القطعة الذهبية التي كان قد خاطها في بطانة ثوبه.

دخلوا إلى الحي اليهودي، وهو أحدث بكثير من الحي اليهودي في قرطبة. وبينما عاش اليهود بلا انقطاع في حاضرة الجنوب منذ

أكثر من خمسة عشر قرناً، قامت طليطلة بطردهم مباشرة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية خلال احتلال الفيزيغوت لها الذين أتوا من تولوز وأصبحوا مسيحيين على طريقتهم ومعادين للكنيسة في روما ومن ألد أعداء الساميين.

ظل الفيزيغوت ثلاثة قرون في السلطة. وتقول الأسطورة إنه في يوم أحد الشعانين من عام ٧١٢، وفي أعقاب زواج شارل مارتل من أميرة من طليطلة التي أصبحت فيما بعد والدة شارلمان قام متدينون بفتح أبواب المدينة وخرجوا في طواف على شرف سانتا ليوكاديا، فأتاحوا بذلك لقوات الأمويين القادمين من قرطبة غزو المدينة.

رأى المسيحيون في هزيمتهم هذه قصاصاً من الله على خطايا ملوكهم. وبقي معظمهم في طليطلة تحت حماية الأسياد المسلمين الجدد، وتعلموا اللغة العربية وحافظوا على سبع من كنائسهم دون أن يتقربوا مع ذلك من مسيحي قرطبة على الرغم من مشاطرتهم لهم في الشعائر، وهذا ما جرّ عليهم حنق روما التي أطلقت عليهم باحتقار اسم المستعربين. وقدم أيضاً بعض اليهود من قرطبة وجعلوا من طليطلة مدينة منافسة للعاصمة.

في واقع الأمر، وكما أن طليطلة المسيحية كانت تكره قرطبة الإسلامية، فإن مسلمي طليطلة لم يكونوا يحبون مطلقاً مسلمي قرطبة.

وعلى الرغم من هذه الخصومات استمرت طليطلة التي كانت المدينة الثانية في الإمبراطورية الأموية في الإثراء. وبنى اليهود والمسيحيون في هذه المدينة كنائس جديدة لهم بجانب المساجد.

وأصبحت المدينة عاصمة للحدادين الأوروبيين، فكان يُتباهى في كل مكان بنصالها وفؤوسها وحرابها وآلاتها التي تقيس ارتفاع الأجرام السماوية ومضخاتها وساعاتها المائية وطواحينها وأنابيبها التي تجري المياه فيها. وبما أن كل حداد قد اشتهر وقتذاك بالسحر، فقد أصبحت المدينة أيضاً بوتقة لجميع أعمال السحر والشعوذة.

وعندما تفككت الإمبراطورية الأموية بقيت المدينة مسلمة لفترة من الزمن، ثم استولى عليها المرابطون ولكنهم لم يستطيعوا المحافظة عليها سوى بضع سنين، فقام الفونس السادس تحت ضغط البابوات وملوك أراغون الذين أرادوا وضع حد لأطماع نافار المجاورة بإعادة احتلالها وجعلها عاصمة له، فأسدل بذلك الستار على ثلاثة قرون من الحكم الإسلامي، وكان ذلك قبل سبعين عاماً.

لم يتسبب هذا الانتصار في طرد اليهود أو المسلمين، ولم يضطر المستعربون لترك دينهم. وصار اليهود من أملاك الخزينة الملكية، وكانت المحاكم المسيحية تفصل في نزاعاتهم وتقر بصلاحية شهاداتهم وقانون تلمودهم. ونصب الفونس السابع نفسه ملكاً على الديانات الثلاث كما فعل ذلك قبله أمراء قرطبة وشجع اليهود على أن يبقوا مخلصين لعقيدتهم، وكانت محاكمه تنزل عقوبات مادية باليهود الذين لا يحتفلون بأعيادهم الخاصة، كما كانت تصادر أملاك من يستبدل منهم بدينه ديناً آخر. وكان عقاب جريمة قتل اليهودي لا يختلف عن عقاب جريمة قتل نبيل من النبلاء. وإذا عثر على يهودي مقتولاً تدفع المدينة مبلغاً مادياً لعائلته.

ولم يكن أحد يعيش منغلقاً على نفسه ضمن طائفته. فلم يكن هناك مقبرة يهودية وإنما فسحة منعزلة في مقبرة Vega بالقرب من بوابة كمبرون. وكان هناك مسيحيون ومسلمون يعيشون في الحي الذي كان يسكنه معظم اليهود بالقرب من سوق Alcana، وهو حي كبير يقسم المدينة إلى قسمين. وبالطبع كان هناك يهود يسكنون في مكان آخر من المدينة.

كان التجار ورجال الأدب في البداية ينتقلون بحرية شبه مطلقة بين مدن المرابطين والمدن المسيحية. وظلت طليطلة مركزاً كبيراً جداً للصناعات الحديدية، ومركزاً للعلوم الباطنية واستحضار الأرواح والخيمياء. وكان الفضوليون من أوروبا وآسيا يصرون على القدوم إليها لمطالعة النجوم وصهر المعادن. وحافظ مسلمو المدينة على حرية الصلاة في مسجد لاس تورمارياس. واستمر رجال المصارف اليهود بالعمل كما درجت العادة منذ قرون مع البحارة المسلمين من أجل استيراد البضائع إلى طليطلة لحساب التجار المسيحيين بعد تفريغها في ميناء قادس والعامرية. وكان المسيحيون يقايضون بعملتهم العملات الإسلامية ويفسحون المجال أمام ذهب وفضة الأندلس للانتقال من قرطبة إلى طليطلة ومن طليطلة إلى برشلونة وجنوه وتروا و بروغوس. فأصبحت طليطلة محطة أساسية لا غنى عنها في المبادلات بين أفريقيا وأوروبا، وملتقى العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، وبين سكان قشتالة وسكان لومبارديا، والمكان الحيوي لتموين المسيحيين بالذهب.

ثم أصبح الأمراء المسيحيون أكثر تشدداً، فحولوا بعض المساجد إلى كنائس تدين بالمذهب اللاتيني. وهكذا تحول المسجد الكبير إلى

كاتدرائية سانتا ماريا، وصدرت قوانين تحظر استعمال الأرقام المسماة بالهندية في قرطبة وبالعربية في طليطلة ومنها الصفر، وتلزم سكان طليطلة باستخدام الأرقام الرومانية في الحساب. كما فرضت هذه القوانين الأسبوع ذا السبعة أيام وعطلة العمل يوم الأحد، ولكن ذلك لم يتحقق فعلياً، فكان رجال الشرطة يغضون البصر عندما يستريح المسلمون من العمل يوم الجمعة ويحتفلون من جديد بعيد الميلاد، أو عندما يحضر المسيحيون حفلات الأعراس والحفلات الكبيرة التي يقيمها اليهود. وكانت أغنى عائلة يهودية في طليطلة هي عائلة ابن شوحان، وقد شيدت عند وصول ميمون وولديه مباشرة كنيساً جديداً أضيف إلى الكنائس العشر المستخدمة من قبل، وإلى الكنائس التي كانت تتحول إلى معابد يهودية عندما كان المسيحيون يهجرونها.

كان اليهود الأوروبيون يحسدون إخوانهم اليهود في طليطلة بسبب رغد عيشهم لدرجة أنهم كانوا يقلقون على مصيرهم. فإذا كانوا في فرنسا وبولونيا وألمانيا مهددين بالإبادة، فإن يهود طليطلة كانوا مهددين بالذوبان، فقليل منهم كان يسمع بالتلمود وقلة قليلة كانت تعكف على دراسته.

استقبل أعيان الطائفة اليهودية ميمون وولديه بحفاوة، وكان في المقدمة أحفاد الفيلسوف ابن باكودا، وكان غادر قرطبة قبلهم، وعبد الحسن إيهودا ابن عزرا وكان وزيراً في بلاط الفونس السابع. وكان أهالي طليطلة على علم بكل ما جرى لهم من مصائب. وأعربت الطائفة لهم أنه ليشرفها أن تستقبل شخصية مرموقة مثل ميمون الذي من شأنه أن يعيد للدراسات اليهودية مكانتها السابقة بعد أن لفها

النسيان هنا، فكانوا إذاً في طليطلة كأنهم في بيوتهم ويمكنهم قضاء المدة التي يرونها ضرورية.

كما قام الأعيان بوضع منزل كبير تحت تصرفهم ويقع بالقرب من زودوكوفار، وهي ساحة فسيحة تحيط بها الحانات والفنادق وكانت تستخدم سوقاً للأحصنة والحبوب والخشب. قال موسى في سره إنه منزل يفوق في روعته أي منزل آخر، ولكن والده اغتر بمثل هذا الاستقبال، وفكر الفتى أنه لا بد أن يتخلى في المقابل عن حجر أو عدد من الأحجار الكريمة التي كانت في حوزتهم عند رحيلهم، وتساءل ماذا سيحدث عندما لا يبقى معهم شيء.

ما أن استقروا في منزلهم الجديد حتى راح موسى يبحث عن ذاك الذي كان خاله قد طلب منه العثور عليه، ألا وهو جيرار الكريموني. وبعد أسابيع من البحث العقيم والصعب على مراهق لا يتكلم اللغة المحلية، بلغه أن رجلاً بهذا الاسم يعيش منذ فترة قصيرة في بيت كبير بالقرب من الساعة المائية، فأسرع إليه ولكن الرجل الذي يعمل مترجماً كان قد رحل لتوه في رحلة طويلة ولكنه سوف يعود.

وكان هذا الرحيل بالنسبة إليه كما لو أن خاله قد مات مرة أخرى. كان على استعداد لأن ينتظر «سنين إذا لزم الأمر» على حد قول إليفار لكي يفي بالوعد الذي قطعه لخاله. وعلى كل حال قرر والده البقاء في طليطلة إذ لا شيء كان على ما يرام في قرطبة.

سارت حياتهم في البداية بصورة روتينية صعبة جداً بسبب القيود التي فرضتها عليهم فترة الحداد، ثم أصبحت بعد ذلك أقل وطأة. وازداد نفوذ ميمون في المحكمة الرابانية ورفض أن يكون أحد

أعضائها لأنه كان ينتظر دوماً اللحظة المناسبة للسفر إلى فاس المدينة الأثيرة لديه، أو للعودة إلى قرطبة. واستمر موسى في دراسة اللغة العبرية والتلمود والرياضيات والفلك والفيزياء. وكلما تقدم في العمر كلما صار نهماً في القراءة وشرهاً في النقاش مع الأحبار حول التوراة وتفاسيرها. وكان داوود يكره التعلم ويفضل عليه المشاجرات في الشوارع، وكان يرجو أباه أن يتركه يعمل عند صائغ في المدينة يدعى لوبمان، وقد أتى هذا المعلم من مدينة «Worms» بعد أن نجا بأعجوبة من مذبحة تعرضت لها عائلته.

وبعد مضي عدة شهور على وصولهم، وبينما كان موسى عائداً ذات مساء من الكنيس في ساعة متأخرة على وجه الخصوص، ناولته سفيرة رق غزال جاء به فارس خلال فترة بعد الظهر.

فقرأ موسى باللغة العربية كلمة مكتوبة عليه ولكن بحروف عبرية لم تحسن سفيرة قراءتها: «من أجل خير عائلتك وخير قومك ومن أجل خير جميع البشر، كُفّ عن السؤال عمن جئت للقائه، فلا وجود له. وإذ لم تكف عن ذلك فسوف تتعرض لمصائب هائلة تكون فيها نهايتك، ويكفيك ما رأيت من المصائب.»

«اليقظانون»

وسأل موسى سفيرة عن أوصاف الشخص الذي أتى بالرسالة، فقالت بأنه كان ملثماً ولم يتلفظ إلا بكلمات قليلة باللغة المحلية وبصوت خافت جداً وبلكنة غير مفهومة.

تجمد الفتى من الدهشة. فمن عساه يكون على علم بسر خاله؟ وهل لاحظ أحدهم أنه يبحث عن الكريموني؟ ومن يكون هؤلاء

«اليقظانون»؟ كانت هذه الكلمة تعني له شيئاً ما لكنه لم يكن يستطيع التذكر.

شعر بالخوف فعزم ألا يكلم أباه بذلك وقرر الانتظار. وعلى كل حال لا يستطيع أن يفعل شيئاً غير ذلك، فهو لن يرحل لاقتفاء آثار هذا المترجم الذي اختفى بسرعة. عندما يعود (هذا إذا عاد) فسيكون لديه دائماً الوقت الكافي لكي يتحرى عن فحوى الرسالة.

انقضت السنون والوضع في قرطبة لم يطرأ عليه أي تحسن بعكس كل الآمال. لم يكن الموحدون شديدي البأس مع اليهود والمسيحيين فحسب، بل كانوا كذلك أيضاً مع خصومهم من المسلمين. فتحوا أولاً العامرية ثم غرناطة لكنهم لم يفلحوا في التخلص من أمير مرسية ابن مردانيش الذي كان يلقب «بالملك الذئب»، وكان يهزأ منهم ويقوم أحياناً بهجوم مضاد يصل به إلى ضواحي قرطبة. وكثرت عمليات الإعدام سراً بحق اليهود. وكان الأمر يتعلق أحياناً بتسوية حسابات بين المسلمين ليس إلا، أو بالوشايات التي يرتكبها أعداء من غيروا دينهم. وعلى كل حال لم يكن وارداً في نظر ميمون وأولاده العودة إلى قرطبة أو الرحيل إلى فاس حيث تلقى الطائفة اليهودية تسامحاً ولكن الوضع هناك لم يكن يوحي بالأمان ولا بالاطمئنان.

كان موسى يمضي جل وقته في دراسة التلمود والنقاش فيه مع أحبار المدينة. وكان ينفجر غاضباً عندما يجبر على تعلم أشياء عديمة النفع في نظره، فكان والده يرد عليه مستعيناً بالتشبيهات البليغة أن التعلم كمن يسعى لمقابلة الملك: عليك في بادئ الأمر أن تعرف أين تقع

مدينته ثم العثور على قصره، ومن ثم الحصول على إذن بمقابلته. وكان يقول له أيضاً: «ينبغي لك أن تتعلم قبل أن تكتشف، فوحده السباح الماهر يستطيع أن يخرج اللآلئ من أعماق البحر.»

وعندما كان موسى يسأله عن الفرق بين العلم والإيمان، كان يجيب أن كليهما ضروري. وكان يشبه له ذلك بالبحث عن كنز مدفون في بيت مقلوب رأساً على عقب، فيجب أولاً الإتيان بشمعة ثم ترتيب أثاث البيت قبل البدء بالبحث عن الكنز. وكذلك الأمر عند البحث عن الحقيقة ينبغي أولاً تصنيف المعارف بواسطة العلم ثم الأمل بالعثور على الحقيقة بوساطة الإيمان.

وتعلم موسى أيضاً فن الخط، فعرف كيف يرسم حروفاً بوساطة قصبة على الشمع وجلد الغزال وحتى على صفحات ورق من الكتان بطريقة سرية للغاية مستوردة خصيصاً من الصين. كما تعلم المبادئ الأولية في الطب كما ورثه العبريون والعرب عن الفرس والإغريق، وكان في بعض الموضوعات يعرف أكثر مما يعرف أساتذته بكثير بفضل تشريحه لحيوانات القصابة التي كان يقوم به مع خاله فيما مضى. وها هي صورة خاله تعود إلى مخيلته! وشد بقبضته على القطعة الذهبية الثقيلة وراح يسأل في المدينة عن الكريموني ولكن هذا الأخير مازال متوارياً عن الأنظار.

وعندما لا يكون يدرس بمفرده اللاهوت أو الفلسفة أو الفلك أو الطب، كان يطرح على أبيه وعلى أحبار المدينة أسئلة محرجة قلما يطرحها فتيان في مثل سنه: ما هو تفسير شعيرة القرابين الثقيلة؟ ولماذا يحظر خلط الحليب مع اللحم وهو يبدو منافياً للعقل؟ أليس فقط من

أجل الاختلاف عن جيرانه؟ ولماذا هذا الاختلاف؟ كان يصعب عليه أن يقر بأن للكون بداية، وكان القلق يساوره لاستحالة البرهنة على وجود الله، ولم يتوصل إلى الإيمان بالبعث الذي لم يجد أي ذكر له في التوراة. وكان لا يرى السبيل إلى الإيمان بإله خلق الإنسان على صورته كما لو أن لله شكلاً ورجلين وقامة؛ وكان يصب جام غضبه على الذين يجادلون في بطون الكتب في «قياسات الله». وكان لا يضيره أن يقول أمام أبيه إن التوراة ليست سوى ديوان من الاستعارات تخاطب عقل الإنسان لأنه يحتاج في هذه الدنيا أن يرى الله ويلمسه حتى يؤمن به. وكان يرى أن المسيحيين قد أخطؤوا أكثر من غيرهم عندما ادعوا أن الله ظهر في صورة بشرية. وكان يجد أن القانون اليهودي قد جاوز في تعقيده الحد المعقول، وتفسير الوصايا سيئ وعددها مبالغ فيه وأن الاقتناع بها ليس يسيراً. وكان يثير حنقه أن يرى أحبار بغداد الذين يشكلون السلطة الدينية العليا في اليهودية منذ تشتتها يرسلون تعليمات منافية للعقل ليس إلا. وكان يفكر في كتابة ملخص واضح لجميع القوانين، ولكنه كان يعود دوماً إلى أسئلته عن الحياة والموت والحرية، وعلى الخصوص إلى السؤال الذي كان لا يفارق تفكيره، ألا وهو ما هي الغاية من الكائن البشري؟

عندما كان يشعر باليأس لعدم عثوره على إجابة مقنعة، كان يعود إلى فلسفة الإغريق، ولم يستطع الاطلاع عليها إلا من خلال ترجمات عربية سيئة ومن خلال بعض التفسيرات الغامضة بقلم شخص يدعى الإسكندر الأفروديزي وآخر اسمه تيمستيوس. كان في أمس الحاجة إلى المخطوطات الثمينة النادرة التي كان خاله يملكها. وتساءل: ماذا حل بها الآن؟

وبعد قراءته لكل ما وقع بين يديه في المدينة، عدل عن دراسته لأفلاطون دراسة مستفيضة إذ إن أرسطو كان كافياً وافياً بالنسبة إليه. كان يرى أن الفكر البشري قد بلغ أوجه في فلسفته. وكان يجد متعة عندما يقرأ في إنتاجه أن كل كائن مخلوق من مادة وشكل يكون متطوراً لاسيما أن النوع الذي ينتمي إليه يشغل حيزاً متقدماً في سلم التطور. فنجد التراب في أسفل السلم وهو مادة من دون شكل، ونجد الله في أعلى السلم وهو شكل من دون مادة. وكان خاله يقول إن «المعلم» ملاحظ مدهش وصف جميع الحيوانات وجميع النباتات وصفاً دقيقاً. وهو الذي عثر على الجواب على سؤاله، فالغاية من الكائن البشري عند الإغريق هو أن يرتقي بتفكيره ويتحرر من المادة لكي يلحق بالأبدية ويصل إلى الفعل الصرف حيث تنتفي الرغبة والحاجة. قرأ موسى كتاب «الإيمان الحار» وهو كتاب لعالم يهودي من طليطلة اسمه ابن داوود الذي حاول أن يوفق بين فلسفة أرسطو واليهودية، وسجل ملاحظات كثيرة وأتقن علم الفلك معتمداً على المجسطي لبطليموس وتعلم الجبر والنظريات حول المخروطيات. ثم كتب «مقالة في التقويم الزمني» و «مقالة في المنطق» ولخص بلغة حديثة المفاهيم الأرسطية مثل أزلية الكون والمحرك الأول والعقل الفعال. قرر أن يحاكي أعظم فيلسوف إغريقي، فقضى ليالي بطولها في العلم ممسكاً في يده اليسرى بكرة معدنية، فإذا ما غفا سقطت هذه الكرة في وعاء كبير فأيقظته.

وبينما عكف موسى وأبوه على الدراسة، تحول حلم داوود إلى حقيقة. كان يهوى الأسلحة، فقضى زمناً طويلاً وهو يلاحظ طريقة

عمل صانعي السكاكين والأسلحة، ولكنه كان يفضل الأحجار الكريمة فعمل متدرباً في مشغل الصائغ لوبمان. والتقى زبائن من كل صنف ولون أتوا لشراء العقود والتيجان والخواتم. وصادف صانعي صابون قادمين من ناربون وسماسرة بحريين قادمين من جنوه وموسيقيين مشهورين مثل شاعر الغزل Acher Ben Yehiel.

علمه الصائغ كيف يميز بين الأحجار المختلفة ويقدر قيمتها. وفهم لوبمان على الفور أن داوود يمتلك عيناً فريدة وأنه أجدر من مستخدميه السابقين في معرفة مصدر الحجر الكريم ووزنه ولونه وطبيعته وعيوبه. وكان يعلم على وجه الخصوص كيف ينحت الحجر دون أن يفقد من وزنه شيئاً يذكر. ولم يكن داود ليتوقف عند شغل الأحجار الكريمة، فقد كان يريد أيضاً معرفة البلدان التي تأتي منها، وفكر أنه سيكسب مالاً أوفر لو ذهب إلى الهند أو الصين حيث توجد ثروات العالم الحقيقية وانتقاها هو بنفسه.

كان موسى وأخوه يحبان اللعب بالورق والشطرنج والنرد كسائر الفتيان من عمرهما. وكان اللعب في طليطلة هو الشطرنج. وكان الناس يتسلون باللعب في كل مكان بما في ذلك الكنائس والجوامع

وكنائس اليهود. وكانت ذاكرة موسى القوية جداً تساعده أن يتذكر دفعة واحدة جميع الخطط التي قرأها ويحفظ أفضل الطرق لحماية الملك وتحريك الوزير والجنود والقلعة والفيل. كان يحب الهجوم بفتح ثغرات مفاجئة بعد أن يثير الخوف عند خصمه. وفي الأماكن العامة كان اللاعبون المخضرمون يتنافسون على شرف مواجهته.

وهكذا تعرف موسى على ابن عزرا عن طريق لعبة الشطرنج. فاز موسى عليه بسرعة في أول لقاء بينهما في أربع عشرة نقلة. وبما أن هذا الرقم عاد للظهور من جديد قرر أن يجعله رقم سعده، وكان هذا العدد في اللغة العبرية يشير إلى اليد. وهكذا سيكون فيما بعد يد الله.

كان ابن عزرا يهوديا من قرطبة، وقد هاجر مع أبيه قبل موسى بعدة سنوات. وكان والده يعمل في تجارة الجلود قبل وفاته. استلم في البداية مهنة والده لكنه لم يبد أي اهتمام بالعلم أو التجارة. كان اهتمامه الوحيد هو شرب الخمرة ومعاشرة النساء. وكان المرجع الوحيد الذي يطيب له أن يذكره ليس التلمود أو أرسطو وإنما شاعر مغمور اسمه عمر الخيام وكان على حد قوله توفي لتوه في بلاد فارس. كان موسى يحب الحديث مع ابن عزرا لأنه كان يضحكه.

وكان ابن عزرا يقسم أن الكلام مع موسى يعطيه فرصة ضئيلة للفوز بالأبدية على الرغم من أنه لم يكن يؤمن بها. ولم يكن هناك من أسرار بينهما ما عدا سر إليفار، فلم يبين موسى مطلقاً لابن عزرا القطعة الذهبية كما لم يبينها لأبيه وأخيه. ولم يكلمه عن جيرار الكريموني الذي أصبح من العبث الاستمرار في انتظار عودته.

كان موسى يعتب على صديقه ابن عزرا تخليه عن العلم وعودته إلى بيته فاقد الوعي من شدة السكر، فكان هذا الأخير يجيبه مستشهداً بأبيات شعرية لشاعره المفضل:

«جميع الممالك مقابل كأس من الخمر اللذيذ!

جميع الكتب وجميع علوم البشر مقابل رائحة خمر فواحة!

جميع أناشيد الحب مقابل أغنية خمر يسيل!»

- لا أظن أنك تعتقد اعتقاداً جدياً أن الخمر أفضل من العلم؟ لكان ذلك ضرب من العبث!

- بلى أعتقد ذلك منذ أن رأيت في قرطبة وفي أماكن أخرى إلى أين يؤدي الدين.

- لأنك بدأت معاقرة الخمر في قرطبة؟

- بالطبع! بل وكنت أشرب مع مسلمين. وكان كثير منهم يقول مستشهداً بالقرآن أن الآية الثالثة والأربعين من السورة الرابعة تأمر المؤمنين فقط بعدم الصلاة وهم سكارى، وهذا يعني في نظرهم أن شرب الخمرة ليس حراماً خارج أوقات الصلاة. وصمّوا آذانهم عن قراءة الآيتين تسعين وواحد وتسعين من السورة الخامسة اللتين نزلتا فيما بعد محرمةً الخمرة على المؤمنين تحريماً قطعياً. ومن جهتي، فأنا أتدبر أمري بحيث أنتقل بين هذا التفسير وذاك.

قال له موسى موبخاً:

- وأنت الآن تفرط في الشرب وسوف يقضي عليك.

- ربما... عندما أشعر بالخوف وعندما أشعر بصداع في الصباح الباكر يحدوني الأمل أنه في يوم من الأيام سأظل أشرب الخمرة حتى أحس بالقرف منها فلا أعود إليها.

- إن ذلك لم يحصل لك بعد على ما يبدو!

فرد عليه ابن عزرا ضاحكاً:

- سيحصل ذلك، سيحصل... فأنا أفعل ما ينبغي فعله وانتظر مجيء ذلك.

أنت تنتظر قدوم المسيح، أما أنا فأنتظر أن أقلع عن شرب الخمرة. وحدوث هذا وذاك قليل الاحتمال.

- لا تمزح في هذا الأمر! فأنا على يقين من مجيء المسيح. لا أستطيع أن أقول متى يأتي، ولكنه سوف يأتي.

- ليسمع المسيح منك! وليحول الماء إلى خمرة وليحضر جميع النساء إلى سريري!

احتج الفتى قائلاً:

- لن يفعل شيئاً من هذا القبيل. فهو لن يغير أياً من قوانين الطبيعة ولن يمحو المرض ولا الفقر ولا الظلم. ولن يحول الصحارى إلى حدائق ولا الجبال إلى سهول ولا البحار إلى محيطات.

- ما الذي سيفعله إذاً؟

- سوف يعيد بناء دولة إسرائيل وسوف يصبح ملكاً عليها وسوف يجعل منها أنموذجاً لمجتمع عادل يخلو من العنف.

- إن كان هذا هو المسيح بنظرك، فهو ليس مثيراً للاهتمام. كنت أعتقد أنه سوف يمنح الخلود للبشر ويخلصنا من كل ألم ومن كل مكروه. فإذا كان لا يفعل سوى أن يضيف دولة على الأرض، فهذا أمر سخيف! ومن الأفضل لك في هذه الحالة أن تعدل عن العلم وتشرب معي الخمرة. وسوف ترى كيف تكون الصحة في الصباح بعد السهر طوال الليل.

- لا تعتمد على في ذلك، فالليل في نظري خُلق للنوم.

- أنت لم تفهم شيئاً من الحياة! فالحياة هي أن ترتجل أغنية وأن تغوي فتاة وأن تقضي ليلة

في الغناء مع صحبك. تلك هي الحياة هنا والآن! هل تعلم ماذا كان يقول عمر الخيام؟

- كفاك استشهاداً به! وفي النهاية أنا أكره الشعر. فالشعر كالموسيقا يخاطب العاطفة ويحمل على الخلط بينها وبين الإيمان. فليس هناك ما يخدع أكثر منه!

- أنت لا تدري ماذا تقول. يرسم لنا الإحساس والهوى والنغم والشعر خريطة الجنة الحقيقية.

وأستشهد دائماً بشاعري الذي قال:

«إبريق من الخمر وشفتا الحبيبة على حافة مرج،

رغبتي ومرارتي هما جنتي وناري.»

- لا وجود للجنة والنار. فكلاهما من ابتداع من لا يحسن مواجهة آزلية العدم.

- أنت لا تؤمن بالجنة ولا بالنار؟

- كلا. فأنا أؤمن أن روح الإنسان مهما بلغت خطاياه سوف تذوب في الروح العامة.

- الروح العامة؟ هذا شيء مبهم وغير جميل كمستقبل. المسلمون يحسنون العيش بشكل أفضل. فهم لا يعدون من يجاهد النفس بسبعين حورية فحسب، وإنما يعدونهم يوم الدين أن يكلمهم الله منفردين قبل أن يبعثوا. وأنا على كل حال لا أحب فكرة البعث والانتظار في البرزخ آلاف السنين قبل أن تعود إلى أرض قد اكتظت بكل من عاش عليها. إن هذا لمرعب! فأنا أفضل الإيمان على طريقة أهل الشرق. سأل موسى: وما هو هذا الإيمان؟

- ليس في نظرهم ما بعد الموت انتظار لا محدود لاحتمال البعث وإنما هو تقمص فوري في كائن حي آخر في هذه الدنيا. فأنا أحب أن

أصير عشباً، وكم هي هادئة حياة العشب! وكان أثيري من الشعراء الذي لا تحب أن أذكر اسمه والذي كان مؤمناً بما يؤمن به أهل الشرق يقول:

«بعد موتك يقصر نومك

وتبعث في حزمة من العشب

سرعان ما تدوسها الأقدام

في زهرة سرعان ما تذبل في الشمس.»

- أعرف هذه الأفكار، فهي أفكار غريبة. وأشعر بالقلق عندما أرى أن مثل هذه المعتقدات منتشرة في كل مكان، لا بل هناك بعض اليهود قد بدؤوا يفكرون مثل هذا التفكير.

دهش ابن عزرا لسماع ذلك:

- قلت يهود؟ لم أكن أعلم ذلك! إنهم يثيرون اهتمامي! أين هم الآن؟

- إنهم منتشرون في كل مكان في شرق أوروبا. ولا ريب أنهم تأثروا بالأفكار القادمة من الهند، ويطلقون على ذلك اسم القبالة la Kabbale. وهذا بالفعل كل شيء ما عدا القبالة الصحيحة. وأنا أفهم تفكيرك بهذا الشكل، فأنت لا تعدو كونك مستفزاً رخيصاً، ولكن أسوأ خطر على المؤمنين هو أن يروا الإيمان ينجرف نحو اللامعقول.

- لماذا خطر؟ فهذا لا يسبب ضرراً لأحد!

- هذا يهدد أساس هويتنا، وهو معرفة الوصايا والوضوح أمام العالم الحقيقي. وهذا يزيد أيضاً

البدع السخيفة قوة ويسهم في إقصاء الناس عن أماكن العبادة.

هز ابن عزرا كتفيه:

- أنا لا أذهب إلى الكنيسة أو الجامع أو الكنيس إلا للنوم في الظل. أما الآن فالوقت ليس وقت النوم، فتعال معي إلى الفتيات... يوجد بالقرب من هنا، بجانب ساحة زوكودوفر حمام عمومي يبعث خصيصاً على التفاؤل.

قهقه موسى من الضحك. كان ابن عزرا الوحيد الذي يأتمنه موسى على أسراره. فكلمه عن ربيكا الفتاة القرطبية والتي انقطعت أخبارها عنه. واعتقد صديقه أنها أسلمت وصارت من الحريم، وقال له إن من الأفضل أن ينساها ويرافقه إلى النساء المسيحيات، «وهن أقل تزمتاً من نسائنا ويعترفن جيداً أن الرجال يحتاجون إلى مطارحة النساء الغرام مقابل المال.»

وكانا يتطرقان أيضاً في حديثهما إلى داوود الذي بدأ يكسب المال الوفير على الرغم من حداثة سنه. وكان ابن عزرا يستشهد به أمام موسى أنموذجاً، فهو كان يعلم على الأقل ما هي الحياة. لا شك أنه كان يرهق نفسه كثيراً في العمل في نظره، ولكنه عندما يتوقف عن العمل بأحجاره الكريمة، لم يكن يضيع وقته في الصلاة، بل كان يحب المزاح وقد فرض احترامه لمهارته في السيف. وكان له في جميع الأوساط عدد كبير من الأصدقاء وعدد أكبر من الصديقات.

وكان موسى يبتسم مشفقاً، ثم يعود إلى دراسته وحواره مع والده.

وعندما طفق يكلم ميمون عن أرسطو ارتعدت فرائص هذا الأخير:

- من كلمك عنه؟ ينبغي عدم تعليمه لأحد. لقد زوج الأنبياء ابنتهم الفلسفة لأحد المجانين، وهو الإنسان الذي يعاملها معاملة سيئة لأنه يجدها شديدة الكتمان.

- ماذا يعني ذلك؟

- ذلك يعني أن الإنسان يتوقع أشياءً كثيرة من الفلسفة. الفلاسفة فانون ولا ينزل عليهم إلهام من الله.

- بلى في بعض الأحيان، فأرسطو...

- هو؟ إنه ليس نبياً. إنه مشّاء يفكر تفكيراً سيئاً، يفكر بسرعة كبيرة دون أن يستند على مراجع. لم يكن يؤمن بشيء وكان يظن نفسه عبقرياً وكان يكره العمل، فهو ليس بأفضل من صديقك السكير.

- ابن عزرا؟ أنت لا تحبه بتاتاً، أليس كذلك؟

- أنا أحبه، فهو إنسان شريف لكنه ملحد ويفرط في الشرب.

- عنده طريقة ذاتية للإيمان بالله. فالله في نظره هو الحياة. ولعل هذا تعريف جيد، ألست معي في ذلك؟

ابتسم الشيخ ووضع يده على كتف ابنه:

- أنت إنسان طيب يا موسى. أعلم أن طموحك أبعد من الآخرين. وأنا لست قلقاً عليك فأنت من القوة والشدة بحيث تقاوم جميع الانحرافات التي تطوقنا. أعرف أنه حيثما يجب أن نعيش يكون علمك مفيداً لشعبنا. أنا قلق ومهموم على أخيك.

- لماذا؟ ينبغي عليك ألا تقلق عليه، فهو عاقل جداً. هو يحب المشاجرة لكنه عاقل.

- إنه يتردد كثيراً على المسيحيين.

- ما هذا الذي تقوله؟ هذا شيء طبيعي، فعليه أن يقابل الزبائن والموردين. ومن ثم فهم لا ينقلون وباءً.

- أنا أعلم ما أقول. يبدو لي أنه يقضي أيامه مع آل دو سوزا.

- آل دو سوزا؟ لم أسمع بهم من قبل. ومن يكونون؟

- إنهم تجار أغنياء جداً. هو يبيعهم أحجاراً نادرة. قال لي مرة إنهم خبراء مرموقون ومن أفضل من تعامل معهم. وأضاف بأن ابنتهم آية في الجمال. أخوك...

- لا تقلق عليه، فهو صغير جداً في السن... وهي بالتأكيد مغامرة عابرة.

- أنا أشعر بالقلق ويزداد شعوري بالقلق إذا كانت هذه «مغامرة عابرة». المسيحيون يقبلون بنا ثم يأتي يوم يقلبون لنا فيه ظهر المجن دون أن نعرف السبب، أو ينتظرون أن ندير نحن ظهورنا حتى يطعنونا من الخلف. أضف إلى ذلك أن أخاك بدأ يقرض بالفائدة.

- وما الضير في ذلك؟

- أنا لا أحب ذلك. ففي بغداد وكولونيا وانجلترا تعرضت طوائف بأكملها للاضطهاد لأن بعض أفرادها قبلوا أن يعملوا في تجارة المال، فلماذا نجازف بتعريض أنفسنا للقتل من قبل مدينين مسعورين؟ ناهيك عن أن معلمينا ليسوا راضين عن هذه المهنة.

- لست على صواب، أجاب موسى. لقد تلقيت للتو تفسيراً من أحد أحفاد راشي رابنو يعقوب تام يفيد أن إقراض المال لغير اليهود هو في نظره واجب أخلاقي، لأن الإقراض بفائدة يحمل المستدين على

اتخاذ قرارات عقلانية. وكتب لي حكيم من متز وهو رابي موردخاي مستشهداً براشي أيضاً ليقول لي إنه يجيز إقراض المال بفائدة بين اليهود بشرط وجود وسيط غير يهودي يستر هوية المستدين الحقيقي. إنه نفاق بسيط... وأخيراً قال لي داوود إنه بهذه الطريقة يستطيع أن يكسب ما يكفي من المال من أجل توفير الوقت المخصص للدراسة.

- وهل صدقته؟ أرى أن ذلك من أجل تمضية المزيد من الوقت مع هذه المسيحية.

بدأ موسى مع مرور الزمن يألف الحياة في طليطلة. ولم ينته عنده الأمل في الرجوع إلى قرطبة، لكنه كان يفكر أحياناً أن في مقدوره أن يقضي حياته كلها في هذه المدينة المتسامحة الرائعة. وعلى كل حال لم يكن وارداً بالنسبة له الرحيل، فعليه أن ينتظر عودة جيرار الكريموني إذ لم يكن لديه شك أن هذا المترجم الغامض الذي تكلم عنه خاله سوف يعود يوماً ما. وكان بعض الناس أحياناً يتكلمون عنه في حضرته، وينبئون بعودته المسوفة باستمرار.

ويبدو أن الرجل قد ترك هنا وهناك ذكرى لا تمحى، فقد كان لامعاً متقلب المزاج يجيد التحدث بلغات كثيرة، مغرماً بالأشياء الجميلة، ومثقفاً إلى أقصى حدود الثقافة. كان موسى على يقين من لقائه، فموت إليفار لا يمكن أن يؤدي إلى طريق مسدود.

مضت عدة سنوات وذات مساء حان موعد السنة المسيحية الجديدة، وكان يحتفل بها في بداية شهر نيسان. أتى داوود إلى موسى الذي احتفل للتو ببلوغه من العمر اثنين وعشرين ربيعاً وقال له بأن أصدقاءه من آل دو سوزا يرغبون في التعرف عليه، وأنه مدعو في هذا

المساء ذاته إلى حفل كبير يقيمونه عندهم. رفض موسى الدعوة فليس وارداً الذهاب إلى بيت مسيحي عشية عيد مسيحي. فاحتج داوود:

- كيف يمكن أن تقول ذلك؟ تقول إنك تحترم كل الناس، ولكنك تأبى الذهاب إلى بيتٍ مسيحي لحضور عيد هو في حقيقة الأمر عيد وثني؟

- بوسعي أن أذهب إليه ولكن ليس هذا المساء، فأنا مشغول بالعمل. أما أنت فعليك أن تقلل من ظهورك هناك.

رد داوود بقوله:

- أنت في الواقع ترفض المجيء لأن والدك قال إنه علي أن أحذرهم، أليس هذا صحيحاً؟ لا أرى على كل حال سبباً يدعوني إلى الابتعاد عنهم. ماريا تعجبني وأظن أنني أعجبها. والدها مثقف مرهف الحس ذكي، وأنا ألتقي عندهم أناساً رائعين ومفيدين لتجارتي. وليس في نيتي أن أصبح مسيحياً. وأخبرك أن ردريغو دو سوزا قال لي إنه معجب بك، فهو يكلمني دائماً عنك.

- يكلمك عني؟ ولكنه لا يعرفني.

- لا أدري كيف وصلت أخبارك إليه. تعال معي وسترى أنه شخصية مدهشة أكثر بكثير من مجرد تاجر بسيط، فهو مولع باللغات الأجنبية ويتكلم ثماني منها. ويحب اقتناء المخطوطات من البلدان التي يزورها ويقوم بترجمتها بنفسه. أنا متأكد أنك ستجد موضوعات كثيرة تتحدث فيها معه.

شعر موسى برعشة في مفاصله وتساءل: «تاجر مترجم؟» لعله يعرف شيئاً عن هذا الذي ينتظره منذ أحد عشر عاماً؟ فغير رأيه وقبل الدعوة وكان ذلك مفاجأة كبيرة لأخيه.

ولج موسى إلى الصالون الواسع في قصر آل دو سوزا ودهش على الفور من جمال الفتاة الخارق التي كان داوود يحدثها. كانت ماريا نحيلة الجسم وبدت ملامح وجهها غاية في الدقة وشاحبة شحوباً لا مثيل له في المدينة، وكان لها عينان زرقاوان وشعر أشقر لم ير موسى له نظيراً سوى شعر أمه. كانت ترتدي ثوباً يشد جسمها شداً قد جاوز في تفصيله الحد المألوف في مجتمع طليطلة آنذاك. حدقت به بشدة كما لو أنها أعجبت به وكادت تتعلق به.

سحب داوود أخاه من يده وقال له:

- تعال، سأعرفك على والد ماريا.

واتجها إلى نافذة كان يقف أمامها رجل فارع القامة، نحيل الجسم، ضامر الوجه، صافي العينين، يرتدي ثوباً هندياً من الحرير الأزرق ومنسوجاً من خيوط ذهبية. ولما اقتربا منه صرف بإشارة من يده الرجل الذي كان يتحدث معه وكان يرتدي زياً أسود.

- اسمح لي سيد دو سوزا أن أعرفك على أخي.

أجاب التاجر بصوت خافت يكاد لا يسمع:

- أنا سعيد باستقبالك في بيتي. إني أنتظر فرصة للتعرف عليك منذ زمن طويل، فشهرتك كبيرة جداً.

- شهرتي؟ لا أعلم أننا نتردد على نفس العوالم.

هزّ الآخر كتفيه قائلاً:

- ماذا تعرف عن عالمي؟ قيل لي إنك لاعب منقطع النظير في الشطرنج، وأحتاج إلى خصوم من مستواي، ومن الممكن أن نتواجه هنا يوماً ما؟

- بكل سرور. ولكن الشطرنج عندي هواية وليس احترافاً، تماماً مثل الترجمة بالنسبة لك على حد قول أخي.

- بالفعل!

شاهد داوود ماريا تبتسم في وجه أحد زبائنه ويدعى ابن الخياط، وهو ابن تاجر يهودي اعتنق المسيحية، فترك أخاه بمفرده مع دو سوزا الذي بادر موسى بالسؤال:

- كلمني عن نفسك. بماذا تشغل روحك الآن؟

- بكتاب يلخص فلسفة أرسطو.

لم يبدُ التاجر متأثراً بهذا الجواب. قال بلا مبالاة:

- لا أعرف عن هذا الإغريقي سوى بعض المعلومات باللغة العربية والسريانية، فأنا لم أطلع قط على النصوص الأصلية. وأنت؟

قال موسى في سره إنه بالطبع لن يجد أفضل من هذه الفرصة للكلام عمن أبقاه في طليطلة:

- ولا أنا أيضاً... ولكن قيل لي أن واحداً من أفضل المهتمين بأرسطو عاش هنا منذ زمن طويل، وقد رحل منذ أحد عشر عاماً قبل مجيئي مباشرة، وكان يعمل مثلك مترجماً...

- ماذا كان اسمه؟

- جيرار الكريموني.

ارتعش موسى عندما انتبه أنها المرة الأولى منذ سنوات طويلة يلفظ فيها هذا الاسم.

وبدا الآخر غير مبال بالسؤال وجال ببصره مطولاً خارج النافذة ثم قال بهيئة فاترة:

- الكريموني، ... نعم كنت أعرفه. كان صديقاً لأخي وقد توفي رحمه الله منذ عشر سنين. كان رجلاً صعب المعاشرة شيطانياً كذاباً من الطراز الأول. ادعى عند خروجه من هنا أنه راحل إلى الهند، ومنذ ذلك الوقت بلغني أنه مات في باريس حيث حاول أن يبيع ملك فرنسا مخطوطات سرقها من هنا وهناك. جميل أننا تخلصنا منه! لم يعد عليك البحث عنه إذاً، فقد يشكل ذلك خطراً عليك.

حدق التاجر نظره بموسى ثم أدار له ظهره، ففهم هذا الأخير أنه لن يعلم منه أكثر مما قال، وكأنه أراد توجيه تهديد خفي له أو كأن اسم الكريموني قد فتح جرحاً قديماً عند آل دو سوزا.

مات جيرار الكريموني إذاً؟ ليست طليطلة إذاً سوى طريق مسدود؟ لن يعلم شيئاً عنه مطلق. ولم يعد هناك من داعٍ للبقاء في طليطلة. ثم ذهب وانضم إلى أخيه وكان ينظر إلى ماريا باستمرار. فانتحى به جانباً وقال له:

- لن نبقى طويلاً في هذه المدينة، فلم يعد عندي ما أفعله هنا.

- تكلم عن نفسك فقط، فأنا سأبقى!

- لا تأمل شيئاً من هذه العلاقة فهي لن تثمر.

- لا تحشر نفسك في هذا الأمر.

- علي أن أتدخل في هذا الأمر فأنت أخي وهذه الفتاة مسيحية.

- ولكنني لن أصبح مسيحياً.

- ولكن لا بد أن تطلب منك ذلك إن أنت أعجبتها وإن قبل أبوها بك. وإن أنت فعلت ذلك خسرناك نحن ورفضوا هم الاعتراف بك

واحداً منهم. وإن أنت لم تعتنق المسيحية عيّروك طوال حياتك بأنك يهودي، وقد رأيت بنفسك ماذا حدث لخالنا.

- أنت دائماً ترى الجانب المظلم من الأشياء. أؤكد لك أن آل دو سوزا ليسوا كذلك، سيرضون بي يهودياً وليس وارداً بالنسبة لي أن أتخلى عن هويتي.

- ليست صداقتهم سوى وهم. شعوبهم تحبنا وتقبل بنا ولكن رؤساءهم سوف يكرهوننا كي لا يتذكروا أنهم يحتاجوننا. وأضرب لك مثلاً قريباً منا: ففي برشلونة عمد المطران إلى نشر إعلان في طول المدينة وعرضها يحظر على «المسيحيين، تحت طائلة الطرد من الكنيسة، حضور أفراح وأحزان اليهود أو العرب حتى لا يتلوث من يدين بالمسيحية بمعتقداتهم الخرافية».

- نعم ولكن ليس هنا. فأطباؤنا يطببون مرضاهم، وفلاحونا يبيعون منتجاتهم في أسواقهم. وأنا أسافر وآكل وأنام بصحبة الغرباء. وأعمل مع تجار أحجار كريمة مسيحيين. وأشتري وأبيع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء. والأمراء بحاجة إلينا، فبفضلنا يضمنون الأرباح الطائلة.

- هذا حديث خرافة! فهم يختارون حسب الظروف بين مصادرة جميع أملاكنا دفعة واحدة وبين فرض ضرائب باهظة علينا بصورة منتظمة. هل نسيت ما حصل لنا في قرطبة؟

كنا نعتقد أيضاً أن كل شيء هناك سيكون على ما يرام، وها نحن هنا لاجئون. وإذا كنت تريد أن تجعل من هذه الفتاة عشيقة لك دون أن تعتنق دينها، فستعرض نفسك لشر مستطير،

فعقوبة العلاقة الجنسية بين يهودي ومسيحية هنا كعقوبة العلاقة الجنسية بين الإنسان والحيوان.

- إن هذه العقوبة لا تطبق هنا، قال ابن عزرا بعد أن انضم إليهما. وقد التقيت كثيراً من المسيحيين في البيوت التي أذهب إليها.

- أنت في الواقع لا تحب طليطلة وتعمل أي شيء كي نرحل عنها، قال داوود غاضباً.

- أنت مخطئ. كان بودي أن أعيش طوال حياتي في طليطلة، فهواؤها أفضل من هواء قرطبة، وفي المناخ المعتدل تظهر أجمل اللغات وأعقل الأنظمة السياسية ولكنها تظل أرضاً غريبة عني. ولا نحس أننا في بيوتنا حقاً إلا في ديار العرب، فاللغة العربية والعبرية هما لغة واحدة وبالعربية تعلمت العبرية.

أجاب داوود متعجباً:

- ديار العرب؟ لقد كانت السبب في موت أمي، فأنا أفضل طليطلة على أي مكان آخر. وإذا طلبت مني ماريا البقاء معها هنا إلى الأبد، فسوف أذعن لها مسروراً.

ثم تركهما لينضم إلى الفتاة التي كانت تبدي استياءً. وتمعن ابن عزرا في هيئة موسى ثم انفجر ضاحكاً:

- لا تحزن! فليس الأمر بهذه الخطورة، ولم يكن الحب خطراً في يوم من الأيام.

- لا شيء خطراً في نظرك. وأنت دائماً تهزأ من كل شيء، ولا تأخذ شيئاً على محمل الجد إطلاقاً.

- من لا تعرفه تجهله، فأنا أكثر جدية مما تظن على الرغم من أنني لا أبالي بما تهتم به. أضف إلى ذلك، هل تعلم لماذا أحب شاعري الفارسي؟

- ما علاقته بموضوع حديثنا؟

- أحببته منذ أن قرأت ما كتبه عن نفسه: «على الأرض الملونة يسير إنسان لا مسلم هو ولا مؤمن، لا غني هو ولا فقير، لا يبجل الله ولا يحترم القوانين، لا يؤمن بالحقيقة ولا يؤكد شيئاً مطلقاً. على الأرض الملونة، من يكون هذا الإنسان الرصين الحزين؟»

هذه الجملة هزت كياني فقد اكتشفت نفسي في هذا «الإنسان الرصين الحزين» لأنني أعلم أن ما بعد الموت لا يوجد شيء. ولذلك ما زلت أقرؤه. وعندما قرأت: «أغلق كتابك وكن طليقاً في تفكيرك ونظرتك إلى السماء والأرض»، عزمت أن يكون ذلك شعاري.

كان موسى يعلم أن ابن عزرا على حق، فهو أيضاً لم يكن يؤمن أن غاية الحياة معرفة من سيصحبوننا في الأبدية. بيد أن الموت لم يكن يخيفه، ولعله سيعلم وسيفسر ذات يوم لماذا لا يوجد سبب للخوف من الموت. وحتى ذلك الحين، ولأن الكريموني لم يعد على قيد الحياة، ينبغي عليه الرحيل من جديد إلى أرض أكثر يهودية. كان يفكر في الهجرة إلى مصر واصطحاب أخيه معه. أصبحت الإسكندرية في نظره الآن وجهة أكثر صواباً واحتمالاً، ولعلها تكون لهما ملاذاً مريحاً جداً

قضى الفونس السابع ملك قشتالة نحبه بعد عدة أسابيع. وبكت المدينة بقضها وقضيضها العاهل العظيم الذي أعاد لها القوة والازدهار.

وأقيمت الصلوات في الكنائس وصلّى الأحبار من أجل راحة نفس «ملك الديانات الثلاث»، وأعلن المؤذنون الحداد في صلاة العشاء. وعين ابنه البكر سانشو الثالث خلفاً له ولقّب «بالمرغوب»، ولكنه لم يعمر في السلطة فقد كان مريضاً فمات بعد عدة شهور.

فخلفه على العرش ابنه ألفونس الثامن الملقب «بالنبيل» وكان صغير السن، وقد توفيت أمه دونا بلانكا ابنة السيد كامبيدور ساعة مولده. فرأى السحرة الذين اكتظت بهم المدينة في هذه الوفيات المتتابعة نذير شؤم ونحس.

طالب فرديناند دو ليون، وهو أحد أعمام الملك الصغير، بالوصاية على العرش. وكاد أن يلقى الصغير حتفه من قبل متمردين من النبلاء ولم ينقذه من مخالب الموت سوى سائس خيل مخلص لوالده، فحمله على صهوة جواده إلى سان استبان دو غوميز تاركاً المدينة للوصي الحائر بين عائلتين متخاصمتين وهما آل كاسترو وآل لارا.

حينئذ تعطلت الساعة المائية، وكان الناس منذ عشرات السنين يقصدونها من كل مكان للتأمل،

فقد كانت أعجوبة المدينة. وكانت آلة Al-Zarquallah الخرافية قد توقفت في أعقاب هزة أرضية ناهزت في قوتها قوة الهزة التي حدثت في قرطبة قبل أحد عشر عاماً عند وصول الموحدين. ولم تقع إصابات كثيرة في الأرواح إذ إن مركز الهزة كان بعيداً عن المدينة. ولكن الاهتزازات عطلت سير الآلة الدقيق، فتوقف الماء عن الجريان وامتنعت الصمامات عن الفتح والبحيرات عن تفريغ الماء. وأثار هذا العطب الخوف

في طليطلة، وكأن الزمن قد توقف والمدينة تلفظ أنفاسها الأخيرة. كانت طريقة عمل الساعة معقدة لدرجة أنه لم يتقدم أحد من صانعي الساعات لإصلاحها، فأمر الوصي على العرش أشهرهم، وهو يهودي وقد اشتهر أيضاً أنه خيميائي وساحر، أن يتولى أمرها. استجمع داوود بن لوبيز الطليطلي شجاعته ودخل القفص النحاسي الذي يحوي على دواليب الآلة الثمينة. وحاول أن يفهم كيف يفلح جريان الماء المنتظم بتشغيل المسننات بأحجامها المختلفة وفتح الصمامات الضخمة وإغلاقها من مسافة قريبة، وكيف يتحدد تبعاً لذلك مستوى البحيرات ويتطابق تطابقاً تاماً مع أطوار القمر، وكان أئمة المسلمين يستخدمونها كدليل لتحديد زمن الأعياد.

أعلن الطليطلي عن حاجته إلى وقت طويل لإصلاح الساعة. وتوافد المبعوثون إليه يوماً بعد يوم لتقصي الأخبار، وجاء الوصي بنفسه مرة وكان عائداً من الصيد بالصقور، فاستشاط غضباً وتوعده بالموت.

قام الساعاتي بفك جميع دواليب الآلة وهو يرتجف من الخوف. وكان هناك ستة آلاف ومائتان وخمسون قطعة، ولكنه لم يفهم شيئاً عن كيفية تشغيلها، فحاول تركيبها. وحاول عشرات المرات ولكن الفشل كان حليفه في كل مرة، فقد كان يبقى دائماً معه قطعاً زائدة. وأخيراً اعتقد أنه اهتدى إلى سرها، إذ وجدت كل قطعة من قطعها مكاناً لها، ومع ذلك لم تعمل الساعة مجدداً.

استولى الرعب على الطليطلي، فادعى أن هناك نابضاً ومنفساً مفقودين ومن الصعوبة بمكان صنعهما فطلب إذناً للذهاب إلى

برشلونة من أجل تصنيعهما عند أخ له هناك. وأذن له ضابط بالذهاب إلى برشلونة دون أن يستشير الوصي في ذلك. فأمر هذا الأخير بإعدامه عندما أدرك أن صانع الساعات قد هرب إلى غير رجعة. وقال بعض الكهنة إنه هرب في الحقيقة ومعه سر عمل الساعة ليبيعه إلى ملك فرنسا. وقال آخرون إن الطليطلي لم يتصرف بمفرده بل تآمر معه جميع يهود المدينة بهدف تعطيل حركة الآلة العجيبة إذ إنها كانت الدليل على أن الزمن أصبح الآن ملكاً للمسيحيين. واستنتج بعض المبشرين أن لا أمل في إصلاح اليهود وأن الناس قد نسوا لفترة طويلة جداً أنهم السبب في هلاك المسيح.

وراح الكثير من أبناء الطائفة اليهودية يشعرون بالقلق على أنفسهم على الرغم من أن الوصي على العرش لم يكن حليفاً لهذه الآراء المتطرفة، وكان شغله الشاغل هو الدفاع عن نفسه ضد عائلتين كادت خصومتهما أن تتحول إلى حرب أهلية. وفكر موسى أن عليهما الرحيل إلى الإسكندرية في أقرب وقت عندما جاء إليه ابن عزرا ليقول له إن مسافراً غريباً وصل منذ أسبوعين ونزل في منزل فخم في المدينة القديمة، بالقرب من ساحة زوكودوفار، ويدعى جيرار الكريموني.

وفي ذات الوقت ازدادت حدة الخلافات في قرطبة التي أعدم فيها إليفار قبل أحد عشر عاماً.

وقد وقعت هذه الخلافات بين أفراد عائلة الخليفة والسادة والشيوخ أحفاد الموحدين الأوائل. وعلى الرغم من ذلك تخلى عبد المؤمن عن المدينة لأحد الحكام وذهب لقتال ملوك المسلمين الصغار الذين شقوا عصا الطاعة عنه. فاستعاد إشبيلية وغادرها إلى المغرب وأعاد

تأسيس عاصمته في مراكش وأحكم سيطرته عليها، ثم تابع طريقه واستولى على صطيف وبوجي. وأخذ الكثير من الأسرى وقام بترحيلهم إلى الأندلس. ولم تخف حدة تعصبه، بل على العكس.

وظل الأمير باسم المهدي المستنير يبعث بالمراسيم بانتظام إلى الأقاليم تؤكد على حظر دراسة الفلسفة وتأمر بحرق جميع الكتب ماعدا كتب الدين والطب والحساب وأساسيات الفلك، فكلها ضرورية لوضع التقويم الزمني وتحديد اتجاه القوافل البرية والسفن البحرية.

أصبح مركز الإمبراطورية الواسعة عند سفوح جبال الأطلس وصارت قرطبة مدينة هامشية. وبدأ يلمع في هذه المدينة نجم رجل شاب يدعى ابن رشد. ولم يبدّ عليه الخوف من هؤلاء البربر الجهلة. كان مسلماً عملياً يصلي الصلوات الخمس كل يوم: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء. ولكنه كان منهجياً في تفكيره أكثر منه لاهوتياً وطبيباً أكثر منه مؤمناً.

لم يكن يشعر بأدنى احترام لمن كان يستطيع في أي لحظة أن يسوقه إلى الموت. وكان يفصح عن ذلك دون أن يحتاط أو يحترس.

كان ابن رشد يقول في أحاديثه الخاصة ومعايناته الطبية التي ازدادت عدداً وفي دروسه التي يلقيها في جامعة قرطبة إن الأندلسيين يشكلون أمة مفخرة جديرة بدراسة الفلسفة على غرار الإغريق. وكان يضيف مازحاً أنه «لمن المؤسف أن الله لم يبعث برسالة إلى أرسطو! لما كان احتاج إلى كل هذه الاستعارات. تخيلوا قرآناً بقلم أرسطو موجهاً لتلاميذ مدرسة أثينا!» وكان هذا الكلام يثير

استنكار الحضور ويهين إهانة فظيعة العلماء المحيطين بالسلطة الجديدة والمتمسكين بفرض احترام كلام الرسول حرفياً ومفسره الوحيد المهدي. ومع ذلك وبصورة غامضة لم يتعرض أحد لابن رشد قط. كان البعض يقولون إن مرد ذلك لأنه خطيب مفوه ويحث عن اقتناع على الحرب الجهادية إذا أمره الأمير بذلك. وكان البعض الآخر يؤكدون أن مرد ذلك لكون أبيه هو القاضي الأعلى في المدينة وطبيب الأمير فكان يخفي تقارير الشرطة التي تتحدث عن شططه. وكان آخرون أيضاً يزعمون أن فكره العقلاني ضروري للخليفة الجديد الذي حارب النزعات الروحانية القادمة من الشرق ولا سيما الصوفية. وكان آخرون أيضاً يهمسون سراً أنه يتمتع بحماية رجل ذي نفوذ قوي عند الأمير كان قد طببه وأنقذ حياته ذات مرة.

شعر ابن رشد أنه لا يقهر فزادت جرأته. وكان الكل يتظاهر بعدم الإهانة عندما يشرح أن أرسطو هو المنبع الأصلي للحقيقة، وأن القرآن ليس سوى مقالة علمية ووسيلة لبلوغ الحقيقة ليس إلا، وأن هذه الحقيقة كامنة في العلم، وأن متعة التفكير والتعلم والتأليف أهم من واجب الإيمان. وتجرأ أيضاً فقال إن الزمن أزلي في الماضي وأبدي في المستقبل، وأن الله الجوهر الأكثر بساطة والأقل مادية لم يخلق الكون وإنما عهد بإدارته لممثل عنه أطلق عليه أرسطو اسم المحرك الأول. وكان يقول منافحاً إن فعل التفكير يجعل من الإنسان نداً لله للحظة قصيرة جداً. لدرجة أنه حتى في الدقائق النادرة التي ينجح فيها الإنسان حقاً في التفكير، يحس إحساساً خاطفاً بالحبور الذي يحس به الرحمن بصورة مستديمة. وكان ابن رشد لا يتورع أن يهزأ من

المهدي كبير المفكرين عند الموحدين وتلميذ الغزالي عندما يقول جازماً إن لا وجود لله من دون خلق الكون، فكان (ابن رشد) يرد عليه أن الله ليس بمهندس معماري منفصل عن البناء الذي يبنيه، وإنما هو موسيقي عليه أن يعزف بلا توقف من أجل ديمومة بقاء معزوفته.

فقد ابن رشد بهذا التشبيه بين الله والموسيقي آخر سند له. وانهالت عليه الانتقادات من كل حدب وصوب، ولم تعد تنفع الحماية الغامضة التي كان يقف وراءها في شيء. ففي مساء يوم من أيام الجمعة، بعد مضي اثنتي عشرة سنة على طرد اليهود من قرطبة، ألقى إمام يدعى أبو الحسين ابن جبير خطبة في مسجد قرطبة الكبير وختمها بهجوم كاسح ضد الذي خان كنيته (وتعني الاستقامة) ولوث سمعة أجداده: «لا يخالج الآن ابن رشد أدنى شك من أن مؤلفاته مفسدة للعقول. انظر يا من أخطأت بحق نفسك إن كنت ترى اليوم إنساناً واحداً يقبل أن يكون صديقاً لك! أين أنت من الحقيقة التي كانت تنزع إليها جهودك، يا ابن الحقيقة! كنت عدواً للدين، ولم يكن جدك كذلك. وقف القدر بالمرصاد لكل هؤلاء المزيفين الذين يخلطون الفلسفة بالدين ويدعون إلى الهرطقة. لقد درسوا علم الكلام ولكن صدق من قال: إن الكلام يجلب المصيبة.»

وكان هذا الانتقاد بمثابة فتوى من الأمير، وما عزز ذلك هي الدعوة التي وجهت لابن رشد في اليوم التالي للتوجه على الفور إلى مراكش التي جعل منها عبد المؤمن عاصمة له.

فزع والده فوصّاه قبل رحيله بأفضل طريقة للاعتراف بذنبه. وطمأن الفتى والده بقدر ما استطاع على الرغم من أن الخوف كان في حقيقة الأمر يسري في أوصاله. كان يحس بالندم لاسترساله في الإفصاح عن تفكيره، فمتعة التفكير كانت تجعله أحياناً ينسى ما حل بقرطبة.

فكر أمام تهديد الموت بالهروب من البلاد إلى طليطلة المتسامحة مع المسلمين، ولكن ثلة من الفرسان الطوارق التابعة للحرس الأميري جاءت لاصطحابه ومواكبته حتى إشبيلية ثم العامرية، ومن هناك صعد على ظهر سفينة متجهة إلى سبتة حيث كانت تنتظره فرقة أخرى من أجل مرافقته إلى مراكش. وزال الخوف من نفسه ليسكن مكانه الهدوء والصفاء وفكر بأنه لن يخرج حياً. وتساءل فقط عن طريقة تنفيذ حكم الإعدام فيه.

شعر الفتى بالخوف من جديد عند وصوله أمام أسوار عاصمة الإمبراطورية بعد رحلة أحس بقصرها الشديد. لم تكن مراكش سوى حامية على أطراف الصحراء، وكان كل شيء فيها يوحي أن ساكنيها مستعدون لكل شيء من أجل البقاء في السلطة.

اجتاز باب دخالة، وهو باب المدينة الرئيسي، فجاء ضابط من القصر واستلمه من المرافقة واصطحبه إلى نزل قريب من ساحة Djma el-Fna. وهناك أمره أن يغير ملابسه ويستعد لمقابلة في القصر. وتساءل: من سيواجه في القصر، قاضيه أم جلاده؟

وعندما حل العصر جاء الضابط عينه ليأخذه ويصحبه إلى داخل المبنى الضخم ذي الجدران البرتقالية اللون، وقد كان الأمير قد اتخذ

منه قصراً له. ثم أدخل إلى مكان شبه مظلم وسط فناء فسيح اكتست جدرانه بالآجر المطلي بالميناء، وقيل له أن عبد الملك ابن طفيل القيسي سينتظر مقابلته، فخارت قواه وتيقن من موته. كان ابن طفيل رجلاً سياسياً وكاتباً وطبيباً وفيلسوفاً كما كان الموجه القوي لولي العهد أبي يعقوب يوسف. ووضعت حياة الناس بين يديه ولا سيما حياة الكتاب. كان في البداية يشغل منصب كبير الخدم ويقوم بالإشراف على مقابلات الأمير، ثم أصبح مسؤولاً عن الموظفين في القصر وقائداً للحرس. قرأ الكثير وعمل بجد، وأخيراً صار لاهوتياً وطبيباً، وكان في نظر النظام الجديد الرقيب الأساسي على كل ما يكتب، وبتعبير آخر كان ديكتاتورياً على الأدب والفكر. كان معلوماً في طول الإمبراطورية وعرضها أن من يفكر عكس ما يفكر به ابن طفيل ينتهي على الخازوق. ولم يكن للرجل يد في ارتقاء الأسرة الملكية، ولكنه ابتدع مذهبها وكان يسهر على حسن تطبيقه التطبيق الصحيح. ويعود ابن طفيل بأصوله إلى قبيلة بني قيس الكبيرة التي عاصرت الرسول، وكان يعتبر نفسه تلميذاً للغزالي وابن باجه وابن سينا. وقصارى القول أنه لم يكن يحب الخروج عن جوهر العقيدة.

و حتى أنه قيل أن نصوص المهدي المرشد الذي توفي منذ زمن طويل والذي كان الموحدون يعتبرونه معلمهم كانت في الواقع من تأليفه. فهذا العربي الذي يعمل في خدمة البربر ابتدع من نسج خياله معلماً روحياً لينشأ بعد وفاته عبادة للشخصية حول ضريحه في مراكش، ويقدم للأسرة الملكية الجديدة قاعدة مذهبية صارمة. ولكن أحداً لم يكن على يقين من هذا الأمر.

و سرعان ما عاود الأمل ابن رشد واعتقد أن هذه الأوصاف لا تلقي الضوء على جانب آخر من شخصيته. فقد أرسل أولاً تلميذه وولي العهد إلى إشبيلية ليتعلم مبادئ الفلسفة، ولا سيما أن ابن طفيل كان قد نشر كتاباً فاقت جرأته كل حد، وكان ابن رشد قد قرأه بعد أن استعاره من أبيه. كان هذا الكتاب يحمل عنوان «حي بن يقظان»، وهو يحكي مغامرات طفل عاش تسعاً وأربعين سنة على أثر غرق سفينته في جزيرة مقفرة، وهناك اهتدى بمفرده إلى وجود الله واكتشف متعة الحوار معه. واهتدى إلى طريق الصلوات والتأمل والرضى والدعة والمشاركة دون وساطة من ديانة أو شعائر دينية أو كنيسة. وفيما بعد عثر عليه بحارة أتوا من جزيرة مجاورة مأهولة واصطحبوه معهم. وعندما حدثهم عن طريقته في الإيمان بالله لم يفهموا منه شيئاً. فلكل منهم ديانته الخاصة التي ارتضاها لنفسه، أما فكرته هو عن الله فكانت مفرطة في التجريد والشمولية والطبيعية وتتناقض تناقضاً بيناً مع جميع الكنائس. وعندما يجبر على الصلاة مثل الآخرين يقرر الرجوع إلى جزيرته غير المأهولة، مؤثراً بذلك صحبة الله على صحبة الناس.

فكر ابن رشد أن الحظ قد يسعفه في الدفاع عن قضيته أمام مؤلف هذه الرواية. ولعله يجد وقتاً كافياً ليشرح له أن ما قصده (أو بالأحرى أن ما أساء التعبير عنه) هو أن سوء حظ الإسلام مرده تماماً إلى أن محمداً خاطب الجاهلين، فلو أن الرحمن كلم أفلاطون أو أرسطو أو أحباراً مثل المسيح، لكان كلامه كلاماً آخر؟ ولعله أيضاً يستطيع بنفسه أن يبدأ حواراً مع مستشار الأمير قبل أن تقع الفأس في

الـرأس؟ ولعلـه أخيراً يستطيع مغـادرة هـذا القصـر ورأسـه مـا زال بـين كتفيه؟

رأى ابن رشد في أقصى الغرفة بعد أن اعتادت عيناه على الظلمة الحالكة خيالاً جالساً على أرائك موضوعة على الأرض. وكان الرجل يراقبه وهو جالس أمام ما يشبه الباب. هل هو حارس يا ترى؟ ظل ابن رشد ثابتاً في مكانه مترقباً. وبعد برهة من الزمن قال الرجل بصوت خافت:

- أهـلاً وسـهلاً بك في مدينـة السـأم. آمـل ألا تحقـد علـي لأنـني حرمتك من قرطبة الحلوة. اقترب مني!

أدرك ابـن رشـد أنـه في حـضرة ابـن طفيـل، فخطـا إلى الأمـام محاولاً أن يكتم خوفه. فأوقفه الآخر بحركة من يده وقال:

- ليكن الرحمن في عونك!

رد ابن رشد مضطرباً:

- أنا آسف... فلم أكن أراك.

- نحتاج إلى الوقت والجهد الدؤوب لكي نعبر الظلمات. لا شك عندك في ذلك! هل كانت رحلتك على ما يرام؟

- شكراً لك! لقد سارت هذه الرحلة من دون عراقيل، وأظن أن الفضل يعود إلى نفوذك.

قال الآخر متنهداً:

- نفوذي... كما لو كـان لـي أدنـى تـأثير على مجرى الأمـور! لـو كان لي أقل قدر من النفـوذ لكـان أول قـرار أتخـذه هـو نقـل العاصـمة خارج هذا المكـان القـائظ الـذي ترتـع فيـه الجـرذان وتخلـو منـه المعرفة

وإعادتها إلى قرطبة. ولكننا لسنا هنا للحديث عن الاصطياف والنزهة، فالوقت محسوب علينا. لقد طلبت منك القدوم لأن الكثيرين يشتكون من خطاباتك، ويبدو أنك تدافع عن أفكار أرسطو؟

شعر ابن رشد بعرق بارد يلمع على جبينه، وفهم أن محاكمته تتعلق بالانحراف الفكري ولن يخرج منها سليماً معافى. فجازف بالرد عليه:

- أعتقد مثل بطل كتابك أن هناك أكثر من طريق تقود إلى الله، وأن طريق العقل لا تختلف عن أي طريق أخرى.

- كتابي؟... لم أكن أعلم أنك تقرأ مثل هذه القراءات التافهة. ليس عليك أن تفكر كما تفكر شخصية روائية، وإنما عليك أن تفكر كما يفكر المسلم الصالح. ونحن لا نطلب من فلاسفتنا أكثر من ذلك.

كان شيء ما في صوت محدثه على الرغم من حدة كلامه يوحي لابن رشد أنه ربما لم يضيع كل شيء. فتجرأ وقال:

- لم يمنع كونك مسلماً مثالياً من كتابة قصة إنسان يفضل ديانته الخاصة على ديانة النبي.

- حتى الآن كان جهلك هو سبب جرأتك، ولكن إلحاحك يحولها إلى انتحار. واعلم أيها الفتى أنني بخلاف بطل هذه القصة لا أعيش في جزيرة مقفرة وإنما في وسط الناس، وأن مهمتي أن أرشدهم إلى ما يجب أن يؤمنوا به. أما أنت فتبالغ في التصرف بكلام نبيّنا صلى الله عليه وسلم في قرطبة وليس في وسط المحيط.

- لا أظن أنني قلت شيئاً يهين الأخلاق أو الإيمان. أنا...

- لا أحد يتهمك بذلك. لماذا تدافع عن نفسك في هذا الأمر، فهل تشعر بالخوف؟ ينبغي ألا تخاف أبداً. وإذا كنت خائفاً فمعناه في نظري أنك لا تؤمن بأفكارك، وأنك لا تقول مثل هذه الأشياء إلا ليلمع اسمك في المجتمع، فأنت إذاً مستفزٌ اجتماعي. هل هذا ما تريدني أن أعتقده؟

- كلا... أنا...

شعر ابن رشد بالارتباك، فهو تارة كان يسمع كلام الآخر على أنه تشجيع له وتارة كان يسمعه على أنه تهديد له. نهض الخيال الجالس في أقصى الغرفة.

- أنت لا تحسن الدفاع عن نفسك، فلنر إن كنت ماهراً في الدفاع أمام معلمنا جميعاً.

صفق الرجل الطاعن في السن بيديه فانفتح الباب المجاور له. أدرك ابن رشد أنه كان حتى الآن في قاعة انتظار صالة استقبال كبيرة فوقع نظره في آخرها على ولي العهد يعقوب محاطاً بخدم وثلاثة كلاب. وقد بدا ولي العهد صغيراً في السن بلحيته الدقيقة المستديرة وكان ابن رشد قد شاهده مرات عديدة في قرطبة، وكان أولها منذ أحد عشر عاماً مساء الإعدام الذي لم ينسه ولم يغب عن ذهنه. تملكه الخوف فسحبه ابن طفيل من يده حتى أصبح على بعد بضع خطوات من الأمير. وبعد برهة من الصمت قال ابن طفيل:

- هل وُفّقت في الصيد يا أمير المؤمنين، يا ولياً بين الأولياء؟

أجاب الأمير بصوت غريب مبحوح وهو يداعب كلابه ودون أن ينظر إلى محدثيه:

- لا بـأس، فالـصقور كانـت في صـحة جيـدة، ولكننـا لم نـصادف هنـا سـوى طـير مالـك الحـزين وطـير الحجـل. ولم نـر للأسـف خنازير الأندلس ولا لقالق إشبيلية... وأنت أيها الشاب، بلغني أنك أبو الوليد محمد بن رشد بن أبي القاسم أحمد بن رشد.

- هذا صحيح...

- أبوك رجل محترم، وفقيه كبير وقد سررنا كثيراً بموالاته. وأنت إلى حد ما مثلي وريث عائلة عريقة، فهل تعلم أن صفة الوريث هذه تحتم عليك واجبات؟

- أحاول جهدي أن أكون جديراً بأبي، وأعتقد...

- ليس أنت من عليه أن يعتقد أو يحكم بل نحن. قيل لي إنك طبيب أيضاً؟

- لست سوى ممارس متواضع.

- ليس هذا ما بلغني. التواضع لا يليق بك، فقد بلغني أيضاً أنك فيلسوف؟ ما هو رأي الفلاسفة بالسماء، هل يؤمنون بخلقها أم بأزليتها؟

أحس ابن رشد بالخوف وحاول أن يتفادى السؤال فنفى أن يكون قد اشتغل يوماً ما بالفلسفة، متجاهلاً ما قاله ابن طفيل للأمير. أحس الأمير بخوف الفتى وارتباكه فاستدار نحو ابن طفيل وراح يجيب بنفسه على السؤال الذي طرحه، فشرح ما قال أرسطو وأفلاطون وزينون، وذكر في ذات الوقت الحجج التي رد بها عليهم بعض الفلاسفة المسلمين من أمثال الغزالي. أثبت أنه كان حجة في الثقافة. صعق ابن رشد إذا إن الأمير الذي تولى القضاء على الفلسفة

اليونانية وندد بها بصوت جميع أنصاره المتعصبين، وأحرق جميع الكتب، كان مطلعاً على أرسطو وأفلاطون وزينون! وتابع الأمير حديثه وكأنه يقرأ أفكاره:

- لا تقل لي أنك لا تفهم شيئاً في فلسفة الإغريق، فأنا لن أصدقك. أظن أنك تعرف كل شيء عما يقولونه حول خلق الكون، أليس كذلك؟

هزَّ الفتى رأسه ولم يتجرأ بالإجابة. فتابع الأمير كلامه:

- لا بأس، فأنا لست عاتباً عليك في ذلك. ولكن معرفة هؤلاء الفلاسفة لا تخولك تفسير القرآن. فيجب على المؤمنين أن يطبقوا تعاليم النبي تطبيقاً حرفياً، ولا يحق لأحد أن يتصدى لتفسيرها بعد موت المهدي. وكان كل ذلك بلهجة هادئة وبالصوت المبحوح نفسه الذي كان أبعد ما يكون عن التهديد والوعيد. فتجرأ ابن رشد وقال:

- هلا سمحتم لي أن أذكر بعض الحالات التي يدعونا فيها القرآن دعوة واضحة إلى فعل ذلك؟ وأعتقد أنه يحق لنا في هذه الحالة وفي غياب المهدي الاستعانة بأعمال الفلاسفة لتفسيره.

قال الأمير مستفهماً:

- تريد أن تقول إن الله أراد من الناس أن يبحثوا عنه في مكان آخر غير القرآن؟

ارتعب ابن رشد. في أي شيء زج نفسه لا سيما بعد أن قال إنه لا يفهم شيئاً في الفلسفة؟

- أقصد من أجل فهم القرآن دون مناقضته، إذ لا يمكن للعلوم أن تناقض كلام الله. والحقيقة

لا يمكـن أن تـضاد الحقيقـة، فالعقـل مـن صـنع الله ويفـرض نفسه على الله ذاته.

- برأيك إذاً أن العقل شكل من الحقيقة التي تعلو على الدين؟

اندفاع ابن رشد عرضه للخطر إذ لم يفكر في فداحة الخطأ الذي سيرتكبه عندما أجاب:

- إن الدين تعبير ثانٍ عن الحقيقة، فالنخبة وحدها من الفلاسفة والعلماء تستطيع فهم الشكل الأعلى الذي ليس حدسياً. ووحدهم العلماء على سبيل المثال لا الحصر يستطيعون أن يفهموا أن الشمس أكبر حجماً من الأرض بكثير بينما تبدو أصغر منها بكثير. لذلك عندما يناقض العقل التفسير البسيط للدين فإنه لا يناقض النبي وإنما الأخطاء التي تلفظ بها أحياناً باسمه أناس لا يعرفونه في كماله وروعته. أضف إلى ذلك أن الدين لا يجني شيئاً من الكذب باسمه، فحين تكتشف الكذبة فإن الدين هو الذي يُهجر.

- إن هذا مثير للاهتمام. ولكن أين في النصوص المقدسة ترى إمكانية التفسير الخاطئ؟

- البعض مثلاً يظن أنه يقرأ في الكتب المقدسة (كتبنا وكتب اليهود والمسيحيين) أن الكون قد خلق في لحظة واحدة أو في ثمانية أيام. والحقيقة أن الكون لم يخلق أبداً ولا الزمن الذي لا ينفصل عنه، وإلا لكان هناك «ما قبل الكون» وبالتالي «ما قبل الزمن»، و «ما قبل» هو في حد ذاته زمن. يستحيل إذاً من الناحية المنطقية أن يكون الزمن والكون قد ابتدأا في لحظة محددة.

قال الأمير مبتسماً:

- هـذا مـا يقولـه أرسـطو. أنـت الآن تقـر أنـك قـرأت لـه بينمـا أنكرت منذ قليل معرفتك به! وهل تعلم ماذا رد عليه الغزالي؟ لو أن الكون لم يخلق لما احتاج إلى الله من أجل وجوده، وسيصبح الله في هذه الحالة لا ينفع في شيء.

تفاجأ ابن رشد من معرفة الأمير لهذا النص المغمور للفيلسوف الإسلامي المعادي لفلاسفة الإغريق. فأجاب بلا تفكير:

- يشرفني أن أرى أمير المؤمنين يشاطرني علمه، ولكن حجة الغزالي هذه لا أساس لها من الصحة، لأنه ينبغي على الله أن يفكر في الكون في كل لحظة من أجل وجوده. يزول الكون إذاً عن الوجود إذا توقف الله عن التفكير فيه.

فرد عليه الأمير:

- هذا لا يبرهن البتة على أن الكون أزلي. من الممكن أن الله لم يفكر في الكون منذ البداية، وإنما بدءاً من لحظة ما.

ابتسم ابن رشد وقال:

- فيكـون هنـا أيـضاً «مـا قبـل»، زمـن مـا قبـل الـزمن وهـذا مستحيل.

نظر يعقوب إليه وهز رأسه. وتساءل ابن رشد إن لم يكن قد بالغ كثيراً ولام نفسه لأنه وضع الأمير في موقف متناقض. همس هذا الأخير مطولاً في أذن ابن طفيل الذي امتثل له، ثم راح يداعب كلابه وتظاهر بتجاهله للزائرين الواقفين أمامه.

أشار ابن طفيل لابن رشد أن الوقت قد أزف للرحيل، فخرجا وظهراهما للباب. وفي غرفة الانتظار أعطى المستشار تعليماته إلى أحد

الكتبة الذي قام بتسجيلها، ثم خرج. وانتظرا صامتين. استعاد ابن رشد هدوءه فقد قضي الأمر، وتساءل: ماذا ينتظرني؟ فرقة لتقودني إلى السجن؟ أو إلى الجلاد؟

وبعد بضع دقائق خرجا من القصر. بهره ضوء الشمس القرطبي فلم ير على الفور الخادم الذي مد له يده بكيس من النقود الذهبية ورسن لحصان أسود أسرج إسراجاً رائعاً. دهش ابن رشد وسأل:

- هذا لي أنا؟ لماذا؟

أجاب ابن طفيل:

- أمرني الأمير لتوه أن نذهب إلى تونس لمحاربة النورمانديين الذين دخلوها قادمين من صقلية، ولن نرجع إلى هنا قبل بضعة شهور على الأقل. وقال لي إنه ليس راضياً عن الجوانب المظلمة في فكر أرسطو كما نقلها الذين ترجموا عنه. وأضاف: «ليت هذه الكتب تجد من يلخصها ويضعها في أيدي الناس بعد أن يفهمها فهما مناسباً فيسهل بذلك استيعابها.»

فإذا وجدت في نفسك القوة الكافية للقيام بهذه المهمة، فقم بذلك. وأتمنى من جهتي أن تقوم بهذه المهمة فأنا أعرف خصالك الفكرية ومؤهلاتك الواسعة وميولك الدراسية. دهش ابن رشد كثيراً

فأكثر الأمراء رشداً وأشد مستشاريه تطلباً يطلبان منه أن ينشر أفكار أرسطو؟ أليس هذا فخاً منصوباً له؟

- إن هذا لشرف لي وأنا أشكرك عليه، ولكنك أولى مني للقيام بمثل هذا العمل.

- إن ما يمنعني من ذلك هو تقدمي في العمر وعنايتي التي يجب أن ابذلها فيما هو اهم. اما انت فلديك السن والموهبة الضروريان، ولا يلزمك سوى الوقت، الكثير من الوقت. سوف تحصل على كل الكتب التي تريدها وسوف يتم تعيينك في وظيفة تسمح لك بالكثير من أوقات الفراغ.

- لماذا تمدني بوسائل العمل؟ أنت تقضي وقتك في محاربة الهرطقة، وهاأنت تطلب مني أن أدرس أكبر مهرطق بين المهرطقين وأن أنشر أفكاره، فهل أنت مثل هؤلاء الديكتاتوريين الذين يحبون أن يتذوقوا في السر الملذات التي يحرمونها على شعوبهم؟ أو مثل هؤلاء الأمراء الذين يحبون الموسيقا التي يحكمون عليها بالانحطاط ويحظرونها في أقاليمهم؟

- لك كل حق في أن تطرح علي هذه الأسئلة، ولكن عندي أسباب تمنعني من أن أجيبك.

- أعطني طرف الخيط على الأقل؟

- قد نحتاج مثلاً إلى النظام في الفكر الرسمي لكي نكافح من يهدد بتحويل الإسلام إلى مجرد دين متصوف. فالمتعصبون الأغبياء يفكرون دائماً بالممارسات ويصمون آذانهم عن تطور وتقدم العلم. فإذا انتصروا مات الإسلام، إذ لا توجد قوة سياسية من دون الغنى التجاري، ولا وجود للغنى التجاري من دون الاختراعات التقنية، وبالتالي من دون العلم والعقل.

قال ابن رشد:

- لا أرى إلى أي المتعصبين تلمح؟

- وهل تظن أننا نحن المتعصبون؟ ابتسم ابن طفيل. سوف ترى يوماً ما هو التعصب الحقيقي، ذاك الذي يقتل قبل أن يترك لك وقتاً للتفكير. نحن لا نعترف بالمرتدين الذين يدوسون على إيماننا بأقدامهم، ولكننا نتمنى أن يستخدم الإسلام جميع أسلحة أعدائه بما فيها العلم. نريد أن نخلق دولة قوية مبنية على الإيمان الصرف، عقلانية تستند على التطبيق الوحيد للقرآن دون أن تذعن لسلطة المتعصبين الذين يحرمون التفكير ولا يقبلون بالتجديد.

بدا مستشار الأمير أنه متردد في تفكيره، ثم أطال النظر إلى ابن رشد قبل أن يضيف:

- عليك من أجل فهم صحيح لأرسطو أن تذهب أيضاً إلى المسيحيين.

- إلى المسيحيين؟ انتفض ابن رشد. ولكنهم لا يعرفون أرسطو إلا من خلال تعليقاتنا الخاصة.

- يوجد عندهم أناس مثقفون جدا، وفي الكثير من الأماكن: في باريس وروما والقسطنطينية وناربون وطليطلة القريبة من هنا. وأريدك بالتحديد أن تذهب إلى طليطلة.

- إلى مدينة أعدائنا؟ دهش ابن رشد. ولكن لن أجتاز الحدود، فنحن كما تعلم نخوض حرباً ضدهم.

- سوف أعمل كي يساعدك أحد على اجتياز الحدود وأن تلقى حسن الاستقبال، وعند عودتك لن يعتبرك أحد خائناً.

- ولكن ماذا علي أن أفعل في طليطلة؟

- أن تبحث عن شخص اسمه جيرار الكريموني. باختصار شخص ما. البعض يقولون إنه كل شيء ما عدا كونه إنسان. فعلمه بالفلسفة يفوق كل ما تحتويه مكتبات حوض المتوسط من كتب. استقر هناك منذ أحد عشر عاماً لينقل إلى اللاتينية النصوص الاغريقية التي لا وجود لها إلا باللغة العربية، ويبدو أنه وقع في هوى هذا البلد. أصبح مترجماً فريداً من نوعه، فقد نقل إلى اللاتينية نصوصنا في الرياضيات والفلك والطب والخيمياء وعلوم التنجيم. وهو يعرف أكثر من أي شخص آخر جميع نسخ مؤلفات أرسطو بالعربية ونظريات بطليموس وأرخميدس وإقليدس وجالينوس وابن سينا والفارابي وجابر بن أفلاح الإشبيلي. وبعد ذلك رحل إلى الشرق وعاد بعد عشر سنين من الغربة هناك... أعطه هذا الشيء. ألقى ابن طفيل نظرة حوله فلم ير سوى الحراس الواقفين عند مدخل القصر الرئيسي. أخرج مستشار الأمير من جيبه قطعة ذهبية نقش عليها من جهة وجه جانبي ومن جهة أخرى رجل جالس محاط بإشارات غير مفهومة. ناوله إياها وكانت ثقيلة جداً.

- لا تقل أبداً من أعطاك هذه القطعة. فإذا فعلت حكمت على نفسك بالموت. أظهرها فقط أمام جيرار الكريموني ولكن دون أن يعلم مطلقاً من أين حصلت عليها. وعندها سوف يسلمك كتاباً هو نسخة لمخطوط كتبه أرسطو. وفي يوم قريب سوف أطلب منك أن تعيد لي القطعة وتعطيني هذا المخطوط.

- ولكن جميع كتب أرسطو موجودة في مكتبة قرطبة، ولا يوجد كتاب واحد مجهول.

- اصح من نومك! فليس لدينا سوى عدد قليل من كتبه، وتوجد كتب أخرى له لا نعرفها، وهذا الذي كلمتك عنه أهمها، ولكن أخطرها أيضاً.

- كيف يمكن أن يشكل كتاب لفيلسوف إغريقي توفي منذ أربعة عشر قرناً خطراً؟

توقف ابن طفيل عن الكلام برهة ثم نظر إلى ابن رشد في عينيه مباشرة وهمس قائلاً:

- اسمعني جيداً، إنه أهم كتاب خطّه كائن بشري على مر العصور. وليس عليك الآن أن تعلم عنه أكثر من ذلك. وعندما تقابل الكريموني وتأخذ الكتاب منه ترحل إلى سبتة.

- وماذا سأفعل هناك؟

- ألم أخبرك أن أمير المؤمنين قد عينك كاتماً للسر عند حاكمها؟ إنه منصب مهم لشاب حديث السن مثلك. وسوف يحميك من أعدائك... ولكن لا تغادر هذه المدينة إلا بإذن خطي من الحاكم، يعني دون إذن مني شخصياً، فأنا أريد دائماً أن أعرف أين أنت وأين القطعة الذهبية والمخطوط اللذين ستحرص عليهما كل الحرص. وعندما أعود ذات يوم من الجبهة التي أرحل إليها الآن سوف أطلبهما منك، وسوف تسلمهما لي بالذات وليس لأحد غيري.

وبعد عدة شهور، مع بداية خريف السنة التي يشير إليها المسيحيون بالعدد ١١٦١، وصل ابن رشد إلى طليطلة. وفوجئ مفاجأة كبيرة عندما سارت رحلته من غير عراقيل مروراً بقرطبة ليطمئن والدم الذي لم يتوقع أن يراه عائداً من عاصمة الموحدين على قيد الحياة.

أوهم ابن رشد أباه أن عليه أن يقضي عدة أيام في إشبيلية. وقد واكبه طوال رحلته حرس خاص ليساعده على تفادي مناطق النزاع، ولم يفترق عنه إلا عند مدخل طليطلة.

كانت جميع دوائر الشرطة في قشتالة المسيحية تعلم أن أديباً مسلماً مقرباً من سلطة الموحدين قد وصل لتوه إلى عاصمة الوصي على العرش. وأصيبوا بالدهشة عندما أدركوا أنه كان بمفرده. تركوه يدخل على أمل أن يراقبوه عن كثب. ودهش رجال شرطة قشتالة عندما رأوه متجهاً بسرعة إلى منزل كبير المترجمين جيرار الكريموني، وكان قد عاد لتوه من رحلة طويلة في آسيا. وكان يصحبه في منزله الذي بني على الطراز الباروكي عبيد صغار في السن أتى بهم خصيصاً من سجلماسة، وتلاميذ حمر وشقر أتوا من كل أوروبا، من انجلترا إلى هنغاريا. وكان هذا المنزل يزخر بالكتب والروائع الفنية. تساءل رجال شرطة الوصي على العرش إن كان دخول ابن رشد وجيرار الكريموني إلى المدينة في وقت واحد تقريباً هو محض مصادفة. ومما زاد في حيرتهم هو أنه عندما وصل ابن رشد إلى منزل المترجم التقى بشاب يهودي يصغره بسبعة عشر عاماً، ألا وهو موسى بن ميمون، وكان خارجاً من عند جيرار الكريموني.

وجد موسى المترجم مشغولاً، إذ كان يرتب بعناية كتاباً لا يقدر بثمن في حقيبة، وكان كتاباً عربياً عن الترتيب العشري (sur la numération décimale). كان الرجل ضخم الجثة، أصلع الرأس وقد دهن بالزيت، وكان يضع بتكلف أقمشة مطرزة تستعملها

عادةً النساء لصنع سراويل الحفلات. وكان حوله فتيان ذوو شعور ملونة، فصرفهم بحركة من يده.

تجنب موسى، بدافع الحرص، الكلام فوراً عن خاله والقطعة الذهبية، فبدأ يعرف عن نفسه أنه حبر محب لأرسطو، ولكن الآخر كان حذراً:

- لا علاقة لفكر أرسطو بالتوراة؟ فما الذي يستهويك عند المعلم؟

«المعلم»، كان الكريموني قد أشار إلى أرسطو بالاسم نفسه الذي كان خاله يستخدمه.

أجاب موسى:

- أفكر أحياناً أن أرسطو قد نهل زبدة أفكاره من التوراة، وهذا ما أريد التحقق منه.

شعر الآخر بتهيج أعصابه:

- لم يكن أرسطو يقرأ العبرية، ولم تكتمل التوراة في حياته، فلا يمكن إذاً أن يكون قد استقى منها شيئاً.

- أنا واثق على كل حال أنه اطلع عليها. «فسفر التكوين» أوحى له دون شك بكتابه «الطبيعة» ومن المحتمل أن تكون قصة عربة حزقيال السماوية هي وراء تأليفه لكتاب «ما وراء الطبيعة» لا بل أعاد اكتشاف المغزى الباطني لهذين الكتابين، وكان قد ضاع تحت أنقاض المعبد الأول المهدم. وأخيراً هو الذي أخذ من التوراة فكرة أزلية الكون. وفجأة بدا الكريموني مهتماً فقال:

- إن أرسطو يناقض التوراة في جميع النقاط التي ذكرتها. فأرسطو يقول على سبيل المثال إن الكون لم يخلق أبداً، بينما السورة الأولى من «سفر التكوين» تقول: «في البدء خلق الله السماء والأرض.»

- هذه ليست سوى استعارة، رد موسى الذي أراد أن يذكر له دليلاً لخاله ليرى كيف تكون ردة فعله. عندما يتكلم «سفر التكوين» عن بداية، فمعناه أن الزمن موجود من قبل ما دمنا نقيسه، فالزمن إذاً يسبق الخليقة في الوجود. ومن جهة أخرى تقول التوراة كما يقول أرسطو إن المادة تسبق الخليقة في الوجود.

- من أين تعلمت هذا الشيء؟

- من حكيم بين لي أن الله يقول في السورة الثانية من «سفر التكوين»: «فليكن الضوء»، ويقول أيضاً: «كانت الروح الإلهية تحلق فوق صفحة الماء». قال ذلك قبل أن يتكلم عن خلق الأرض وخلق جميع الأشياء الموجودة في العالم. فكان هناك إذاً مادة وماء وزمن قبل الخليقة. فالكون أزلي إذاً

و «سفر التكوين» كتاب مجازي.

نظر الكريموني إليه في صمت، وتناول كرة عاجية ثقيلة منحوتة وراح يلعب بها دون أن تطرف عيناه عن موسى، ثم وضعها في مكانها وقال:

- بالنسبة لشاب صغير مثلك، فأنت تعرف أشياءً قليل من الطاعنين في السن يعرفونها...

وسكت المترجم وحدق بموسى كما لو كان ينتظر منه شيئاً. عندها تشجع الفتى، فبسط يده بقطعة النقود الذهبية التي كان إليفار

استودعه إياها قبل اثني عشر عاماً إلى الكريموني، فأخذها وراح يتفحصها بإمعان ثم قلبها على قفاها وتحسسها. كان يبدو مشدوهاً:

- إن الذي أعطاك هذه القطعة والذي لا تستطيع أن تقول لي اسمه لم يسنح له الوقت أن يكلمك عنها، أليس كذلك؟ ولا أن يعطيك شيئاً آخر، أليس هذا صحيحاً؟ هل مات من قبل؟ اعلم أنه لو عمّر في حياته لأعطاك كتاباً. هل كلمك عنه؟

- في واقع الأمر، كلمني الرجل الأكثر حكمة في العالم عن مخطوط تستطيع أنت أن تسلمني نسخة عنه.

قال جيرار الكريموني:

- لقد عملت ترجمتين منه، واحدة باللغة العربية والأخرى باللاتينية.

- هناك واحدة منهما لي، أليس كذلك؟

- لم يعد معي ولا ترجمة واحدة منه.

- وكيف ذلك؟

- لقد كان من الخطر والمغامرة أن أحتفظ بهما معي في جميع رحلاتي.

- ماذا فعلت بهما؟

- لقد وضعتهما في مكان أمين. فالنسخة العربية في عهدة حبر يقطن فاس، ويدعى ابن شوحانا. إنها لك.

- لا أستطيع الذهاب إلى فاس، فهذه المدينة تقع في قلب إمبراطورية الموحدين، وهي بالتأكيد أكثر عداءً لليهودية من مدينة قرطبة. والأخرى؟

- الترجمة اللاتينية في ناربون عند حبر آخر اسمه إليعازار إليجا إيهودا ابن طيبون، وهو موسوعة في العلم وقد ترجم كتباً فلسفية وشعرية كثيرة من العربية إلى العبرية.

- سأذهب إذاً إلى ناربون.

- لن تستطيع مقابلة هذا الحبر بسهولة، فهو حذر جداً. لن تصل إليه إلا عن طريق حبر آخر في المدينة. اسأل عن الحبر نحمين، ولكن لا تبين القطعة الذهبية إلا لابن طيبون فسيفهم.

- وأنا أيضاً أحب أن أفهم.

- سيحصل ذلك، ولكن ليس مني، إذ إننا لن نرى بعضنا بعد الآن فأنا مغادر طليطلة بأسرع وقت.

- لماذا؟ فأنت وصلت للتو!

أجاب الآخر بهمس:

- لقد أتى بطرس الكلوني المبجل خصيصاً إلى هنا لكي يشي بي إلى الوصي على العرش.

- وأي جريمة اقترفت؟

- يتهمني أنني أحث المسيحيين على تعلم اللغة العربية لأسباب علمية، وليس من أجل إقناع المهرطقين. هذا أمر مضحك! فأنا لست هنا لكي أغير قناعات الناس وإنما لكي يستطيع كل الناس أن يفهموا... سأشد الرحال إذاً إلى إيطاليا وأنا أخاف أن أموت بالطريقة التي يقتلون بها هنا. ثم أضاف بعد لحظة صمت:

- قل أيضاً لأخيك أن لا يأمل شيئاً من سوزا.

تذكر موسى ما قاله ردريغو دو سوزا من سوء بحق الكريموني الذي كان يظنه ميتاً. وتساءل كيف أن هذا الرجل الذي وصل للتو وادعى عدم معرفته به يعرف كل شيء عن أخيه؟

- أنت تعرف أخي داوود؟

- كلا. أعرف سوزا جيداً. فهو مستعد لأي شيء في سبيل تسهيل تجارته. إنه يدعي المعرفة وحب الفنون والآداب، وهو ليس سوى وحش. وهو يعير أخاك الاهتمام لسبب لا أعرفه، ولكنه ليس سبباً شريفاً بالتأكيد. وابنته دون أدنى شك ليست بأفضل منه. قل لأخيك إنه ينبغي عليه ألا يثق بهما.

عندما خرج موسى التقى شاباً أكبر منه سناً بقليل دون أن يعلم أنه ابن رشد.

وجد ابن رشد جيرار الكريموني منهمكاً في إعداد حقائبه وسط ضجيج تلاميذه. وعندما مد له القاضي الشاب قطعة النقود العائدة لابن طفيل، أصيب المترجم بالدهشة فقال:

- وأنت أيضاً! هذا مستحيل! ليس الاثنان في يوم واحد! من هما المتوفان؟

- إني لا أفهم شيئاً.

- لا أستطيع التحدث في هذا الأمر إلا مع أشخاص معينين قدموا ليأخذوا مكان بعض أصدقائي الميتين. فمن هو المتوفى عندك؟

- ما زلت لا أفهمك... لقد أعطاني هذه القطعة... عفواً أقرضني إياها شخص لم يسمح لي أن ألفظ اسمه. وقد أكد لي أنه يكفي فقط أن أسلمك إياها حتى تسلمني نسخة من كتاب سري.

- تقول إنه أعارك هذه القطعة؟ ولكن هذا غير معقول، فهذا الشخص لا يقرض قطعة بقيمة أربع دراخمات.

- أربع دراخمات؟

- هذا اسم قطعة النقود الذهبية، ألم يخبرك بذلك؟ إنها عملة يونانية نادرة جداً كانت متداولة منذ ستة عشر قرناً. ولم يعد يوجد منها سوى عدد قليل جداً، ولا يمكن التعامل بها إلا في ظروف خاصة جداً ولهدف خاص جداً... احم، أنا لا أحب هذا أبداً. أشعر بالأسف لأنني قبلت منذ البداية... لماذا أنا بالذات؟ كنت في أمان الله! أشعر أن هذا كله سيجلب لي الشؤم. ارحل من هنا! ارحل وكف عن البحث وانس كل هذه القصة ولا تثق بمن أعطاك هذه القطعة. والشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أنه لا يريد لك الخير.

فكر ابن رشد بينه وبين نفسه: هل من الممكن أن يكون ابن طفيل قد نصب له فخاً؟ ثم سأل المترجم:

- لماذا تقول ذلك؟

- إن كل من كان بحوزته هذا الكتاب مات ميتة شنيعة، ولهذا السبب أتلفت نسختي الخاصة بي.

- أتلفتها؟

- نعم أتلفتها، بعد أن عملت منها نسختين كما طلب مني.

- ومن طلب منك أن تعمل نسختين؟

- من يعرفون الجواب على هذا السؤال ليسوا على قيد الحياة.

شعر ابن رشد بالقلق، فالمترجم لن يقول له أكثر مما قال، ولا يمكن له أن يعود بخفي حنين، فهو يحس أن ابن طفيل قد يعاقبه على ذلك.

- هل يمكنك أن تقول لي على الأقل أين هما النسختان؟ أو أن تدلني على واحدة منها؟

- ولماذا أقول لك؟ صحيح أنك بينت لي قطعة النقود ولكن ليس في الظروف المطلوبة. ثم اثنان في يوم واحد، فهناك واحد زائد.

- اثنان؟ ولكن عمن تتكلم؟

كان المترجم يتصبب عرقاً. كان يبدو تائها وينظر حوله نظرة زائغة.

- ليس هذا هو المهم... ولكن لو كنت أنت الرجل الصحيح... لو كان الذي تحدثت معه منذ قليل نصاباً... كلا، لا أستطيع أن أجازف بإخفاء الحلقة المفقودة.

- «الحلقة المفقودة»؟

- ليس في مقدورك الفهم. ليس عليك أن تفهم الآن...

تردد جيرار الكريموني قليلاً ثم تابع:

- إحدى النسختين مكتوبة باللاتينية، وقد أرسلتها لسيد مسيحي من ناربون ويدعى ألبريك دو مونبا.

- أنا لا أستطيع الذهاب إلى هناك. فلن يدعني البرشلونيون ولا أسياد البروفنس ولا الفرنسيون أن أمر.

- أنت مخطئ، فناربون تستقبل المسلمين وهي تتمتع باستقلاليتها.

- لن أنجح في المرور. أين هي النسخة الأخرى؟

- عند أحد أصدقائي في فاس.

- في فاس؟ ولكنني مررت بها مرتين منذ وقت قريب وأنا في طريقي إلى مراكش وأنا عائد منها. كان من الممكن أن أجنب نفسي عناء هذه الرحلة. وماذا يدعى؟

أجاب الآخر بعد تردد:

- ابحث عن تاجر كبير مسلم قادم من باكتريان اسمه الكندي، وهو سوف يرشدك.

- فاس أسهل من ناربون. ولكنني لا أستطيع الذهاب إلى فاس إلا بإذن، وعلي من الآن فصاعداً أن أقيم في سبتة.

- افعل كما تريد، ولكن نصيحتي لك ألا تبوح لمن أرسلك أنك رأيتني ولا سيما أنك تستطيع العثور على نسخة من الكتاب، فسوف يقتلك.

- لماذا؟

- لأنه أرسلك بلا شك لتحضر له المخطوط. وسوف يقتلك حالما تحضر له الكتاب حتى لا يترك شاهداً وراءه.

فكر ابن رشد أن الكريموني قد يكون على صواب. فخطر على باله أن يبقى في طليطلة بدل أن يعود. تابع الكريموني كما لو أنه كان يخمن بماذا يفكر:

- وأنت هنا مهدد أيضاً.

- أنا مهدد؟ ومن يهددني؟

- حدثت محاولة اغتيال الوصي على العرش، وقد فشلت في آخر لحظة. وتم اعتقال من خطط لها، وهو دوق براغانس.

- وما علاقتي أنا بذلك؟

- اعترف الدوق تحت التعذيب بضلوع مسلمين في هذه المحاولة، ولكن لم يفلح أحد بانتزاع أسماء هؤلاء المسلمين منه. وأنت شخصية مشهورة في قرطبة وقد وصلت إلى هنا قبل محاولة الاغتيال مباشرة،

فعملية الربط بين تواجدك هنا والمحاولة الفاشلة ستسترعي انتباه رجال الشرطة مهما بلغوا من الغباء. فارحل قبل أن يسترعي ذلك انتباههم، وسأفعل أنا الشيء نفسه. لا علاقة لي بهذه الأحداث وتكفيني همومي مع الكنيسة حتى أضيف الوصي على العرش إلى قائمة أعدائي.

بينما كان ابن رشد مسافراً إلى سبتة، كان موسى يريد السفر إلى ناربون مدعياً قيام حملات معادية للسامية في المدينة. ولكن والده هو الذي أراد هذه المرة البقاء في طليطلة، فقد كان يشعر أنه لم يعد يقوى على السفر، وسوف يقضي بقية عمره هنا في طليطلة. ولم يكن داوود يطمح لأكثر من ذلك، فقد كان يقول إن ماريا تعبده وأن دو سوزا سوف يحميهما.

وبعد ثلاثة أيام علم موسى برحيل الكريموني الذي هجر منزله وجميع ما يحوي من كنوز. كانت الشرطة تشتبه به باغتيال ردريغو دو سوزا وابنته ماريا اللذين عثر عليهما مخنوقين في حديقة قصرهما. تذكر موسى ما قال له دو سوزا عن الكريموني: احترس منه. ضاع في نظر موسى إلى الأبد سر العلاقة بين المترجم التوسكاني والتاجر الطليطلي. ولم يعد عند موسى من سبب يبقيه في طليطلة، فينبغي عليه أن يولي مدبراً.

عزم ميمون وولداه وسفيرة الرحيل إلى ناربون ليقيموا فيها فترة قصيرة إن أمكن قبل أن يتوجهوا إلى مصر. ولم يكن عبيدهم يرافقونهم في هذه الرحلة فقد تم تحريرهم منذ زمن طويل. وقد قرر ابن عزرا أن يصحبهم في رحلتهم وهو في طريقه إلى روما.

أفلح ابن رشد في الوقت نفسه في مغادرة طليطلة والرحيل إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية والعامرية ومنها ركب السفينة إلى سبتة ليقوم

بمهمات منصبه هناك على أمل الحصول على إذن للذهاب إلى فاس في أقرب وقت. كان كل من موسى وابن رشد يفكران في شيء واحد فقط هو العثور على الكتاب الذي سيرشدهما إلى مفتاح معرفة الله والكون.

بعد شهرين، ومع بداية شتاء سنة ١١٦١، وكان يصادف يوم عيد القديس روفائيل، أقيم سباق للثيران في شوارع طليطلة مثل كل سنة. وكان هذا السباق أيضاً من أجل الاحتفال بمناسبة جلوس المرحوم الفونس السابع القشتالي على العرش، وكان قد توفي منذ ثلاث سنين تاركاً ذكرى لا تمحى.

جرى كل شيء في البداية كما درجت العادة كل سنة. وتتالت طوال فترة العصر عروض الألعاب النارية والحيوانات الخرافية المصنوعة من الكرتون الملون وتماثيل القديسين وتتويج ملك شكلي. وكان الجمهور ينتظر مسروراً أفضل عرض بين هذه العروض كلها، ألا وهو إطلاق الثيران.

ولكن عندما أطلقت الثيران في ساحة زوكودوفار الضخمة، كان هناك شيء مختلف عما درجت العادة عليه كل سنة. فقد أمر الوصي على العرش بتقييد الأعيان المتمردين تقييداً محكماً وهم أحياء في مؤخرة كل حيوان خرافي، محكوم واحد لكل حيوان، وكان مجموعهم سبعة عشر، إذ إن الوصي على العرش أراد أن يظهر بمظهر الكريم فأعدم خمسة من المسلمين وأحد عشر من اليهود المتهمين بضلوعهم في محاولة الاغتيال. وبعد أن داست الثيران الهائجة بحوافرها الأجسام التي وقفت في طريقها، أمر الوصي على العرش بقتلها وإضرام النار في الجثث التي اختلط فيها الآدمي بالبهيمي. وهلل الجمهور لهذا العرض طالباً المزيد.

الفصل الثالث

الأربعاء ٥ آذار ١١٦٢،
أفاعي ناربون
١٧ آذار ٤٩٢٢ - ١٦ ربيع ٥٥٧

أوشكت سفينة ابن رشد على الغرق في مضيق جبل طارق الذي سمي بهذا الاسم لأن طارق ابن زياد كان أول من عبره تحت راية الإسلام. ومضى على مغادرة الفتى ميناء العامرية ست ساعات. وكان تفكيره سارحاً بهرقل خلال هذه الساعات الست من رحلة بحرية محفوفة بالمخاطر.

عرج الفتى على قرطبة قبل ذهابه إلى سبتة وبعد دخوله الخاطف إلى طليطلة. وكان قصده من ذلك هو توديع أبيه دون أن يكشف له شيئاً عن أسباب غيابه. التقى هناك رسول ابن طفيل قادماً من مراكش، فطلب منه إن يسلمه مخطوطاً وقطعة ذهبية. فقرر ابن رشد أن يكذب عليه إذ أن الكريموني كان أخافه بتحذيراته. كما أن الاعتراف بفشل المهمة معناه أنه عديم النفع في نظر ابن طفيل، وبالتالي فإنه يحفر قبره بيديه. فشرح للرسول أن الشخص الذي التقاه

رحل ثانية إلى الشرق ليحضر المخطوط المطلوب بعد أن كاد يلقى حتفه، وسوف يعلمه بعودته بعد سنة على أبعد تقدير، فيرجع إليه بنفسه من أجل المخطوط. أخذ الرسول علماً بذلك وانصرف.

أرجأ الفتى حكم الموت بادعائه أنه سوف يعود يوماً ما إلى طليطلة. وتمنى أن يصدقه ابن طفيل. ولمَ لا يصدقه؟ فالكريموني غادر حقاً طليطلة على الرغم من نيته بعدم الرجوع إليها أبداً بعد جريمة القتل المزدوجة.

لا ريب أن مستشار ولي العهد لم يكن قادراً على التحقق من هذا الأمر. أضف إلى أنه كان مشغولاً بأمور أخرى، فقد رحل مع العاهل وابنه في حملة ضخمة إلى شرق أفريقيا لتحريرها من عصابة من النورماندين نزلوا في إشبيلية. كان ابن طفيل وأسياده يواجهون موقفاً صعباً، فقد أخذ المسيحيون يغيرون على حدود الإمبراطورية، واستمر كثير من المسلمين الصعاليك داخل حدود الإمبراطورية بعصيانهم، وعلى الخصوص الأمير المتشدد مرسي ابن مردانيش، وقد دفعت به جرأته إلى شن مناوشات وصل بها إلى مشارف قرطبة. فكان ينبغي من أجل الدفاع عن المدينة إبقاء قسم من الجنود في الأندلس، وكانوا في أمس الحاجة إليهم عند أبواب تونس.

وكانت أسوأ الإشاعات تنتشر في قرطبة المتأهبة، فكان يقال إن «الملك الذئب» قد نجح في تسريب جواسيسه إلى المدينة، وأنه قد سمم مياه القناة، وأن رجاله قد أغاروا على دوريات الموحدين وعملوا فيهم تقتيلاً واختطفوا النساء من بيوتهم. وكان الهلع يغشى الأحياء الأكثر أمناً.

ومن أجل إعادة الهدوء دعا الحاكم أعيان المدينة إلى اجتماع، ومن بينهم والد ابن رشد. فطلب من ابنه العائد لتوه من طليطلة أن يرافقه. وفي الاجتماع علت أصوات بعض علماء الدين بالقول أن سبب جميع هذه المصائب هو ارتكاب القرطبيين للكثير من الآثام والخطايا في زمن المرابطين وأن توبتهم لم تكن توبة نصوحاً. وتنبؤوا بأن ريحاً صرصراً حارقة ستدمر المدينة قريباً وأن الكارثة ستكون أسوأ من الكارثة التي حلت بقوم عاد ومحتهم من الوجود. انفجر الفتى ابن رشد غاضباً لما سمع هذا الكلام:

- كيف يمكن التفوه بمثل هذا الهراء؟ لا وجود لقوم عاد مطلقاً، فكيف نعرف سبب هلاكه؟ الأفضل لنا أن نستعد لمقاومة هؤلاء الذين يحاصرون مدينتنا، فهم الريح الحقيقية وهم الرعب الحقيقي. هز الحاكم رأسه وأنهى الاجتماع. كان والد ابن رشد يشعر بالقلق لرؤية ولده يكرر انتقاداته اللاذعة لرجال الدين في أول فرصة سنحت له، ونسي أنه كاد يلقى حتفه فيما مضى. كان يتوقع ردة فعل عنيفة من علماء الدين الذين ذهبوا في اليوم التالي إلى الحاكم ليطلعوه على مسودة لابن رشد عثروا عليها في محفوظات جامعة قرطبة التي كان يلقي فيها دروسه. وقد كتب فيها الفيلسوف الشاب ما يلي: «إن كوكب الزهرة إله...» أليس هذا هو الكفر بالله الذي يعاقب عليه بالموت الزؤام؟ في الواقع كانت تلك جملة أخذت من نص إغريقي وقام ابن رشد بنسخها من أجل تحضير درس من دروسه. استدعى الحاكم ابن رشد. ولم يطلب منه تفسيراً لما حدث بل نصحه بمغادرة المدينة في أسرع وقت ليلتحق بوظيفته في سبتة، فقد تلقى أمراً

من ابن طفيل الذي كان يدين له بالكثير. كان ابن طفيل قد عمل حساباً لكل شيء إلا لهذه الورطة التي أوقع ابن رشد نفسه فيها نادماً. كان من الواجب عليه أن يقضي وقتاً أطول مع والده الشيخ ولكنه تركه دون أن يدري إن كان سوف يلتقيه مرة أخرى ومتى يكون هذا اللقاء. كان ينتظر في ميناء العامرية حتى تسكن الريح.

كان كل شيء بين الإسلام والمسيحية يمر عبر جبل طارق، هذا المضيق الذي لا يتجاوز في ضيقه عنق الزجاجة. وعلى مسافة قريبة من الصخرة كانت تقع مدينة العامرية، وهي ميناء أندلسي مواجه للمضيق. وتقول الرواية إن البابا سيلفستر الثاني أدخل الرياضيات العربية إلى أوروبا عبر أبواب هذه المدينة. كانت المدينة تنتقل من حكم المسلمين تارة إلى حكم المسيحيين تارة أخرى. وعادت تحت سيطرة المسلمين بعد عشر سنوات من سيطرة المسيحيين عليها. وكانت ميناءً مهماً وحوضاً لبناء السفن. وكان سكانها خليطاً من الجنويين والقشتاليين واليهود والجزائريين والمسيحيين والمسلمين. وقد رأى فيها ابن رشد سفناً قادمة من سوريا والإسكندرية من أجل شحن المرجان والحرير والنحاس والحديد والسجاد القادم من أراغون وقرطبة وكانوا يقايضون كل ذلك بالصباغ والأغراض الفضية.

قضى ابن رشد أسبوعاً في المدينة (إذ لم يكن على عجلة لمغادرة شبه الجزيرة) قبل أن يرحل على متن قارب يبحر بانتظام بين العامرية وسبتة ويعمل في نقل الحجاج الذاهبين إلى مكة. لماذا اختار خطاً مباشراً بدل من أن يبحر بهدوء قريباً من الساحل حتى جبل طارق؟ هل كان مستعجلاً ليموت ميتة أفضل؟ فها هو مركبه الضعيف يصبح

الآن ألعوبة تتقاذفه الأمواج العملاقة، وهاهم البحارة الثلاثة المنهمكون بإنزال الأشرعة يرسمون إشارة الصليب بأيديهم. تشبث ابن رشد بقوة بأغلى شيء يملكه، ألا وهو حقيبة تحوي كتبه ومخطوطاته الخاصة به، ومنها المخطوط الذي كان قد انتهى للتو من كتابته حول ما وراء الطبيعة لأرسطو، وقطعة ابن طفيل الذهبية. فإن هي أفلتت منه تحت تأثير تمايل السفينة فسوف تحل الكارثة، فحياته كلها معلقة في هذه الحقيبة.

فكر بوسيلة يذهب بها بسرعة كبيرة إلى فاس ليحضر مخطوط أرسطو، ولكن عليه أولاً أن يصل إلى سبتة سليماً معافى. كان الخوف يسري في أوصاله وقَرص البرد ينخر في عظامه.

حاول أن يفكر في شيء آخر ليصرف عنه الخوف. ولكن بأي شيء يفكر؟ بمسألة فلسفية صعبة معقدة؟ ليس بالقرآن، فلم يكن من الضروري بعد الاستعداد للقاء الرسول، وما زال أمامه متسع من الوقت ليتلو صلواته إذا ما زادت قوة العاصفة. كلا لم يحن الوقت بعد! كلا لم يحن الوقت بعد ليصبح فرجة أمام هؤلاء البحارة الكفرة ويبدو مثل المسافرين الآخرين الغارقين في تلاوة سور من القرآن. اتجه بنظره إلى الأفق شرقاً وغرباً فلم ير سوى الأمواج الحالكة تحت الشمس الرمادية. كان أرسطو على صواب عندما قال إن الأرض كروية ولكننا لا نجني شيئاً من تأكيد هذا القول، فالناس لا يقبلون الأفكار التي تعارض حدسهم. وأدرك ابن رشد أنه لن يستطيع التركيز على الاختلافات بين الحقيقة التي تقرها النخبة والحقيقة التي يقبل بها الجهلة، فحاول أن يتذكر وقد أصابه غثيان

مخيف ما تقوله الأسطورة عن المضيق وعن الصخرتين اللتين تحيطان به.

تذكر أن الإغريق تكلموا عنه ولكن أين؟ وراح المسافرون الآخرون يرتلون صلواتهم على متن السفينة. نعم، كان المضيق مرتبطاً بقصة هرقل. ماذا جاء يفعل في هذا المكان؟ لقد كان مولياً الأدبار من الأمازونيات اللاتي جن جنونهن عندما قتل ملكتهن هيبوليت (عمله البطولي التاسع) واتجه نحو جزيرة إريتي ليقتل جيريون الوحش ذا الرؤوس الثلاثة (عمله البطولي العاشر)، فعمد هرقل على وضع صخرتين في كل جهة من المضيق، في سبتة وجبل طارق شاهداً على مروره.

ازدادت حدة العاصفة، وتمزق أحد الأشرعة، ولم يجد البحارة الوقت لإنزاله وسقط فوق رؤوس المسافرين، فصرخوا أنهم على حافة الغرق وأن جهنم مستقرهم إذ إنهم لم يؤدوا مناسك الحج. ومع ذلك كان ميناء سبتة الآن بادياً للعين، فتلك إذاً نهاية عبثية لا مغزى لها. أقفل ابن رشد عينيه من جديد وراح يركز على أعمال هرقل البطولية، على العمل البطولي الحادي عشر وهو الحصول على التفاحات الذهبية من حدائق الهسبيريدات. ولكن كيف حدث ذلك؟ طلب هرقل المساعدة من أطلس والد الهسبيريدات فطلب بدوره منه أن يحمل العالم بينما يذهب لإحضار تفاحات بناته، فقبل هرقل بالعرض. ولما عاد أطلس امتنع عن استلام عمله المعهود في حمل العالم على كتفيه، فلجأ هرقل إلى الحيلة ليعيد إليه حمله الثقيل. ذاك هو العمل البطولي الحادي عشر. والعمل البطولي الثاني عشر؟ تصدع جسم

السفينة من كل الجهات وهي تقترب من مدخل الميناء وسط الضباب. كان هرقل في رحلته إلى الجحيم ليبحث عن سيربير الكلب ذي الرؤوس الثلاثة واختطافه والعودة به. كيف تصرف هرقل؟ تذكر ابن رشد أن هادس إله الموت أذن لهرقل أن يأتي بالحيوان إذا نجح في القبض عليه دون سلاح. فأفلح هرقل وعاد بالوحش إلى ميسين قبل أن يعيده إلى هادس.

شعر ابن رشد فجأة بالطمأنينة فهذا التمرين المعرفي لم يسكن روعه فحسب، بل أدرك أن هذه القصة هي وصف يخبره بمصيره وينبئ له بمستقبله، فعبور المضيق ثم حمل العالم لفترة من الزمن فوق كتفيه ومن ثم الذهاب إلى مملكة الأموات لإحضار الكلب ذي الرؤوس الثلاثة، ألا يعادل هذا مهمته الخاصة في الذهاب لمشورة الأمير وإحضار المخطوط. إن ما كان ينتظره هو النزول إلى العالم السفلي حيث سيعثر على المخطوط ثم الصعود به. اطمأن ابن رشد فهو شبيه بهرقل فليس الموت بحاصده اليوم.

بينما كان القاضي الشاب يخاطر بحياته بين الأندلس والمغرب، كان ميمون وولداه يشدّون رحالهم مهطعين من طليطلة إلى ناربون وبرفقتهم سفيرة وابن عزرا. كانت قطع الماس ميمون قد نفدت ولكن داوود كان قد جنى في طليطلة من المال ما يكفي لتكون الرحلة مريحة.

كان موسى يأمل بالعثور على ترجمة لكتاب «الأبدية المطلقة» عند الحبر المدعو أليعازار إيهودا ابن طيبون الذي كلمه عنه جيرار الكريموني، والرحيل بعد ذلك وفي حوزته المخطوط الرهيب وسره

العجيب إلى الإسكندرية، وهو المكان الوحيد الذي يمكن لليهود أن يعيشوا فيه الآن. أما ميمون فلم يكن يأمل شيئاً من هذا الهروب، ولكنه قبل أن يتبع ابنه البكر الذي ادعى رغبته في الاستقرار بين الطائفة المزدهرة التي يعيش فيها المترجم الكبير ابن طيبون.

وكان عزاء داوود بموت ماريا هو شعوره بقرب ميعاد رحيله إلى الهند بحثاً عن أندر الأحجار الكريمة من زمرد وياقوت، وكان لوبمان حدثه عنها في شبابه في طليطلة.

أما ابن عزرا فقد كان يرى في هذه الرحلة طريقة جديدة لإشباع شبقه بالنساء ونهمه بشرب الخمر والهروب من الممالك التي يضغط فيها الدين بكل ثقله على الأخلاق، فقد سمع أن البروفنس وتوسكانيا مكانان ينعمان بالحرية وتعيش فيهما أجمل نساء العالم. فوجهته إذاً هي إيطاليا حتى يصل إلى روما. دخلوا بعد اجتيازهم مقاطعة برشلونة المتمسكة بأهداب الدين تمسكاً صارماً إلى أراضي مقاطعتي البروفنس و تولوز ثم إلى أراضي الفيكونتيسة إرمانغارد وكانت تحكم ناربون. وكان قطاع الطرق يتمركزون في أرجاء المنطقة، كما كانت تعيش فيها فرق دينية متعادية ومنها جماعات المهرطقين الأوائل التي كانت تطلق على نفسها اسم «فقراء المسيح» وكانت الكنيسة تطلق عليها اسم «المانويين». وكان هؤلاء الناس يرفضون أسس المسيحية فهم يدعون أن الوعود الإنجيلية لم تتحقق بعد صلب المسيح باثني عشر قرناً. وقد شنت كنيسة روما وعلى رأسها برنار دو كليرفو حملة عسكرية ضدهم استهدفت القضاء عليهم قضاءً مبرماً. وبقيت المنطقة أكثر تسامحاً في وجه الديانات التوحيدية

الأخرى. كانت ناربون قبل أربعة قرون مسلمة مثل كاركاسون ونيم وليون وبوردو وبقيت لفترة طويلة تحت تأثير الإسلام. وعندما عادت إلى حظيرة المسيحية من جديد بقي فيها عدد كبير من المسلمين دون أن يغيروا دينهم في بادئ الأمر. وكان حكام البروفنس العائدون من تولوز يحاولون السيطرة عليها وكانوا في أغلب الأحيان يتحالفون مع الموريسكونيين عوضاً عن التحالف مع أحفاد شارل مارتل لدرجة أن أتباع بيرتجيه في برشلونة الطامعين في المدينة كانوا يحاولون الاستيلاء عليها باسم المسيحية الصرفة. وإلى الشمال كانت هناك قوة تطمع في كل بلاد الأوك، وهي فرنسا التي كانت تبني ذاتها، وقد تحالفت في سبيل تحقيق مآربها مع طليطلة ضد برشلونة. وفي الصراع المحتدم بين الإمبراطور فردريك بارباروس الأول والبابا الإسكندر الثالث في تلك السنة، دعا هذا الأخير خمسين من مطارنة ألمانيا وشمال إيطاليا إلى سينودس من أجل طرد الإمبراطور فردريك باربروس الأول من الكنيسة، وكان هنري الثاني الانجليزي و لويس السابع الفرنسي، وكلاهما تزوج بالتتالي ألينور الأكيتانية قد وقفا إلى جانب الإسكندر الثالث. وحذا حذوهم كل من حكام مقاطعة البروفنس وفيكونتيسة ناربون من أجل تجنب المتاعب مع جيرانهم الشماليين الأقوياء.

مضى على المسافرين أربعة أسابيع وهم يمتطون صهوات جيادهم. وكانوا يستريحون في النُزل محاولين ما في وسعهم عدم جذب الانتباه إليهم كثيراً بوساطة آدابهم في تناول الطعام.

خالج موسى مرات عديدة إحساس بأنهم ملاحقون، ولكنه لم يستطع في أي وقت من الأوقات التيقن من ذلك. وعندما أصبحوا قاب

قوسين من ناربون، كان أول شيء بان لهم هو الكنيسة والكنيس. كانوا يعلمون أن هذه الكنيسة وهذا الكنيس ما زالا يعملان وأن المسيحيين واليهود يتعايشون بسلام.

وعندما دخلوا القلعة المحصنة كما كانت جميع دساكر المنطقة في ذلك الوقت، التقوا تجاراً من ليون وقرطبة وبيزنطة و فلمندا وجنوه والبندقية، وجميعهم كانوا يتاجرون بالمنتجات الشرقية. وكان لكل جنسية من الجنسيات، كما هو الحال في جميع موانئ البروفنس، حيها الخاص ومصارفها الخاصة ومجهزو سفنها الخاصون ومستودعاتها الخاصة وحماماتها الخاصة ومدارسها الخاصة وأماكن تعبدها ولهوها الخاصة.

كان الحي اليهودي يقع شمال المدينة وكانت مئات العائلات اليهودية تعيش في هذا الحي من تجارة المرجان وصنع النسيج، وكان آخرون يعيشون من زراعة كروم العنب وإدارة النزل وتجهيز السفن وإقراض المال مقابل الرهن والطب والقصابة وامتهان الدين وتجارة التوابل والماس وبيع الثياب المستعملة. وكانوا يعيشون هنا في حالة ترقب وتيقظ خوفاً من استيلاء برشلونة على المنطقة أو ضم فرنسا لها ضماً نهائياً، وكلاهما عازم على التخلص من الطوائف اليهودية. وكان يدير أمورهم عدد من الشخصيات المرموقة وكان أهمهم قد نصب نفسه «ملكاً لليهود».

قرر المسافرون النزول في نزل قريب لبعض الوقت حتى يتسنى لهم العثور على بيت للإيجار وإلا سيستأنفون الرحيل ولكن إلى أين يذهبون؟ إلى مصر؟ إلى المغرب؟ إلى القسطنطينية؟... هذا ما سوف نراه لاحقاً.

وسرعان ما وقعوا تحت سحر هذه المدينة المختلفة كثيراً عن المدن التي عرفوها حتى الآن. فوتيرة الحياة فيها بطيئة، لكنها وردية بعيدة عن الشطط والمآسي. ولا ترى فيها عنفوان الهوى الأندلسي ولا المتناقضات التي تبعث الحركة في المناظر والشوارع والعادات التي نشؤوا عليها في طفولتهم. ومع ذلك كان يوجد هنا ما يشبه القوة الوديعة وما يذكرك بأثينا وروما وبجميع مدن النور الكبرى في حوض المتوسط.

ساعد موسى والده على الاستقرار في إحدى الغرف الخمس في النزل، وبدأت سفيرة بفك الأمتعة. واندفع داوود «لكي يزور المدينة» على حد قوله. ولكنه في الحقيقة حصل في طليطلة على أسماء التجار الرئيسيين في ناربون وأراد أن يعرف إن كان يستطيع هنا الاستمرار في عقد صفقات تجارية. وجد موسى بيسر كنيس الحبر الذي كلمه عنه جيرار الكريموني والذي يفترض به أن يرشده إلى ابن طيبون. كان الكنيس عبارة عن مبنى متواضع مؤلف من طابقين وله شبابيك خشبية تقيه من الشمس. ولم يكذب عليه الكريموني أيضاً عندما ذكر له شخصاً اسمه نحمين، فهو حقاً من شحم ولحم.

وعلى الرغم من أن موسى قطع عهداً لإليفار ألا يكلم أحداً عنه، إلا أنه استشعر أن خطراً خفياً يثقل كاهله وأنه ينبغي له من الآن فصاعداً إشراك شخص آخر في بحثه، فإذا ما حدث له مكروه استطاع هذا الشخص أن يكمل البحث بدلاً منه. وعلى كل حال كان إليفار قد أذن له بذلك في آخر أمسية إذ قال: «إذا أحسست ذات يوم أنك في خطر انقل هذا السر لشخص آخر تختاره بنفسك.» فهل أزف الوقت؟

حاول موسى أن يجر ابن عزرا إلى الكنيس ولكنه احتج عليه وقال:

- كلا، ليس فوراً إلى الكنيس. استرح قليلاً، ودعني أذهب لشراء الخمر، فنوعيته هنا جيدة.

أما النساء فلم ألمس واحدة منهن منذ أيام.

- أنت إذاً لا تفكر إلا في هذا الشيء؟

- ولكن مطارحة الغرام مفيدة للصحة! وعليك أن تجرب وصفتي الطبية هذه.

- سأفعل ذلك عندما ألتقي المرأة التي ستشاطرني حياتي. وحتى ذلك الحين، ليس هذا الفعل بفعل شريف، وأنا أعتقد مثل أرسطو أن اللمس هو أكثر الحواس مدعاة للخجل.

- ما أغبى إغريقيك هذا! لا يمكنني أن أتخيل عبارة أكثرة غباوة وأبعث على الحزن منها. ولكن اللمس حاسة رائعة! لمس الزهرة أو البشرة أو رق حيوان! أنا على يقين أن أرسطو لم يكن يفكر حقاً بما يكتب. أو أنه يذكرني برهبان الهند... هل أنت متأكد أن رجليه لم تطأ طريق الحرير؟

- هذا ممكن، فخالي كان يعتقد أنه مكث هناك خمس سنوات.

- هناك التقط إذاً هذه الأفكار التي لا معنى لها! إغريقي بوذي، هذه هي الطامة الكبرى!

وإذا كنت لا ترغب في لمس امرأة، ليس بحرام عليك أن تشرب دناً من الخمر، فأنت لست مسلماً. وإذا كان اللمس هو من الحواس

أسوأها، فحاسة الذوق ليست كذلك. فتعال إذاً معي! فلاشيء أفضل من الخمر للدم والمزاج.

- أنت تفرط في الشرب وطعامك غير صحي. إن جسمك يتضخم، وهذه علامة سوء. عليك أن تكثر من أكل السمك وتقلل من أكل اللحم، وإلا تفاقم عندك مرض الربو.

- لا يهمني هذا! ما الفائدة من أن تكون في صحة جيدة دون أن تستمتع بالحياة؟ هلم بنا نشرب ونأكل والكنيس ينتظر. كان معلمي يقول:

«خذ هذه الجرة ولنشرب ونحن نصغي

دونما قلق إلى صمت الكون الرهيب.»

ابتسم موسى وقال له:

- سأعرض عليك صفقة: تأتي معي أولاً إلى الكنيس، وبعدها أذهب معك أينما تشاء.

- أينما أشاء؟ تأتي معي إلى النساء! لا أريد أن أفوت هذه الفرصة. حسناً، سأرافقك إلى الكنيس. كنيس مقابل ماخور، يا لها من مقايضة شريفة!

عندما وصلا أمام الكنيس الذي كان نحمين حبراً فيه، كان موعد قداس العشاء. وكان ما يقارب مئة رجل يستعدون للصلاة. عرفا عن نفسيهما فخُصص لهما مكان الشرف وشكر الحبران اللذان كانا يترأسان القداس السماء إذ إنها جاءت بأخوين من الأندلس إلى هنا. كان موسى يأمل أن يكون نحمين أحدهما وأنه سيرشده إلى ابن طيبون. كانت تراتيل الصلاة تتم وفق شعائر تختلف كثيراً عن شعائر

قرطبة أو طليطلة. صدح ابن عزرا بصوت جميل جداً واغتاظ موسى الذي لم يكن يحب الموسيقا أياً كانت، فصلّى في سره دون أن يسمع شيئاً مما كان يحيط به. ولم ير أن أحد الحبرين قد خرج ثم عاد منهكاً يرافقه رجل طاعن في السن شاحب الوجه لا يستطيع المحافظة على اتزانه في مشيته وقد جلس في أقصى الغرفة خلفهم مباشرة. ولما انتهت الصلاة انتحى بهما الحبران جانباً في غرفة ضيقة تكاد تنهار من ثقل الكتب. وكانت ثلاث شموع تنشر نوراً خفيفاً جداً. وعرف أكبرهما سناً عن نفسه، وكان شاحب الوجه ويطلق لحية رمادية مجعدة، وكانت عيناه جاحظتين وبدت هيئته صارمة:

- أنا الحبر إلياهو نحمين، وهذا هو الحبر إسحاق كمحي من بوسكيار.

تنفس موسى الصعداء، فقد أمسك أخيراً بطرف الخيط. تابع الآخر كلامه:

- أهلاً بكما في ديارنا. يمكنكما الاستقرار هنا والانضمام إلى طائفتنا. نحن فقراء لكننا نحسن استقبال المسافرين وبالأحرى الترحيب باللاجئين. نعلم أنكما قادمان من مكانٍ اليهودية مهددة فيه بالزوال بفعل طول عشرتها للأصنام وعادات وتقاليد حكامكم المسيحيين أو المسلمين.

نحن لا نعيش هنا في بذخ، فليس فينا مستشار لأمير ولا ندرس النصوص الإغريقية، ولكننا على الأقل نعيش إيماننا في كل لحظة من حياتنا وتهديدات فرنسا وبرشلونة لنا تساعدنا على أن نبقى مخلصين لدين آبائنا.

لم يستطع موسى أن يحافظ على رباطة جأشه أمام هذا الهجوم، فأجاب:

- أنا أفهم طريقتك في عيش إيمانك ومعجب بها، ولكن الممارسة في نظري يجب ألا تكون ردة فعل على تهديد، وإنما دليلاً على تفوق العقل على الانفعالات.

قال الذي قدم نفسه على أنه نحمين:

- أرى أنك مؤمن بفضائل العلوم الدنيوية، فاليهودية ليست بحاجة إليها بأي شكل من الأشكال.

يكفي أن ندرس نصوصنا لنتعلم ما ينبغي علينا معرفته، واستنباط كل ما أخفاه الله فيها من معان وصور.

فكر موسى على الفور أنه ربما يكون أمام نصير من أنصار المذهب الجديد القادم من الشمال والذي يطلق عليه البعض اسم القبالة La kabale، وهو مذهب بقي اليهود الشرقيون بعيدين عنه حتى الآن. ويؤمن أنصار هذا المذهب بقدرتهم على بلوغ الله عن طريق ممارسات باطنية ولا سيما دراسة الشجرة الرمزية التي يطلقون عليها اسم شجرة السيفيروت l'Arbre des Sephiroth. كان موسى يكره مثل هذا الانحراف، ولكنه كان حريصاً على ألا يغضب من بمعونته سيصل إلى ابن طيبون. فأجاب باتزان:

- إن المعرفة التي تقول عنها دنيوية هي في الواقع تحررية. وكتبنا لا تقف ضد سعينا لفهم العالم. أنا لا أؤمن لا بالمعجزات ولا بالرسالات التي نزلت على أنبيائنا في المنام. ويجب علينا أن لا ندع مجالاً للشعب ليؤمن أن الله هو رجل شيخ له لحية بيضاء جميلة ويلعب بالحروف.

كما يجب علينا ألاّ نتشاجر فيما بيننا حول طول قامته أو لون عينيه، فالله كائن مجرد فهو ليس على صورة الإنسان ولا الإنسان خلق على صورته. أما فيما يخص حروف أبجديتنا، فهي لا تخفي في جوهرها سوى كلمات. ومن العبث أن نجعلها تقول ما لا تقصده.

تدخل الحبر الآخر الذي عرف عن نفسه على أنه يدعى كمحي وقال بصوت ينم عن عجرفة واحتقار:

- إن ردنا على الفلسفة في نظرنا وفي نظر كبار أحبارنا في فرنسا وألمانيا الذين لم تتأثر أفكارهم بأفكار الإغريق موجود في القَبالة La kabale. وهي تقر للإنسان بثلاثة أفعال خارقة: أولاً قدرته على التأثير بجدارته على الإرادة الإلهية، وثانياً قدرته على التدخل بطرق سرية مختلفة في طبيعة الله نفسها، وأخيراً قدرته على الانتقال بعد الموت من شخص إلى آخر...

انتفض ابن عزرا:

- أنا أعرف التقمص جيداً، فهو لا يضمن لك العودة في كائن بشري فقد تعود على شكل وردة أو قملة.

- دع عنك هذا، قال نحمين لكمحي، فهم لا يعرفون[1] le Sefer ha Bahir فهم إذاً غير قادرين على الفهم. ثم استدار إلى موسى وتابع كلامه:

- ألا تحس أن العالم يزداد روحانية يوماً بعد يوم؟ ليس الله بحاجة إلى العقل، ولا يحتاج إلا إلى المعرفة الخاصة بالطرق التي تهدي

١- كتاب الإشراقات، وهو من كتب اليهود الباطنية. (المترجم)

إليه. أما شكل الله وطوله وعرضه كما تحسبها القبالة معتمدة على النصوص، فهنا يكمن العلم الحقيقي.

تمتم ابن عزرا:

- ليس هؤلاء بأحبار وإنما بسحرة!

قال موسى محاولاً ألا يخرج عن طوره:

- إن كل ما تقوله تكهنات. فعندما يتكلم «سفر التكوين» عن خلق الإنسان على «صورة» الله فهو لا يقصد سوى مشابهته للعقل وليس للشكل. وعندما يتكلم عن «ظهر» الله، فهو يشير إلى ضرورة الإذعان لوصاياه. وعندما يتكلم عن «عينيه»، فهو يعني العناية الإلهية وليس مقلتي العينين. إن الله مفهوم تجريدي، إنه التجريد بامتياز.

احتج نحمين وقال:

- أنت بلا شك لا تفقه شيئاً. نحن نستطيع فعل المعجزات بمجرد تسمية الأشياء، ولكن من أجل ذلك يتطلب علم الله معرفة خاصة. وتتيح هذه المعرفة بعد تعلم طويل صعب اكتشاف الطرق المؤدية إلى الله، ولا علاقة لهذه الطرق بما تسميه «العلم» أو «الفلسفة». وهي تمر بالضبط بالحروف والملائكة ودروب النور.

تجرأ ابن عزرا وسأل:

- ما هي دروب النور هذه؟

أجابه موسى:

- أضغاث أحلام، ليست سوى أضغاث أحلام.

قال كمحي غاضباً:

- لا فائدة من الاستمرار في الحديث، فهما ليسا جديرين بالفهم.

ثم توجه بالكلام إلى موسى:

- إنـي أرى تـأثير أرسـطو المخيـف علـى تفكـيرك. قيـل لـي أنـه يدّرس في قرطبـة حتـى في مدارسـنا الدينيـة. كـان صـحيحاً إذاً أن هـذه المدينة قد أصبحت رمزاً للفساد الفكري.

كـان موسى يبذل ما في وسعه كـي لا يغضبهما، ولكـن كـان من الصعب عليه عدم الـرد عليهمـا. وفي نهايـة المطـاف ربمـا كـان ذلـك اختباراً جديداً موجهاً لجس نبضه، فأجاب

- لا أرى سـوى العقـل قـادراً علـى فعـل المعجـزات. فبفـضل العقـل الذي صنع دفة القيادة أصبحت السفن أسرع من ذي قبل وأكثر أمناً. وبفضل العقـل الـذي اخترع المحـراث أصـبحت الزراعـة تنتج مزيـداً مـن القمح. وبفضل العقل الـذي صنع الفولاذ أصبحت نـصال طليطلـة أكـثر النصال حدة في العالم. وبفضل العقل يتقدم العـالم فالعقل إغريقـي. لقد كان يهودياً، ولكنه اصبح إغريقياً منذ سقوط القدس. يجب أن نعجب بأرسطو وهو أعظم رجل بين الإغريق على أنه أعظم كائن بين البشر.

قال كـمحي متذمراً:

- لا دخـل للعقـل في كـل هـذا. فـالفولاذ يـأتي مـن الخيميـاء، وسرعة السفن متعلقة بـريح البـاري، ولـولا علـم وهـب الحيـاة لمـا كـانت الزراعـة شـيئاً يـذكر. فالحيـاة هـي في القبالـة الـتي يكلمنـا الله بهـا، وليس عند الإغريق الذين أنت شديد الإعجاب بهم على ما يبدو.

همس ابن عزرا قائلاً لموسى:

- نحـن في حضرة أغبياء. لنغـادر هـذا المكـان قبـل أن ينقلـوا لنـا عدوى غبائهما.

همس موسى في أذنيه قائلاً:

- انتظر قليلاً، فأنا بحاجة إليهما.

فكر أن كل هذا ليس سوى نوع من الاستفزاز المحض لكي يعرف من أي طينة هو قبل أن يرشده إلى مكان طيبون. تابع موسى كلامه ببرودة أعصاب وقال للشيخين:

- أنا أعتقد أن الله تكلم من خلال أرسطو كما تكلم من خلال حَزقيال أو إرميَا أو هوشع أو إيليا.

قال نحمين متعجباً:

- كيف يمكن أن تزعم مثل هذا الشيء؟ هل وصلت بك الوقاحة إلى أن تشبه أنبياءنا بمعلم الطغاة هذا؟ عليك أن تقول لأصدقائك في الأندلس أن يعدلوا عن هذا النوع من التفكير، وإلا فإن زكريا كبير أحبار بغداد وعقلنا المفكر سوف يقوم بطردهم جميعاً.

افتر ثغر موسى عن ابتسامة:

- إن يفعل ذلك فليس هذا بالأمر الخطير. فزكريا هذا ليس سوى مجنون يهتم بالمال أكثر من اهتمامه بالنشاطات الدينية.

ضرب كمحي الأرض برجليه وقال:

- تتجرأ وتتهم القاضي الأعلى لمحاكمنا كافة والمرجع الكلي لنا بالجشع؟

تدخل ابن عزرا ضاحكاً:

- ليس جشعاً؟ ولكن من منا ليس كذلك؟ وصديقي على صواب. اسمح لي يا موسى بكلمة. إن هؤلاء الناس الذين يدعون أنهم، «القضاة الأعلون» هم في الواقع نصابون. يطلبون منكم باسم المبادئ

الدينية المزعومة التي ابتدعوها أن تعطوهم أجراً. أنا لست خبيراً، ولكنني متأكد أنه لا توجد كلمة واحدة في التوراة أو في كلام حكماء التلمود تجيز ابتزاز المال من الشعب وتجيز إعطاءه للأحبار أو للمدارس التلمودية في بغداد. أليس ذلك صحيحاً يا موسى؟

- طبعاً هذا صحيح. فأميركم زكريا كما تسمونه والذي تجلونه ليس سوى ابن أبيه، معجب بنفسه منذ طفولته. وهو يظن أنه نسيج وحده وأنه بلغ الكمال بينما هو تعيس لم يبلغ من المعرفة ما بلغه طفل رضيع. فهو لا يعلم إن كان قانوننا متوافقاً مع الفكر الإغريقي لأنه لا يفقه شيئاً في هذا أو ذاك.

قال كمحي بصوت عذب:

- أنتم قادمون من أرض الإسلام، أليس ذلك؟ فأنتم تعلمون أن الوصول إلى الله في نظر المسلمين كما في نظرنا لا يكون بالفلسفة. ويعتقد كبار الفلاسفة المسلمين وأنتم على علم بهم أنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا بالإيمان. وهذا هو أيضاً رأي معلمي الطائفة التي تنتمون إليها ابن غبريول وإيهودا حليفي.

- وهناك مفكرون مسلمون ويهود آخرون في قرطبة يقولون على العكس إن الله يتكلم بالعقل وأنه بالعقل وحده نهتدي إلى الله دون أن يناقضه في شيء، لأنك إذا اكتشفت شيئاً بالعقل، فتكون تلك مشيئة الله. فمثلاً لو أن العقل قدم لي الدليل على أن الكون لم يخلق بفعل إلهي فيجب أن نؤمن بذلك. بينما إذا توصلت إلى الإيمان نفسه بلعبة الكلمات أو الألغاز التي تحبونها فسيكون ذلك نتيجة تنبؤ يستحيل البرهنة عليه.

رد نحمين متعجباً:

- هذا كلام مناف للعقل. أيّ حاجة بنا إلى العلم لكي نعلم أن الله تبارك وتعالى قد أوجد الكون في وقت من الأوقات؟ وإنما تمنى ذلك فلفظ كلمات معينة نستطيع بدورنا إذا أصبحنا علماء استعمالها من أجل خلق الحياة.

أضاف كمحي قائلاً:

- إن ما تقوله هو قول ملحد. وليس بمستغرب أن تكون الطائفة الأندلسية قد دمرت بمشيئة إلهية.

رد موسى عليه:

- لا دخل لله في هذا الفعل، فالإنسان هو الذي يفعل الشر وليس الله.

استجمع ابن عزرا شجاعته وقال:

- هل لي أن أضيف ما قاله أحد الشعراء؟

ابتسم موسى وقال:

- لا تقل لي إنك ستذكر لهم شاعرك الفارسي؟

«سأظل ما دمت حياً ممتطياً جوادي بحثاً عن العلم،

ولو امتنع القدر عن إسراجه.

ولن يكبو قلبي بسبب قدري،

بل سوف يحقق أمنيته دون أن يرجع عنها.»

سأل نحمين:

- لمن هذا القول؟ لإغريقي آخر؟

- كلا. وإنما لواحد من أعظم المفكرين اليهود في الأندلس، هو ابن غبريول.

دهش موسى وقال:

- عجباً! أنت تعرف هذا أيضاً؟

وراح الحبران يتبادلان النظرات. قال نحمين:

- يبدو لي أنكما لم تأتيا إلى هنا من أجل النقاش في القبالة والشعر فقط، أليس كذلك؟

- في الواقع قيل لي أن آتي إليك إذا كنت أريد مقابلة الحبر ابن طيبون. هل هو يقيم في ناربون؟

- في أي شيء تريد رؤيته؟

- أريد أن أكلمه عن بعض الترجمات.

- من الصعب الاقتراب منه، فهو لا يثق بأحد. سوف نرى إن كنا...

عندها سمع صوت ضعيف عند مدخل الغرفة يقول:

- دعك من هذا يانحمين. أظن أنني سأتحدث مع هذا الغلام.

تأفف الحبران ثم ابتعدا بعد أن أشعلا شمعة أخرى. اقترب الشيخ من موسى وابن عزرا. تجاوزت قامته في ارتفاعها الحد المألوف وكان بلا لحية. ولم يسمح نور الغرفة الخفيف برؤية عينيه.

- هل أنت بحاجة إلى خدمات مترجم؟ أحذرك منذ البداية أن خدماتي ليست رخيصة على وجه الخصوص. السعر عندي مرتبط باللغة التي كتبت بها وباللغة التي تريدني أن أنقل إليها. فالسعر من العربية إلى العبرية معقول، والسعر من العربية إلى اللاتينية أغلى، والسعر من العربية إلى اللغات الأخرى أغلى كثيراً، وقس على ذلك. ماذا تريد إذاً؟ من أيّ لغة؟ وإلى أيّ لغة؟

حاول موسى أن يفهم. لا بد أن الآخر قد عرف سبب مجيئه. ولماذا كل هذه الأسئلة؟ لا شك أنه أراد أن يسبر سريرته.

همس ابن عزرا في أذنيه قائلاً:

- أنظر إليه كيف يبدو خائفاً.

سأل الرجل الطويل القامة:

- ماذا تقول؟

أجاب ابن عزرا:

- إنك تمطرنا بالأسئلة ولا تترك لنا وقتاً لكي نجيب.

فابتسم وقال:

- في الواقع، لقد تعلمت هذه العادة السيئة منذ أن كنت أخشى أسئلة أساتذتي المفرطة في الدقة؟ أنا أصغي إليك الآن.

- نحن هنا لأن جيرار الكريموني أرسلني إلى هنا.

همس ابن عزرا قائلاً:

- من يكون هذا الكريموني؟

أجاب ابن طيبون:

- أعرفه، فهو مترجم فطحل.

لم يعد صوته الآن يعبر عن شيء، كانت نبرته جهورية تشوبها لكنة شرقية.

تابع موسى:

- قال لي الكريموني إنك تستطيع مساعدتي في العثور على نص كان قد سلمك ترجمة له. نص نادر الوجود لأرسطو.

التزم الآخر جانب الصمت وهو يحدق إليه بنظره.

تابع موسى كلامه:

- وقال لي أيضاً أن أريك هذا الشيء.

وعلى الفور أخرج موسى من جيبه قطعة خاله الذهبية وناولها لابن طيبون الذي أخذها بخفة.

صعق ابن عزرا من الدهشة:

- من أين لك هذه القطعة، فأنت لم ترني إياها من قبل؟

- أسكت الآن. سأشرح لك ذلك لاحقاً.

تفحص الرجل المسن القطعة مطولاً ثم قال:

- مات الكثير من الناس في سبيل ما تبحث أنت عنه. وينبغي ألا تطلع أحداً على هذا السر. فليخرج من هنا، قال ابن طيبون مشيراً إلى ابن عزرا.

خاطب موسى صديقه قائلاً:

- إنه على حق. انتظرني في الخارج.

نظر ابن عزرا إليه وكأنه لا يصدق أذنيه.

- أرجوك، يا عزرا.

هز الآخر كتفيه ثم خرج. فقال ابن طيبون غاضباً:

- إياك أن تكشف السر. ماذا يعرف؟

- إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق.

- أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً، وإلا فهو رجل ميت.

- أؤكد لك إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق. هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها هذه القطعة الذهبية، وقد أدركت ذلك بنفسك. أين هو المخطوط؟

- لم يعد في حوزتي.

- هذا مستحيل! قضيت خمسة وعشرين يوماً في السفر، قاطعاً الجبال والوديان في البحث عنه لتقول لي إنه لم يعد بحوزتك؟

- هناك ناس فنوا أعمارهم في السفر من أجل تأمين حمايته. وإذا كنت أنا قد تخليت عنه فلكي أحميه من الضياع، فأنا مهدد وأشعر بأنني ملاحق، فلم يكن بالإمكان الاحتفاظ به هنا.

- من الواضح جيداً أن لا أحد يريد أن يحتفظ بهذا المخطوط وكأنه يحرق أصابع صاحبه.

أين هو؟ هل هو بعيد من هنا؟

- على قاب قوسين من هنا. وضعته أمانة بين يدي صديق مسيحي. عجيب أن الكريموني لم يخبرك، فقد كان لديه علم بذلك؟

- وماذا يدعى؟

- ألبيريك دو مونبا. وهو يعمل طبيباً. لا أحد يعرفه هنا فهو يعيش في مونبيليه.

- ينبغي أن أذهب لرؤيته.

- خذ حذرك. فقد لقي عدد منا مصرعهم مؤخراً.

- منا؟ ماذا تقصد بذلك؟

- لا أستطيع أن أشرح لك ذلك الآن. سوف تفهم فيما بعد. وإذا كنت مصراً...

- لقد قطعت عهداً لشخص ما أن أمضي حتى النهاية. سأذهب إذاً لمقابلة المونبا هذا.

- لن تجده، فهو لا يقابل الغرباء. سوف أخبره وأطلب منه أن يتصل بك. ولا تندهش إذا ظهر لك بطريقة خاصة جداً، فهو حذر أيضاً. أين تنوي الذهاب بعد ذلك؟

- إلى الإسكندرية.

- ينبغي لك أن تجد هناك مخبأ أميناً للمخطوط.

- اطمئن، فلن يحدث له شيء وهو معي.

- انتبه من الكبرياء فقد كلف بعضنا غالياً. لن تستطيع العيش إلا في التواضع، فوحده يستطيع التغلب على الكبرياء القاتل، على الكبرياء البشري الرهيب.

أجاب موسى مبتسماً:

- ليس التواضع امتيازي.

تابع ابن طيبون وهو يحدق بموسى:

- إذا أصبحت واحداً منا، ينبغي عليك أن تحترم بعض القواعد الأخلاقية، وهي ليست بالضرورة يهودية، ولكنها قادمة من آسيا.

- من آسيا؟ كيف ذلك؟

- لست بحاجة لأن تعرف.

- وما هي هذه القواعد؟

- الشعور بالندم والزهد والاعتراف بالذنب والبحث عن المغفرة. احفظ ذلك جيداً، فهو مفتاح تقديرنا. وسيكون ذلك عوناً لك في يوم من الأيام. حفظك الله ورافقتك السلامة.

وضع الرجل الطويل القامة يده على رأس موسى ثم عاد إلى الكنيس وخشع في صلاته.

خرج موسى لموافاة ابن عزرا. ومشى الغلامان على رصيف الميناء. قال موسى في سره إن لعبة اقتفاء الأثر مستمرة وقد تعب منها. ولماذا عليه أن يحتاط كثيراً لكي يخفي كتاباً؟

ومن هو الذي كان يلاحقهما؟ بدا الأمر كما لو أن من يملك الكتاب يضطره على الهروب بدلاً من أن يسلمه إياه.

سأله ابن عزرا:

- أنا لا أفهم شيئاً من قصتك. من هو هذا الكريموني؟ ومن أين حصلت على هذه القطعة التي كنت تتكلم عنها؟ أرني إياها من فضلك.

تردد موسى في البداية، ولكن في النهاية ينبغي عليه أن يطلعه على جزء من السر، فلا أحد يعلم ما قد يحدث. ناوله القطعة، فزانها ابن عزرا بيده وتفحصها جيداً ثم قال:

- هل تعلم ما هذا؟

- قطعة ذهبية، أجاب موسى ثم سأل:

- وماذا غير ذلك؟

- هذه عملة نقدية نقش عليها من الأمام وجه جانبي للإسكندر، ونقش عليها من الخلف رسم لزيوس وهو جالس على عرشه. وفي الزاوية هنا نرى رسماً مجرداً لنزال بين أسد وأرنب.

انتفض موسى:

- أين ترى أرنباً وأسداً؟

- هنا، انظر جيداً.

لا حظ موسى لأول مرة أن فوق الإسكندر يوجد بالفعل رسم مجرد يمثل أسداً وأرنباً، فتذكر عبارة أرسطو التي كان خاله يحب الاستشهاد بها: «ليست الأرانب هي من سيفرض القوانين على الأسد.»

تابع ابن عزرا حديثه:

- تسمى هذه القطعة بالرباعية، ولم يعد يوجد منها الكثير هذه الأيام.

- وكيف عرفت أنت كل هذا؟!

- هذه ميزة معاشرة بعض النساء، فهن يساعدنك أن تصير خبيراً بالعملة المسكوكة.

من أين حصلت عليها؟

- لا أستطيع البوح لك بذلك. علي أن أفي بوعد قطعته على نفسي، وأنت شاهدت أشياءً لم يحق لي أن أطلع أحداً عليها.

- تفي بوعد؟ هذا سرك وسوف أنساه، فلا تقلق من هذه الناحية. ولكن عليك أن تفي بالوعد الذي قطعته لي أنا.

- ما هو هذا الوعد؟

- نسيته بسرعة؟ النزل والنساء!

- كيف يمكنك أن تفكر في هذا الآن؟

- أنا لا أفكر إلا في هذا دائماً، والباقي لا قيمة له. هل تعلم ماذا كان يقول عمر الخيام؟

- عدت إليه من جديد! ماذا كان يقول هذا المتشرد؟

«ليس هذا العالم الكبير سوى ذرة من الغبار في الفضاء.

وليس كل علم البشر سوى كلمات.

وليس الآدميون والبهائم وأزهار المناخات السبعة سوى ظلال.

والنتيجة اليتيمة لهذا التأمل السرمدي هو العدم».

- لنذهب إلى نزلنا، وبعد ذلك نرى.

وجدا عند وصولهما رسالة موجهة لموسى، جاء بها حمّال منذ ساعة ولم يعرف عن نفسه. وكانت الرسالة مكتوبة بالعربية على رق ذي نوعية عالية الجودة.

قال موسى لصديقه:

- كيف يمكن ذلك؟ لا أحد يعلم أنني هنا ما عدا الأحبار، ولكنهم لا يكتبون لي بالعربية.

أجاب ابن عزرا:

- افتح الرسالة، فهي حتماً رسالة غرامية.

يفتح موسى الرسالة ويتعرف على الفور على الكتابة نفسها منذ ثلاث عشرة سنة، والنص نفسه تقريباً والتوقيع نفسه:

«ليست هذه المدينة لك، وعليك أن تغادرها في أسرع وقت. من أجل خير ذويك وخير قومك وخير البشرية، كفّ عن السؤال عما جئت تبحث عنه. كفّ فليس له وجود».

«اليقظانون».

استعاد موسى في ذاكرته رحيلهم من طليطلة وشعوره أنه ملاحق ومهدد. ولكن من كان يستطيع أن يراقبه دون أن يظهر للعيان؟ ولماذا هذه التهديدات التي لم ينفذ منها شيء؟

هل القصد منها إخافته؟ ولأي غرض؟ ومن هو الذي ليس في صالحه أن يعثر على المخطوط الشهير؟ أخرج من جيبه القطعة الذهبية الثقيلة وقبض عليها بقوة براحة يده لكي يقنع نفسه أن حديثه مع خاله لم يكن حلماً من الأحلام. كلا لن يتراجع فهو قد عرف أن أشياء كثيرة جوهرية كان يبحث عنها منذ زمن طويل وكان وعد بها.

صعد موسى إلى غرفته في ساعة متأخرة من الليل بعد تناول طعام العشاء مع سفيرة وميمون وداوود

مسبباً اليأس لابن عزرا. كان يشعر بالتعب ويحتاج إلى التفكير. وما أن اندس تحت الغطاء حتى أحس بألم فظيع في ذراعه. كانت أفعى قد لدغته. صرخ ورأى الحيوان الزاحف ينسل من تحت باب الغرفة. واندفع ابن عزرا إلى الغرفة عندما سمع صراخه. أشار له ابن موسى إلى أثر اللدغة ثم أغمي عليه. ووصل صاحب النزل مضطرباً، ثم علا صوته بالسب والشتم. وطلب ابن عزرا ألا يخبر أحد ميمون وداود وسفيرة حتى لا يصابوا بالذعر. وحاول أن يخرج السم بمص ذراع صديقه لكنه لم يفلح.

بعد دقيقتين جاء إلى ابن عزرا زبون من النزل، وكان رجلاً قصير القامة قد امتلأ شحماً ولحماً وكانت عيناه تلمعان خبثاً. وعرّف عن نفسه أنه يدعى جوفروا ويعمل طبيباً. لم يكن يتكلم العربية وإنما كان يتكلم العبرية بلكنة لم يحسن ابن عزرا التعرف عليها. هل كان أحد يريد الاستعانة بخدماته؟

شعر ابن عزرا بصورة فطرية أن هذا الرجل لا يوحي بالثقة، ولكنه لم يكن يملك خياراً فأدخله إلى غرفة موسى. فحص الطبيب

الذراع التي انتفخت بسرعة، ثم ذهب إلى غرفته وأحضر حقيبتين ثقيلتين مصنوعتين من الجلد بمهارة كبيرة. وأخرج من إحداهما قارورتين وجعل موسى يستنشق منهما، فاستفاق من غيبوبته في الحال.

ظن موسى أنه ميت عندما رأى رجلاً غريباً منحنياً فوقه وهو يبتسم. قال:

- هل سأموت. قل لي الحقيقة فأنا طبيب.

أجاب الطبيب مازحاً:

- ذات يوم بالتأكيد. أقول دائماً لمرضاي إن الملاك لا يستطيع أن يشفع للإنسان أكثر من ثلاث مرات. يشفى في المرة الأولى والثانية والثالثة، ولكن بعد ذلك يقضي نحبه.

قال ابن عزرا متذمراً

- ليس هذا وقت المزاح، فهل ستنقذ حياته.

همس الطبيب قائلاً وهو يستدير نحو موسى:

ما زلت لا أعلم حتى الآن. اصغ جيداً أيها الفتى، سوف تحس بشلل طفيف في الساقين ثم في الحوض وبعدها في الرئتين والقلب وأخيراً في المخ. سوف تموت خلال ساعتين، وربما أستطيع أن أنقذك من الموت ولكن بشرط أن تبقى هادئاً. الأمر المهم هو أن نعرف اسم الأفعى التي لدغتك.

قال موسى بصعوبة:

- أنا لا أفقه شيئاً في الأفاعي. رأيت فقط ومضاً أسود ورأساً أحمر، وأحسست بالبرد في ساقي.

- هذه ملاحظة قوية وهي كافية بالنسبة لي.

ابتسم الطبيب وذهب إلى إحدى الحقيبتين وأخرج منها قارورة وصب منها مقداراً كبيراً في كأس وناولها لموسى قائلاً:

- اشرب! على المرء أن يحتفظ معه دائماً بصيدلية تحوي أدوية ضد السموم. وهي ستنقذ حياتك. وإذا لم تنسها فسوف تنقذ حياة كثيرين غيرك.

حاول ابن عزرا التدخل:

- لا تشرب هذا الشيء، فهو سيقضي عليك. أنا متأكد أنه ليس طبيباً.

قاطعه الطبيب قائلاً:

- اخرس أنت! ستكون المسؤول عن موته إذا لم يشرب هذه الكأس خلال عشر ثوانٍ.

نظر إلى موسى وهو يتجرع الشراب وكان طعمه مراً كالعلقم، ثم واصل كلامه مع ابن عزرا:

- من الأفضل لك أن تعتني بنفسك. ألم يخبرك أحد أنك مصاب بمرض الربو؟

- أعلم ذلك منذ وقت طويل. وكيف عرفت أنت؟

- من لون بؤبؤ عينيك. عليك أن تعالج نفسك.

- حاولت مرات كثيرة لكنني لم أستفد شيئاً.

- كفّ عن هذا الهراء. هناك دواء واحد: قلل من مجامعة النساء وقلل من شرب الخمر، وتناول رئة القنفذ.

قال موسى الذي كان يشعر بضيق نفسه:

- تعب لساني وأنا أردد على مسامعه الكلام نفسه.

- لا أعلم ما هو أمقت شيء في وصفتك. عندما أسمع ذلك، اشعر آن المرض صديق عزيز. ولكن حري بك أن تداوي صديقي، فهو المريض وليس أنا.

استدار الطبيب إلى موسى وقال:

- هل تشعر بتحسن؟

- كلا، فالشلل في تقدم.

صرخ ابن عزرا:

- دواؤك لا يساوي شيئاً.

- ليس الشراب وحده هو الذي سيشفيك، وإنما الحديث أيضاً. فالمريض يشفى بشكل أفضل عندما يتكلم ويفكر. لنستمر إذاً في الحديث، فهذا سوف يكون مفيداً وناجعاً لك. بماذا فكرت عند اقتراب الأجل المحتوم؟ أنك كنت ستصعد إلى الجنة؟

لم يفهم موسى لماذا عليه وهو مشرف على الموت أن يخوض في حديث باللغة العبرية مع طبيب مسيحي. وكان يحس في الوقت نفسه أن دماغه هو العضو الوحيد الذي كان يعمل في جسمه المتجمد. كان ينبغي المحافظة عليه وهو يعمل مهما كان الثمن.

أجاب:

- كلا، أنا لا أؤمن بالجنة. إنها من ابتداع رجال دينك.

- حسن جداً. هذا موضوع شائق للنقاش. لنتابع فيه.

- على الرغم من أنني أحترم وأقدر دينك، فأنا أعتبركم وثنيين.

تعتبرنا وثنيين؟ على رسلك. اشرح لي فهذا سيساعد الترياق على الصعود إلى الدماغ.

ثم النزول إلى القلب والأحشاء.

شعر موسى بالخدر يجتاح جسمه، فبذل جهداً مضنياً لكي يتكلم:

- هناك ثلاثة آلهة في دينكم. اثنان منهما الآب والابن، وهما على صورة الله.

- التثليث ليس سوى تعبير مجازي، ويوجد الكثير من التعابير المجازية في التوراة والقرآن، أليس كذلك؟

- بالطبع! ولكنها تعابير بريئة، بينما أنتم تؤمنون حقاً أن الله تجلى في صورة بشرية.

- أرى أن دماغك يعمل من أحسن إلى أحسن. تابع، فهذا يسرع في شفائك. يسوع في نظرك إذاً نصّاب.

- إنه رسول، وليس نبياً وليس المسيح، بل يهودي عظيم. ومعظم الذين تبعوه فعلوا ذلك مخلصين. وتبعه آخرون لأنهم رأوا الشعائر الجديدة أقل ثقلاً. واعتنق آخرون أيضاً المسيحية بدافع الجبن لكي يقفوا في صف الرومان المنتصرين.

- ولكن الرومان هم الذين عذبوا المسيحيين الأوائل.

شعر موسى للحظة قصيرة أن الضغط خف عن صدره.

قال مصححاً:

- كلا، هذا حدث فيما بعد. ففي البداية تعاون المسيحيون مع روما ضد اليهود المقاومين للاحتلال، ثم اتهمونا بمقتل يسوع ليبرؤوا روما التي أصبحوا عبيداً لها.

أجاب الطبيب الذي بدا أنه متشبث بالحديث بجفاء:

- احترس! إنك تتجاوز الحدود، فلو أن أحد المطارنة يسمع هذا القول، فسوف يأمر بحرقك. وعندها لا ينفع الترياق.

شعر ابن عزرا بالقلق: من يكون هذا الرجل الذي قدم نفسه على أنه طبيب ويتوعد كأنه رجل من الشرطة؟ هل جاء ليسبر أسباب وجودهما هنا؟ وإذا لم يكن بريئاً من قصة لدغة الأفعى؟

صار موسى يتنفس بصورة أفضل. أجاب:

- أعتقد أن المسيحية ديانة مقبولة. كان معلمنا راشي من تروا، وقد عاش سعيداً في فرنسا منذ مئة سنة، يعتبر المسيحية والإسلام ديانتين توحيديتين ويقول: «هذه الأمم التي نفينا إليها نحن شعب إسرائيل تقر بالخليقة من العدم والعبور وأمور أخرى أساسية. ويخصون بعبادتهم الله فاطر السماء والأرض.» ولكنني أعتقد أيضاً أن جميع الديانات سيتوجب عليها مواجهة الحقيقة وأن بقاءها مرهون بمطابقتها لما يأتي العلم به. وأنتم أيها المسيحيون، سوف تدركون ذات يوم أن عليكم أن تختاروا بين المذهب والحقيقة. وإذا لم تعدوا أنفسكم لذلك، سوف تقوم الكنيسة بطرد وحرق كل من يدعي أن الأرض كروية وأن الكون لم يخلق في ثمانية أيام.

ابتسم الطبيب:

- تشعر بتحسن، أليس كذلك؟ نعم حالتك أفضل. أنت على حق، فالكثير من رجال ديننا يعتقدون أنه يجب علينا ألاّ نتعمق في فهم الطريقة التي حقق الخالق بها المعجزات. وأنا أعتقد على

العكس أنه علينا أن نفهم الطبيعة، وأن نجري التجارب أكثر من مرة لكي نستنتج منها القوانين التي تتحكم بالواقع، عوضاً عن القيام بالرياضيات والنظريات المجردة. وسترى أن مفهوم التجربة المكررة سيفرض نفسه في النهاية وسيبرهن ذات يوم أنه مفهوم خصب جداً وسوف يساعدنا على الخروج من الظلمة أكثر مما يفعل العقل البحت. ولكنني أحذر من الكلام في ذلك. اليوم يحكم بالإعدام لأقل من ذلك بكثير. الشلل يرجع القهقرى، أليس كذلك؟ ستفكر عما قريب أن الحياة تستحق أن تعاش، وأن السعادة والشقاء لا وجود لهما، وأنه ينبغي ألا نفرح وألا نحزن لذلك، إذ إنهما لا يكبران إلا في مخيلتنا ويمران مر السحاب. هذا ما تشعر به الآن، أليس كذلك؟

- تماماً! كيف تستطيع وصف ذلك هذا الوصف؟

- سوف تتعلم أننا في لغة الطب نسمي هذا «بالصفاء». وما أن يستعيده المريض حتى ينحسر تأثير المرض عليه. في الواقع، إن السبب الجوهري للمرض هو الخوف من المرض نفسه، والخشية المفرطة من الموت.

نظر إلى موسى بعمق ثم قال له:

- وأنت أيضاً طبيب، أليس كذلك؟

تساءل ابن عزرا كيف عرف ذلك.

سأل موسى:

- كيف عرفت ذلك؟

- ولكن أنت قلت لي ذلك منذ قليل، رد مبتسماً. وكان هذا أول شيء قلته لي. هل نسيت أنك صرخت في وجهي وقلت: «صارحني بالحقيقة، فأنا طبيب.» أنت طبيب، نعم أم لا؟

- نعم، أنا كذلك. وقد لقنتني للتو درساً لا ينسى. من أي بلد أنت؟

- أنا طبيب متواضع من قرية صغيرة تقع بالقرب من هنا، من مونبيليه، وهي بلدة صغيرة محصنة يتجمع فيها زملاؤنا منذ أربعين عاماً لكي يتعلموا ويعلموا.

وفجأة أدرك ابن عزرا لماذا أخذ حذره منذ وصول الطبيب. تجرأ بالقول:

- أظن أنك لم تتواجد في هذا النزل بمحض المصادفة، أليس كذلك؟ أ متأكد أنت أنك تدعى جوفروا بيلور؟

- أدعى أيضاً ألبيريك دو مونبا.

بدأت الرجفة تسري في كل أعضاء جسم موسى. واضطرب نظره، فقد كان أمامه الطبيب المسيحي الذي قال ابن طيبون عنه منذ ثلاث ساعات إنه الشخص المؤتمن على ترجمة كتاب «الأبدية المطلقة». كيف تواجد هنا؟ ولماذا يحمل اسمين بدلاً من اسم واحد؟ هل سعى إلى تسميمه ليكون لديه باعث للاقتراب منه دون أن يجتذب إليه الأنظار؟

سأل ابن عزرا باتزان:

- أ أنت من أرسل له هذه الأفعى؟

أجاب الطبيب وهو يرتب قاروراته في إحدى حقائبه:

- كان ينبغي علي أن أقترب منك دون أن يعرفني أحد. فالوضع على أخطر ما يكون، ولست راغباً في الموت.

تعجب موسى وقال:

- لم تتصرف بسرية تامة على وجه الخصوص.

- أحياناً ما يبدو للعيان يكون أشد خداعاً، ألا تعلم ذلك؟

- لقد سممتني!

- أرجو المعذرة. ولكنك لم تكن معرضاً لأي خطر.

- هذا ليس ما قلته لي!

- إن عقاقيري لا تخطئ.

وبعد أن انتهى الطبيب من ترتيب جميع قاروراته تابع قائلاً:

- هل لي بأتعابي؟

بدا الذهول على وجه موسى. وقفز ابن عزرا من مكانه وقال:

- ألا تخجل من نفسك؟ تريد أجراً على محاولة اغتيال؟

تدخل موسى وقال:

- دعه يتكلم. ماذا تريد؟

- قطعة من الذهب.

فهم موسى. أخرج القطعة من جيبه وقال مفصحاً:

- أستطيع أن أريك إياها لا أن أعطيك إياها.

أمسك ألبيرك القطعة وتفحصها بدقة متناهية، ثم ثبت نظره على ابن عزرا الذي فهم، فخرج مبتسماً. عندئذ استدار إلى موسى:

- احتفظ بها. هل تتكلم اللاتينية؟

هز الفتى رأسه بالنفي.

- وأنا لا أتكلم العربية. لن تفهم إذاً شيئاً من هذا الكتاب.

- هو معك الآن؟

ابتسم الطبيب وقال:

- لا يمكننا استبعاد أنه يوجد في مكان ما كتاب يكشف سراً خطيراً عن أرسطو. وهذا السر كاف حتى يرسل إلى الموت كل من يشتبه به أنه يعرفه. وإذا أذيع هذا السر فسوف تتهدم الكنائس. قد يكون عندي نسخة منه، ونسخة أخرى عند أحد أصدقائي، وهو حبر يقيم بعيداً من هنا.

- اسمه؟ سأل موسى.

- أنت تعرفه. فاسمه ابن شوحانا في فاس.

في الواقع كان موسى على معرفة به. وهو الاسم الذي تلفظ به الكريموني في طليطلة قبل أسابيع. كيف يعرف هذا الرجل اسم مالك الترجمة الأخرى من كتاب «الأبدية المطلقة»؟

كيف أن البحث عن الترجمة الأولى كان يقوده إلى الترجمة الثانية؟ قال موسى بكثير من الهدوء:

- إذا كنت قد جئت إلى ناربون، فهذا لأن الرحيل إلى فاس ينطوي على الكثير من المخاطر.

هل ستسلمني نسختك؟

تردد الطبيب وقال:

- زال الملك، أليس كذلك؟ ستشعر بدوخة طفيفة. غداً يكون في مقدورك النهوض والمشي. تناول طعاماً خفيفاً في الصباح، ثم وافني

في منزلي. وهذا هو العنوان: سوف أعطيك ما جئت من أجله وستنضم إلينا في أخويتنا.

- «الأخوية»

- سأقول لك البقية غداً.

سلم الطبيب الغامض موسى ورقة كتب عليها عنواناً بالعربية، ثم خرج وهو يجر حقيبتيه الثقيلتين.

دخل ابن عزرا الذي كان ينتظر في الخارج على موسى، وأطلع هذا الأخير صديقه على عنوان دو مونبا. وظل الصديقان صامتين لبرهة، ثم همس ابن عزرا الجالس بجانب سرير صديقه وقال له:

- أنا لا أحب هذا الرجل. لماذا حاول أن يقتلك؟ ولماذا يتكلم بالعبرية؟ ولماذا قال إنه لا يتكلم العربية، بينما يكتب بها؟

- لا أعلم. كانت كل كلمة من كلماته موزونة. كان متردداً كما لو أنه كان يخشى الموت بعد كل جملة يقولها.

- هل تشعر بتحسن؟

أجاب موسى:

- أصبحت على خير ما يرام. لا أستطيع التصديق أنني كنت على شفا حفرة من العدم.

- ولكن الموت في نظرك ليس العدم. الموت في رأيك هو الحالة التي ننتظر فيها البعث، أليس كذلك؟

- لا أؤمن كثيراً بذلك.

- ولكن هذا مذكور في التوراة. ألا تؤمن بما جاء في كتبكم؟ فهي تتكلم عن البعث في كل صفحة.

- ليس تماماً. فتشت فلم أجد سوى نصين يتكلمان عن البعث. وهناك أيضاً رؤية النبي حزقيال حيث نرى عظاماً نخرة تدب فيها الحياة، ولكن ذلك في نظري ليس سوى رواية رمزية للبعث المقبل لدولة إسرائيل. ومن ثم هناك مقطع غامض في كتاب النبي دانيال يتحدث فيه عن موضوع البعث. وأقر أن ذلك ضئيل جداً. والبقية عبارة عن تعليقات. كلا أنا لا أؤمن بذلك حقاً.

- افعل مثلي إذاً. استفد من الحياة Carpe diem. ما المتعة التي كنت ستحس بها لو كنت فارقت الحياة منذ قليل؟ لما كنت أحسست بأيّ متعة أو أي نشوة أو أي امرأة، بل ولا بأي عمل مكتوب، ولكانت حياتك فشلاً ذريعاً.

- لا أظن أنني في هذا العالم لكي أعيش سعيداً وإنما لكي أنقل.

- انقل إذاً الحياة كخطوة أولى. أسرع بالزواج.

- تكلم عن نفسك.

- أنا لست مثلك. أولا من المستحيل أنني لم أهب الحياة لأحد، فسأكون آخر من يعلم. ثانياً أعرف كيف أكون سعيداً بالبحث دائماً عن الإحساسات القوية.

- علينا بالرحيل قريبا.

- بهذه السرعة، تنهد ابن عزرا

- لم يعد لدينا شيء نفعله هنا.

- إذاً، ولا أنا كذلك.

- هل هذا يعني أننا سنفترق؟

- هذا محتمل. ستذهب أنت إلى مصر، أما أنا فليس لي عمل هناك. سأذهب إذاً إلى توسكانيا ثم إلى روما.

نهض ابن عزرا حتى لا يدع الانفعال يستولي عليه. قال موسى وهو ممدد في سريره:

- سأحاول أن أنام الآن، فقد لقيت اليوم كفايتي من المعاناة. تعال غداً إلى غرفتي عندما تكون جاهزاً، فسنذهب معاً لرؤية ألبيريك هذا أو جوفروا، ولا يعرف سوى الشيطان اسمه الحقيقي. ويبدو أن لديه شيئاً وسيسلمني إياه. نم جيداً، فربما عرفت غداً وسيلة تعفيني من حاجتي إلى الراحة بعد اليوم.

وصل الغلامان الشابان مع طلوع الفجر إلى بيت صغير منعزل يقع على الطريق إلى مونبيليه.

وخمّنا أن مصيبة قد وقعت، فقد كان عدد قليل من الناس يسدّون مدخل البيت. وسُمع بكاء وعويل في الداخل، فتسمرا في مكانهما. جاء رجل إليهما وأخبرهما أن ألبيريك قد انتحر بقطع شرايين رقبته أثناء الليل.

نكصا على عقبيهما في صمت. كان ألبيريك قد قال: «الوضع على درجة كبيرة من الخطورة. ولست راغباً بالموت مطلقاً.» ومرة أخرى كان كل شيء يفضي إلى طريق مسدود. كان المخطوط قد ضاع من جديد. واعتقد موسى أن الأشخاص نفسهم الذين يراقبونه قد قتلوا الطبيب. لا شك أن طريقه كان مزروعاً بالموت: إليفار وآل دو سوزا والآن ألبيريك.

ينبغي عليه من الآن فصاعداً أن يدخل إلى قلب مملكة الموحدين في المغرب إذا أراد أن يجرب حظه في الفوز بهذا الكتاب المطموع فيه كثيراً جداً. هل سيلاحقه القتلة إلى هناك؟ ومتى ينفذون ضربتهم؟

عاد موسى إلى المدينة وراح يبحث عن نحمين وكمحي وابن طيبون، فقد اختفى الجميع، وأسوأ ما في الأمر هو أنه لم يكن يبدو أن أحداً يعرفهم.

سار موسى وابن عزرا لفترة طويلة في شوارع المدينة وقد أصيبا بالخبل. كانا يعلمان أن كلا منهما سيسير في اتجاه مختلف عن الآخر. سيحاول موسى الرحيل إلى فاس على الرغم من الخطر.

وسيسافر ابن عزرا إلى إيطاليا، وهي شبه جزيرة فيها الملذات والأطايب.

تبادلا النظرات والابتسامات في صمت، وتعانقا مطولاً ثم افترقا. سوف يعرض كل منهما نفسه لخطر مداهم. وكان كل منهما يظن أنه بذلك يصون ما يظهر على أنه الشيء الجوهري. ولكن هل الشيء الجوهري هو حيث يعيش المرء بشكل أفضل مجازفاً بنسيان ذاته، أم حيث يعيش المرء بشكل أسوأ مجازفاً بالتضحية بذاته؟

سمع موسى وهو يبتعد صديقه يدندن بالأبيات الشعرية لشاعره الأثير، وكان غالباً ما يرددها:

- «على الأرض الملونة يسير إنسان لا مسلم هو ولا مؤمن، لا غني هو ولا فقير، لا يبجّل الله ولا يحترم القوانين، لا يؤمن بالحقيقة

ولا يؤكد شيئاً مطلقاً. على الأرض الملونة، من يكون هذا الإنسان الرصين الحزين؟»

ظن موسى أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة كما لو أن ابن عزرا كان يبكي وينتحب. ولكن كلا، فلم يكن ذلك من عادته.

الفصل الرابع

الثلاثاء ٦ أيلول ١١٦٣م
فضيحة القرويين
٧ تشري ٤٩٢٤ ـ ٥ شوال ٥٥٨

ركب ميمون وولداه وبرفقة سفيرة دوماً السفينة من برشلونة للذهاب إلى المغرب بحراً دون الحاجة لعبور الأندلس من جديد، ووصلوا إلى سبتة من دون مشكلات بعد رحلة بحرية استغرقت أحد عشر يوماً. وكان ابن رشد قد سبقهم إليها بعدة شهور ليصبح كاتماً للسر عند حاكم المدينة.

ترجل القاضي الشاب وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة من السفينة التي تحطم جزء منها وتسرب إليها الماء من كافة جوانبها. لم يكن لديه أدنى فكرة عن مهنته الجديدة. فعندما فرض ابن طفيل عليه هذا الوظيفة لم يخطر بباله أن يسأله عن طبيعتها. كان يدرك فقط أنها ليست وظيفة بلا عمل، فمضيق جبل طارق كان دائماً نقطة عبور للغزوات الإسلامية إلى أوروبا والغزوات المسيحية إلى أفريقيا. كان على إمبراطورية الموحدين إذاً أن تبقي سيطرتها على هذه المدينة سيطرة تامة.

ولا سيما أن الوضع كان ضعيفاً هشاً. ففي الأندلس لم تنجح قوات الموحدين في إخماد تمرد جميع الملوك المسلمين الصعاليك في المنطقة. وفي الخارج بدأ مسيحيو قشتالة والبرتغال بجمع قواتهم. وعلاوة على ذلك، فقد أشيع أن خليفة الموحدين عبد المؤمن عاد مريضاً إلى مراكش بعد طرده للنورمانديين من صقلية خارج تونس، وأن خمسة عشر عاماً من الحكم والمعارك المستمرة من قرطبة إلى ليبيا قد أنهكت قواه. وقيل أيضاً أنه مصاب بمرض لم يحسن أحد من الأطباء تشخيصه، ولكن له علاقة بحبه للحم الطريدة كما قيل. وكان معاونوه الشخصيون ينفرون من تصور ابنه جالساً على العرش في يوم من الأيام، فبدؤوا من الآن التآمر عليه. كان ابن طفيل طبيباً ومستودع أسرار ولي العهد. وقد استخدم ذكاءه ودهاءه ليبعد خصومه الأشد خطراً. وأصبح الآن واحداً من أقوى رجال الخليفة وحتى أنه عين أميناً للديوان؛ أي وزيراً للمال. أراد الخليفة بتعيينه المستشار الأول لابنه في هذا المنصب أن يمهد لخلافته.

عندما التحق ابن رشد بوظيفته لم يكن يفكر إلا في مغادرة سبتة بأسرع وقت والتوجه إلى مدينة فاس حيث يتمحور من الآن فصاعداً جوهر الحياة الفكرية للإمبراطورية حول جامع القرويين، وحيث سيعثر كما قال له الكريموني على الكندي، ذاك التاجر شديد الغنى الذي سيسلمه الكتاب الذي كلمه عنه ابن طفيل قبل ثلاثة شهور مضيفاً أنه «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور». سيقرؤه ابن رشد بكل تأكيد قبل احتمال تسليمه إلى مستشار الأمير. كان ابن رشد موزعاً بين رغبته في النجاح في عمله

بامتهان الوظيفة الفكرية التي أسندها له ولي العهد وبين رغبته في البحث عن المخطوط السري، أي رحيله نحو الجنوب. لقد وضعه ابن طفيل بصورة غريبة أمام ثلاثة خيارات متناقضة: عليه أولاً تسلم الوظيفة، وعليه ثانياً الحصول على إذن للرحيل إلى فاس دون أن يكشف عن سبب هذه الرحلة، وعليه أخيراً عدم البوح لابن طفيل أن الكريموني قد كلمه عن الكندي. وسوف يحتفظ لنفسه بالمخطوط ما دام على الأقل لم يمط اللثام عن نوايا الوزير. ما السبب في ذلك؟ إنه حتى الآن مجرد حدس.

أصيب القائد العسكري ابن موسوي الذي أصبح حاكماً على سبتة بعد اشتراكه من بعيد في حملة الخليفة إلى تونس بالذعر عندما سمع أن أمين الديوان فرض عليه شاباً غريباً ليعمل عنده كاتماً للسر. واقتنع أن المهمة الوحيدة لهذا القادم الجديد هي التحقيق في أمور مدينته المالية، وربما أيضاً التحضير لمحاكمته، وفكر بينه وبين نفسه إن كان الخليفة على علم بصفقاته مع تجار العامرية. لكنه طمأن نفسه إذ لو كان الأمر كما يظن لكان الآن جالساً على الخازوق. ومن أجل أن يبعد كاتم سره الجديد عن التدخل في علاقاته مع سماسرة الميناء، أظهر له الملاطفة والمجاملة وعمل ما في وسعه ليجنبه القيام بأيّ وظيفة مدعياً أنها لا تليق بمقامه.

لم يكن يبدو على الفيلسوف الشاب أنه يعارض تخفيف جدول عمله اليومي، وأعفاه الحاكم حتى من إثبات حضوره كل يوم في قصره ورفض الاستعانة بمهاراته في الطب لتطبيب نفسه من آلامه المعوية. أليس ابن رشد هنا من أجل تسميمه؟ وخصص له بيتاً جميلاً

يطل على البحر وألحق بخدمته ستة من الخدم منهم ثلاث جاريات مسيحيات في غاية الجمال جاءت بهن سفينة قراصنة من عرض بحر نابولي وبعد ذلك نسيه.

طلب ابن رشد مرات عديدة من الحاكم الإذن للذهاب إلى فاس «بقصد الزيارة»، ولم تكن تبعد سوى أربعة أيام على ظهر الحصان. وكان يقابل الإذن في كل مرة بالرفض. وكان الحاكم يتعلل بالنزاع الدائر الذي يجعل من السفر غير آمن. ولكن الحقيقة هي أن مبعوثاً للوزير طلب منه أن يسهر على صحة كاتم سره ويهتم بها وأن يقتفي أثره دائماً. فليس وارداً أن يدعه يعرض نفسه للخطر على طرقات حظها من الأمن قليل.

استحسن ابن رشد الوضع كما كان يجب أن يكون. فوجوده هنا كان لكي يكتب نزولا عند رغبة ولي العهد عرضاً للفكر العلمي متوافقاً مع المذهب الإسلامي، ويبرهن فيه ببساطة عن الترابط المنطقي بين أرسطو والقرآن. وكان يبدو أن لا شيء يستهويه أكثر من ذلك منذ حداثة سنه: كيف يكون المرء مسلماً صالحاً دون أن يعزل نفسه عن أفضل ما يملكه الغرب؟ إذ إنه كان على يقين أن الغرب المسلم كان متفوقاً في آن واحد على الغرب المسيحي وعلى الشرق العربي ويجب أن يصبح مركز الإسلام. وأضف إلى ذلك أنه كانت تروق له فكرة التدليل على أن الحقيقة لا تكمن بمجملها في القرآن العربي، وإنما تكمن أيضاً عند فيلسوف إغريقي.

تمنى كثيرون ممن يترددون على أفضل مجلس في المدينة الاستفادة من علم الطبيب أو من حديث الفيلسوف. ودُهش ابن رشد أن

في سبتة شخصيات رائعة. فكان يقضي بعضاً من وقته في صحبة أبي بكر ابن زهر، وهو أحد أطباء الخليفة. ووجد في مكتبته ترجمات باللغة العربية لنصوص من تأليف أرسطو في نسخ نادرة الوجود وثمينة جداً، وكانت ترجمت عن السريانية من قبل مترجمين لا مثيل لهم من يهود سبأ والناصرة. وتمكن أن يقارن بين هذه النصوص المختلفة وبين تفاسير لمؤلفين إغريق مثل الإسكندر الأفروديزي وثميستيوس ونيقولا الدمشقي، يحملها في حقائبه. واكتشف أعمال ابن سينا، فأعجب به كطبيب ورفضه كفيلسوف لأنه يبالغ في عدائه للعقل. وندد على وجه الخصوص بكتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالي. وأعجب بأعمال ابن باجه فهو مثله يضع العقل في أعلى المراتب. وأخذ يفكر في الموضوعات نفسها التي كان موسى ابن ميمون يجادل فيها مع أبيه ومع الحبرين في ناربون في وقت واحد، مثل هل من الممكن البحث عن الحقيقة حول خلق الكون دون الوقوع في التجديف؟ وهل يمكن أن نفكر بالله بصورة عقلانية؟ وهل من الممكن التوفيق إلى حد ما بين فلسفة القدماء التي لا تؤمن بإله واحد وبين الديانة التي تقر بمعبود واحد؟ وهل حرية الإنسان متناقضة مع القدرة الربانية؟ وهل الروح فانية كما الخيال؟ ولماذا يترك الله الإنسان يفعل الشر إن كان يعرف أنه سيقترفه؟ وهل ينبغي تعليم الحقيقة لعامة الشعب أم تعليمها للنخبة؟

وقام رداً على الغزالي بكتابة دفاع عن الفلسفة بعنوان «تهافت التهافت»، وهو كتاب عنيف موجه لتفسير أهمية العقل والبرهنة على عدم مناقضته للإيمان وضرورته حتى يقدم للفكر الديني معنى ويواجه به التقدم التقني.

لم يكن ابن رشد رجلاً يشغل نفسه في التفكير الفلسفي ليل نهار. ولم يكن يكتفي بالكتابة، فكان منذ نعومة أظفاره يحلم أن يكون مثل جده وأكثر من أبيه رجلاً ذا سلطة. كان يطمح أن يكون فاعلاً مؤثراً ومصلحاً يترك بصماته على عادات وتقاليد عصره.

أوشك ابن رشد على الانتهاء من كتابة ثلاث مخطوطات في غضون ثلاثة أشهر. ثم بدأ يشعر بالضجر. فلم تعد النزهات على رصيف الميناء، والسهرات بصحبة الأصدقاء، والليالي مع جواريه، ومشاهدة القوارب في الخليج والعواصف في البحر، والمحادثة مع البحارة والمسافرين ورسامي المصورات والمهاجرين تدخل الرضى إلى قلبه.

أعطاه والده وعداً بالمجيء لزيارته، ولكنه لم يكن يحب مغادرة قرطبة بسبب تقدمه في السن.

كان على الفتى أن يقر بحكم الواقع: لقد أصبح سجيناً هنا، محكوماً بأوقات الفراغ الإجبارية. لذلك قرر أن يأخذ على محمل الجد الوظيفة التي أسندها له ابن طفيل وطالب بمكتب في مقر الإدارة المركزية في المدينة.

تردد الحاكم ولكنه أذعن مثيراً دهشته الكبيرة. وانهالت عليه المشكلات كما كان يتوقع لأن ابن رشد كان يخطط في رأسه لمشروع بسيط واضح هو أن يجعل من سبتة مدينة نموذجية، مدينة فاضلة تشبه كثيراً ما كانت عليه قرطبة قبل قدوم الحكام الجدد، ما عدا الفساد. أراد أن ينشئ مجتمعاً يديره علمانيون ويمتلك فيه كل واحد منهم وسائل تحقيق طموحاته وإظهار مواهبه، ويقوم فيه الأغنياء

بتمويل مشاريع الفقراء، مع اعتراف واضح لجميع الأديان بحق الوجود إلى جانب الإسلام، الإسلام السيد الحامي بلا شك الذي يفرض الضرائب الباهظة على الآخرين ولكن دون أن يكره الكافرين على اعتناق الإسلام ودون أن ينشر الرعب في كنائس المسيحيين وكنائس اليهود ودون أن يجبر من يريد منهم الرحيل على التنازل عن أملاكه. وباختصار إسلام ليس غايته النهائية هي السيطرة على العالم وإنما تنويره.

عندما لم يعد أحد في أقاليم الإمبراطورية يحسن تفسير المنشورات المتناقضة التي يصدرها الأمير المشرف على الموت، يصبح مجرد أن يطلب رجل مقرب من وزير المال احترام أماكن عبادة المذاهب الأخرى هو في نظر الحاكم العقل بعينه. وكان الحاكم يستعد لأن يصدر مرسوماً بهذا الشأن (في نفس اليوم الذي وصلت فيه عائلة ميمون إلى المدينة) عندما تقدم إليه ابن رشد بمشروع مرسوم جديد، وكان يبدو أن هذا المشروع هو موضع عزه وافتخاره. امتقع وجه الحاكم عند قراءته له:

«نحن حاكم هذه المدينة نطالب باسم الله العلي القدير وباسم عبده الأول الخليفة عبد المؤمن الاعتراف بكفاءة النساء على نحو أفضل وأحسن، والتوقف عن اعتبارهن وسيلة لإنجاب الأطفال فقط. فليس من العدل وليس من القرآن في شيء أن يخدمن أزواجهن ثم يصرفن بعد ذلك للإنجاب والرضاعة والتربية. وإنه لمن المعيب والمضر بمصلحة الإمبراطورية أن يعاملن على أنهن نبات، فلا يصرن عندئذ سوى حملاً على الرجال وعبئاً على الدولة فيفقرنها. لذلك أصدر أمري

بأن تحظى جميع النساء في هذه المدينة بالتربية نفسها التي يحظى بها الرجال في جميع المجالات، وأولها في مجال الفلسفة. ويأخذ المال الذي يصرف على هذه التربية من ضريبة تفرض على ثروة القضاة، وهي أكبر ثروة في المدينة.»

شكر الحاكم المشدوه معاونه الشاب شكراً جزيلاً على مبادرته لإدراكه «مدى جرأتها دون شك، ومدى ضرورتها وتوقيتها أيضا.»، ووعده أن يفكر بها فبعث برسالة مطولة لابن طفيل في مراكش مع فصيلة من الفرسان من حرسه الخاص وأمرهم أن يأتوا بالرد. وجاء الرد بعد أقل من ثلاثة أسابيع، فقد أقيل ابن رشد من مهمات وظيفته المتواضعة جداً عليه، وعين معلماً للفلسفة في جامعة القرويين في فاس. وبما أن هذه الوظيفة لم تكن مأجورة، فقد استمر في قبض أجره من الحاكم.

عندما قرأ ابن رشد الفقرتين من هذه الرسالة التي حرص الحاكم أن يطلعه عليها لم يصدق عينيه، فهو لن يغادر هذه المدينة المغمورة فحسب، بل سيكون في إمكانه أخيراً التوجه إلى فاس والتدريس - وهو القرطبي - في «القرويين» وهي أعظم جامعة إسلامية تم تأسيسها قبل ثلاثة قرون، وسيصبح في مقدوره أن يبحث عن هذا الكندي الذي حدثه عنه جيرار الكريموني دون أن يلفت إليه أنظار ابن طفيل.

بعد ذلك شعر بالقلق، فكيف تم تعيينه في منصب مرموق ومرغوب لا يصل إليه سوى علماء اللاهوت المحنّكين؟ ولكي يدرس فيها كما هي الحال في كافة الجامعات الإسلامية (وكانت الوحيدة

الناشطة في العالم في تلك الحقبة) كان يحتاج إلى إجازة ولا يمكن الحصول عليها إلا من أستاذ جامعي بعد مرحلة طويلة من الدراسة. والمدينة الوحيدة التي تعلم فيها هي قرطبة، ولم يتعلم قط في فاس. فهو إذاً لا يملك سوى إجازة تدريس في الأندلس، ناهيك عن أن الجامعتين لم تكونا متحابتين، فقرطبة تأسست بعد فاس بخمسين سنة، وهذا كان سبب كره فاس لها إلى جانب أسباب أخرى. ولم يكن أحد في جامعة القرويين يستطيع أن يمنحه الإجازة دون أن يكون قد رآه وسمعه. من رآه؟ وأين؟ أثناء إلقاء دروسه في قرطبة؟ وكيف استحق هذا الامتياز؟ ولماذا هو بالذات؟

في الأسبوع التالي غادر ابن رشد سبتة برفقة جواريه التي قدمها الحاكم له هدية عن طيبة خاطر بعد حفل كبير أقامه على شرفه. ولم يستطع ابن موسوي إخفاء سروره بترقية مساعده الشاب، ولم يكفّ عن الشرح لمن حوله بأن التقارير التي أرسلها إلى البلاط في مراكش كان لها مساهمة في هذه الترقية.

رافق الحاكم ابن رشد إلى خارج المدينة وكأنه يريد أن يتأكد من رحيله. ثم قال له: إذا كان ابن رشد الذي يعرف كثيراً من الناس ممن يتبوؤون مناصب عالية يتمنى أن يتذكره، فإن الحاكم يطمع أن ينهي حياته المهنية في مراكش حيث تعيش عائلته وحيث مقر الأمير.

كان يلزم هذه المدينة الملكية المقدسة بين المقدسات حاكم حازم. أولم يكن هذا هو اختصاصه؟

كانت فاس تتألف من مدينتين توأمين، يحيط بكل منهما سور ويفصل بينهما نهر. وكان جريانه السريع يدير طواحين تغذي

المدينة بالماء. وكان مجموعهما يشكل متاهة قوامها تسعة آلاف وخمسمائة شارع. وكان يبلغ عدد منازلها حينئذ مئة وعشرون ألف منزل وعدد مصانعها ثلاثة آلاف وخمسمائة مصنع منها ثماني مئة نول لصنع الأقمشة الحريرية المشهورة مثل الحلة والأصفهاني والجرجاني، والنسيج المطرز بالأحجار الكريمة واللآلئ، والأقمشة المزخرفة بالدوائر الصغيرة، والسجاد الصغير الحجم، والمعاجير وأقمشة أخرى من الحرير والبروكار.

دخل ابن رشد المدينة بعد خمسة أيام من السفر. ودخلها من باب بوجلود، ويقع غرب دار البطا المطل على فاس البالي el-Bali. وكان أول شيء يراه هو مصراع باب مطلي من الخارج بالخزف الأزرق وهو لون فاس، ومن الداخل بالخزف الأخضر وهو لون الإسلام. حل موكب يتقدمه ضابط مكان الموكب الذي كان يرافقه وقاده عبر الطلعة الكبيرة وساحة سوق الأحصنة ووصلوا إلى سوق النجارين القديم مروراً بساحة النجارين ثم دخلوا في دهليز من الأزقة نزولاً. وصل الموكب الذي كان يسير في الطليعة إلى طريق مسدود، فتوقف أمام باب من البرونز إلى أن فتح كاشفاً عن فناء مليء بالورود ويحيط به منزل من طابقين. أسرع العبيد بحمل الحقائب إلى الداخل: إنه كان في بيته. نصحه الضابط بالراحة والاستقرار ثم بزيارة المدينة، فقد لا تبدأ دروسه قبل عدة شهور.

وجد ابن رشد في البيت مكتباً رائعاً ورفوفاً مفروشة بالكتب، وكل المستلزمات الضرورية للكتابة وتحضير الدروس من قرطاس وأقلام ومؤلفات كثيرة مدهشة، (مخطوطات صينية ونصوص لابن

باجه) الذي لم يكن مع ذلك حسن الصيت عند الموحدين، وترجمات نادرة لأرسطو وأفلوطين وأبيلار وإلوييز، وحتى لهيلدوجارد دو بنجان. من عساه يهتم بهؤلاء المفسرين المسيحيين؟ وكانت هذه الكتب النادرة موضوعة بلا اكتراث تقريباً ولكن بفوضى دقيقة. من تسلى بإنشاء هذه المكتبة الثمينة ورتب مؤلفاتها ترتيباً بارعاً جداً؟ إنه لغز آخر.

وفي اليوم التالي جاء حاكم فاس عبد الله المقطي إلى ابن رشد وبرفقته رجل قصير القامة شاحب الوجه يلبس ثوباً طويلاً أسود بلا أكمام. وكانت عيناه الغائرتان في مقلتيهما تعطيانه هيئة جثة متنقلة. جاء ليفصح له عن غبطته باستقباله ولا سيما أنه تلقى أمراً بالاهتمام به بأحسن ما يكون الاهتمام. ممن تلقى الأمر؟ من ابن طفيل بالتأكيد. ألم يكن يعلم بذلك؟ لقد ارتقى حاميه في مراكش درجة في سلم السلطة، فقد عين حاجباً للقصر، باختصار عين كبيراً للوزراء مع الاحتفاظ بمنصبه كوزير للمال. قال المقطي لابن رشد بكل ما اتصف به من تزلف ومجاملة إنه تحت تصرفه إن استطاع، ولكنه يعتذر مسبقاً لضيق وقته. كان الوضع العسكري حرجاً، فقد تحالف الملك الذئب لتوه مع المسيحيين وقام بمحاصرة قرطبة وإشبيلية. كان الظرف حرجاً بالنسبة للخليفة ولولي عهده في المدن كافة، وحتى أن البعض بدؤوا يفترقون عن عواهل الموحدين الذين ذهبوا للتو في حملة باتجاه صطيف. وكان الخليفة نفسه عبد المؤمن باركه الله ينوي العودة إلى الأندلس بأسرع وقت ليخمد المقاومة الأخيرة للأمراء المتمردين ويعيد العاصمة إلى قرطبة التي نصحه أطباؤه بمناخها الذي

يناسب صحته أكثر بكثير من قيظ مراكش. قال ابن رشد في سره إنه لا بد لابن طفيل من دور في هذه الرغبة في الانتقال إذ طالما حدثه عن حبه الشديد للأندلس. وعلاوة على ذلك قال القطي موضحاً أن اضطرابات معينة حدثت في المدينة، فقد ادعى بعض الأئمة أنهم أنبياء، وظن بعض اليهود أنهم المسيح، واعتقد بعض المسيحيين أنهم يسوع. وكانت تمارس ليلاً شعائر كثيرة في الأسواق.

قدّم الرجل القصير القامة الذي كان يرافق الحاكم ويلبس زياً أسود نفسه بعد ذلك على أنه الأستاذ رضوان ابن كوبي رئيس الجامعة. ولم يكن على ما يبدو مسروراً لتواجده هنا. شرح متعاظماً أن طلاب جامعة القرويين هم أفضل الطلاب في العالم، فهم يأتون من أرجاء المملكة ومن خارجها لكي يأخذوا دروساً مجانية طبعاً في فاس، وأن هذه الدروس هي أرقى الدروس في العالم. وتابع حديثه بلهجة متصنعة:

- يلقيها أفضل الفلاسفة في العالم. وهذه هي حالنا حتى الآن لأننا نختار أساتذتنا بأنفسنا. ولم يحدث أبداً أن فرضوا علينا فرضاً إلى أن أخبرنا أنك تستطيع تدريس الفلسفة. الفلسفة! كما لو أن الفلسفة فيها فائدة للمؤمن! أما علم اللاهوت والطب، فتلك هي العلوم! ويبدو في النهاية أنك طبيب ماهر، فيمكنك متى شئت أن تأتي لحضور دروسي الخاصة...

قاطع الحاكم رئيس الجامعة بحركة تنم عن الغيظ وسأل ابن رشد:

- هل لديك أصدقاء في هذه المدينة؟

تردد ابن رشد بالإجابة. فهل كان يستطيع أن يذكر اسم من سيلقاه دون تعريضه للخطر؟ ثم قال بينه وبين نفسه إن هو قام بأيّ حركة للعثور عليه فسيعلم الحاكم بذلك. فكان من الأفضل أن يتكلم عنه بشكل عادي:

- كلا، لا أعرف أحداً هنا. ولكن أوصاني أحد أصدقائي في قرطبة بالتبضع من دكان تاجر من هنا يدعى... الكندي. هل تعرفه؟

تمتم الحاكم حائراً:

- الكندي؟ كلا، لا يذكرني هذا الاسم بشيء. لا يذكرني حقاً بشيء...

قال ابن كوبي ساخراً:

- كان أحد زملائي يحمل هذه الكنية.

- أين هو؟

- توفي في بغداد منذ ثلاثة قرون.

وأضاف الطبيب وهو يضحك ضحكة احتقار:

- تزعم أنك تمارس الطب ولا تعرف الكندي؟ لقد ألف أكثر من مئتي كتاب في الكيمياء والفلسفة والطب. وهو الذي اخترع علم العقاقير، وهو أول من قاس ارتفاع العلامات الموسيقية.

- أنا لا أهتم بالموسيقا، بل أمقتها.

- ابن سينا بذاته معجب به أشد الإعجاب. ابن سينا! لا تقل إنك لا تعرف ابن سينا.

- أحترمه كطبيب كما أحترمك أنت. ولكن عندما يشهر مثلك احتقاره للفلسفة، أتجاهله.

انفجر الحاكم بالضحك وقال للطبيب الذي أحس بالغيظ:

- الآن يا صديقي العزيز، فإن هذا الشاب يسجل نقطة لصالحه.

ثم التفت لابن رشد وقال:

- إذا كانت مؤهلاتك تعادل إجاباتك، سأرسل لك زبائن وربما أتيت أنا بنفسي لأستشيرك.

صرخ الرجل القصير بأعلى صوته:

- ألا يكفيك أطباؤنا الأخصائيون أيها الحاكم حتى تلجأ إلى خدمات طبيب مشعوذ قادم من الأقاليم؟

- إن كبار أطبائك المزعومين عاجزون عن شفائي من آلام معدتي. وأنا أقضي وقتي بين الفصاد والحقن والسوائل والمراهم دون طائل. إني أعاني آلاماً مبرحة، وأنا على استعداد لأجرب كل شيء.

نظر إلى ابن رشد وسأله:

- هل سبق لك يا بني أن شفيت شخصاً يشكو آلاماً فظيعة في معدته؟

- مرات عديدة. وعموماً هناك علاج ناجع لهذه الآلام، ولكن ليس العلاج الذي تخضع له.

عليك بالتقليل من أكل الدهن والتوابل، والابتعاد عن شرب الخمر والاعتدال في معاشرة النساء والإكثار من الراحة.

أجاب الحاكم:

- مثل هذه الوصفة لا تعجبني أبداً. ولكن سوف نتكلم في ذلك.

قال ابن كوبي مصححاً:

- تعلم أيها الشاب أن علاج هذا النوع من الآلام يشتمل قبل كل شيء على تلاوة سور من القرآن، وعلى وجه الخصوص السورة الأولى، يتبعها نفث خفيف فوق جسم المريض. ألم تكن تعلم ذلك؟ أرى جيداً أنه في مصلحتك أن تحضر دروسي. وأما فيما يخص دروسك فعليك أن تمر على الجامعة حيث سنسوي جميع التفاصيل. وكن مستعداً فتوصية الأقوياء بك لا تمنع الطلاب من العزوف عن محاضراتك إذا وجدوك غير كفء. فالجامعة لا تستطيع أن تجيز الاحتفاظ بالأساتذة من دون طلاب. لقد أعذر من أنذر.

صمم ابن رشد على الاحتفاظ برباطة جأشه، فأجاب بابتسامة:

- يبدو لي في الواقع أن جذب اهتمام الطلاب هو من أولى أدبيات الأستاذ، ولكنني لا اعرف شيئاً عن المحاضرات التي سألقيها. هل هناك برنامج؟

دهش ابن كوبي وقال:

- ألم يقل لك الذي عينك شيئاً؟ ليس هذا أمراً حكيماً، ولكن عليك أن تتوقع كل شيء من الأقوياء... سوف تتولى تعليم الفلسفة، فالأستاذ السابق قد توفي بطريقة ليست طبيعية تماماً. إذا أنا صدقت ما قيل لي، فلك حرية مطلقة في تعليم ما يجب على المؤمنين أن يفكروا بالفلسفة الإغريقية. ولو كان الأمر منوطاً بي وحدي...

قاطعه ابن رشد الذي بدأ صبره ينفذ:

- لو كان الأمر منوطاً بك وحدك، لحذفت درس الفلسفة هذا كما حذف من الوجود من كان يلقيه قبلي، أليس كذلك؟ وما هو مستوى الطلاب الذين سأحاضر فيهم؟

- عشر سنين في دراسة اللاهوت، ألا يكفيك هذا؟ اطمئن، فطلابك لا يظنون أن على أستاذ واحد أن يعرف كل شيء في كل الموضوعات، ولهذا السبب يسافرون. هم يتوقعون أن يكون لديك معرفة أكيدة عما تقول، وأن تكون حججك منطقية وإيمانك قوياً لا يتزعزع، وأن تحسن حشر الكفار في مكانهم الصحيح في تاريخ الفكر، وأقصد أن تلقي بهم في مزبلة التاريخ.

في اليوم التالي ترك ابن رشد خدمه وجواريه داخل البيت وخرج يتريض في المدينة بحثاً عن التاجر. أحب فجأة تمازج ألوان الجبال المحيطة بالمدينة، والأصوات الصادرة عن مشاغل الحائكين، ونظرات النساء الملثمات قليلاً. مر في سوق مسقوف يزخر بالمنتجات القادمة من أرجاء العالم. فشاهد الفواكه الأسبانية، والعطور البكتريانية، والبخور المنغولية، والأخشاب الأفريقية، والأحجار الكريمة الصينية، بالإضافة إلى جميع أنواع الأقمشة الخام أو المصبوغة التي يمكن للعقل تخيلها. أحب بعد أربعة شهور قضاها في سبتة كالسجين أن يكون في مدينة كبيرة. وأحب تجاذب أطراف الحديث مع الحدادين والخياطين والصائغين والصيرفيين وصانعي الفخار والأحذية والفراء. واستمر في السير حتى وصل إلى حي الدباغين، وكانت رائحتهم الكريهة تبعد جميع الزائرين. وذكرته هذه الروائح بقرطبة فقد مر زمن طويل على مغادرته لها، ما يقارب ثلاث سنين. ومدينته الآن تحاصرها قوات «الملك الذئب»،

هذا المسلم المعادي للموحدين وصديق اليهود وحليف المسيحيين. أيّ لعنة حلت على هذه المدينة السحرية التي كان يطلق عليها منذ زمن

طويل لقب «زينة العالم». وكيف حال والده الذي انقطعت عنه أخباره منذ عدة شهور؟ وأين هم أصدقاؤه؟ كان يتصور بعضهم وقد أصبحوا أنصاراً أقوياء للنظام، والبعض الآخر يتمنون سراً انتصار الملك الذئب وحلفائه. متى يراهم مرة أخرى؟ وماذا سيبقى عندئذ من المدينة؟ ومن المكتبة التي طالما أحبها؟ هل يمكن أن يعود إليها في يوم من الأيام؟

وسأل بالمصادفة المارة عن عنوان تاجر اسمه الكندي. لم يسمع أحد بهذا الاسم من قبل. كم يبدو هذا غريباً، فجيرار الكريموني قد تكلم مع ذلك عن تاجر غني جداً ومشهور جداً. لا شك أنه يسكن في قصر من قصور المدينة الجميلة، ولا أحد يعرفه؟ لا شك أن الكريموني قد خدعه وأرسله في طريق مسدود. ولكن لماذا؟ كان من السهل جداً ألا يقول له شيئاً، وكان وجد الأمر عادياً. لماذا تكلم مع غريب لا يثق به إن كان قصده إرساله في الطريق الخطأ؟ وهذا لغز جديد آخر. لن يجد إذاً له أثراً، فقد انتهى بحثه. لن يعلم شيئاً مطلقاً عن الكتاب السري، عن «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور». كان ما يزال يحتفظ بقطعة النقود الذهبية التي أخذها من الوزير. ينبغي عليه أن يعيدها له ذات يوم وأن يعترف له أن الأمل معدوم من رحلة وهمية إلى طليطلة. ولكن عليه أن يؤخر ذلك ما أمكنه.

في اليوم التالي توجه إلى الجامعة ليتعرف على زملائه الأساتذة. وذُهش من ضخامة المسجد، فقد كان يتسع لعشرين ألف مؤمن. لمح من المدخل الفناء الداخلي الفسيح ومظلتين أعمدتهما من الرخام. والتقى بعض الزملاء، وكانوا جميعهم يظهرون كبرياءً وتحفظاً

وتزلفاً في آن واحد، وكان يبدو عليهم أنهم لا يجهلون الطابع الخاص لتعيين زميلهم الجديد.

عاد ابن رشد إلى البيت وبدأ يحضر محاضراته. كان ينوي في البداية أن يحقق سبقاً وذلك بوضع أسس ما كان يظنه مفهوم الله الصحيح، والشكل الحقيقي للوحي، وحقيقة الكون.

جاء الحاكم في الأسبوع التالي إليه لا ليكلمه عن الاستراتجية السياسية وإنما ليكلمه عن آلام معدته، فقد أصبحت لا تحتمل ولا تطاق. تحدث ابن رشد معه مطولاً ووصف له نظاماً صارماً. وبعد عدة أسابيع عاد إليه الحاكم ليقول له إنه يشعر بتحسن. وصار من أشد المعجبين به وراح منذ ذلك الحين يرسل إليه مساعديه والتجار والصيرفيين وتوافد بعدهم مرضى آخرون متأثرون بالدعاية. وكان الطبيب الشاب أحياناً يذكر بشكل عابر أمام مرضاه اسم الكندي دون أن يلقى أي صدى.

عندما اقترب موعد المحاضرات، أوقف معظم معايناته وركز تفكيره في كتبه. فبقدر ما كان يجهد نفسه في الدرس كان يدرك التقارب الكبير بين فكر أرسطو وفكر محمد، وهو تقارب خفي لأن النبي كان يخاطب أناساً بسطاء، ولكن جوهر الرسالة كان واحداً. لا شك أن القرآن كان يتضمن أفكاراً هي من العجب بحيث يستحيل أن تكون صادرة عن عقل بشري، ولكن لو أن محمد خاطب أناساً آخرين، كاليهود على سبيل المثال كما بدأ يفعل أو كالإغريق، لكان بلا شك خاطبهم بلغة أقل مجازية، وأكثر تجريداً ودقة في آن واحد، وأكثر صحة من الناحية العلمية. وأخذ ابن رشد

يعتقد أن السبب وراء كره وبغض بعض العرب لأرسطو هو أنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام مفكر بين لهم الطابع الموجز المبسط لبعض جوانب الرسالة التي تلقوها إذا ما قورنت بالرسالة التي تركها وراءه أعظم الإغريق طراً. ومع ذلك لم يجز لنفسه الحق في التفكير بهذا الأمر.

قبل يومين على بدء محاضراته جاءت إلى عيادته امرأة طاعنة في السن تضع حجاباً طويلاً أسود وترتدي سروالا كما كانت الموضة قبل نصف قرن في قرطبة. وكان ابن رشد مستغرقاً في إعداد محاضراته، فرفض استقبالها في بادئ الأمر. ولكنها ألحت، فهي لم تأتي من أجل أن يعالجها، وإنما لتنقل إليه «رسالة على قدر كبير من الأهمية». فخرج من مكتبه وذهب لرؤيتها في فناء الدار. انحنت العجوز أمامه وهي تحرص على أن يبقى حجابها محكم الإغلاق ثم قالت:

- أرسلتني سيدتي لتقول لك إن والدها سيحضر أول محاضرة لك.

- أ جئت إلى هنا لهذا السبب من أجل تأخيري عن عملي؟ أتمنى ألا يكون مستمعي الوحيد...

- وأمرتني سيدتي أيضاً أن أقول لك إن والدها سيكون مستمعك الأكثر انتباهاً، وأنه يجب ألا تفكر بسواه وأنت تلقي محاضرتك.

سأل ابن رشد متيقظاً:

- هل هذا تهديد؟

- واجبي هو تبليغ الرسالة فقط. أضف أنني لم أسمعها مباشرة من فم سيدي، وإنما من ابنته ليلى التي أحترمها كل احترام. لو عرفتها، فهي أجمل...

قاطعها ابن رشد بعد أن عيل صبره من هذا الموقف المضحك في نظره وقال:

- أتمنى ذلك، أتمنى ذلك. رسالتك تنتهي هنا.

- ليس تماماً. فقط قالت لي سيدتي أن أوضح لك أن والدها مهتم بك منذ كريمون.

كان ذلك كما لو أن صاعقة قد وقعت على رأسه. كريمون! مسيحي طليطلة الذي كان قد أرسله إلى هنا؟ ها هو اسمه تنطق به خادمة في قلب إسلام المغرب! أخيراً عاد الاتصال!

خالج ابن رشد شعور امتزج فيه الخوف والفرحة والدهشة. هل الكندي هو من أرسلها؟ تشجع وسأل:

- هل لي أن أعرف اسم سيدتك؟

- لقد قلته لك: ليلى.

- وما هي كنيتها؟

- المنصور: ليلى المنصور.

- ووالدها؟

- عبد الله ابن عزولي المنصور.

انغلق السر على نفسه. تنهد ابن رشد وسأل:

- هل يوحي لك اسم الكندي بشيء؟

ترددت ثم أجابت:

- هو كنية والدة سيدتي، وقد توفيت منذ زمن طويل. كانت تدعى عائشة بنت فاطمة الكندي.

استخدم الكريموني إذاً كنية زوجة التاجر حتى لا يثير انتباه أحد في حال كان تحت المراقبة.

ولكن كيف عثر الكندي عليه؟ من المحتمل أن الكريموني قد كتب له رسالة.

- بلغي سيدتك أنني أحتفظ بأفضل ذكرى عن الكريموني وسألقي محاضرتي كما لو أن والدها لوحده في القاعة. وقولي لها أيضاً إنه ليشرفني أن أقابلها قبل المحاضرة أو بعدها، وأن أتعرف بالطبع على والدها.

- لا تستقبل سيدتي الغرباء مطلقاً إلا في حضرة والدها. ولا بد من لقائه قبل أن تلتقيها.

غادرت العجوز دون أن تترك له المجال لطرح سؤال آخر. فكر ابن رشد بدقة تعابير الخادمة. فقد تكلمت بلغة عربية فصيحة، بينما كان جميع الخدم هنا من البربر أو من العبيد الذين أتوا من مكان بعيد. ولم يكن هناك عبيد عرب، وكان يندر جداً أن ترى عبيداً مسيحيين أو يهوداً فكانوا يحصلون على حريتهم بدخولهم في الإسلام، وهذا ما كان يفعله الجميع تقريباً. فهي إذاً ليست جارية. كانت بالأحرى واحدة من النساء اللاتي يصحبنها وقد استخدمت كل كلمة من كلماتها في معنى محدد. أصبح ابن رشد في حيرة من أمره: ما هي العلاقة التي تجمع بين الكندي وجيرار الكريموني وابن طفيل الذي بعث به إلى طليطلة ليقابل المترجم؟ هل يشكلون مع

بعضهم أخوية؟ أو ملة؟ أو عصبة؟ وما هو الدور الذي يلعبه الكتاب الذي تكلم عنه ابن طفيل؟ والقطعة الذهبية؟ لعل كل شيء مرتبط برواية ابن طفيل الشهيرة حيث يهتدي فيها غريق إلى الله دون أن يعرف شيئاً عن الأديان؟

أسئلة كثيرة بلا إجابة... ليس عليه الآن سوى التركيز على محاضرته. وإذا كان الكندي في المحاضرة، ينبغي أن يركز تفكيره عليه دون سواه وهو يلقي محاضرته، ويكشف له دون سواه عن أفكاره الحقيقية. هل سيتحلى بالشجاعة لذلك؟ فالأستاذ الذي سبقه لقي مصرعه. سيتكلم إذاً بكلمات مبطنة. فإذا كان الكندي يراسل الكريموني، وإذا كان ينتمي لهذه الجماعة السرية جداً والمهمة جداً، فسوف يفهم.

يجب أن يقنعه في خطابه بتسليمه المخطوط الشهير، ولكن دون علم ابن طفيل، إذ إنه أصبح الآن مقتنعاً كل الاقتناع أن ابن طفيل يستخدمه مطية للوصول إلى المخطوط، وأنه سوف يتخلص منه ما أن يدرك عدم حاجته وفائدته له.

كان ابن رشد يدون معلوماته ويكتب ملاحظاته ويضيف إلى مخطط أفكاره رسائل موجهة إلى مراسل الكريموني. كان يعمل دون أن تغمض له عين في اليومين الأخيرين اللذين سبقا محاضرته الأولى، بعد أن أقصى عنه جواريه الثلاث.

وفي صباح اليوم التالي صلى صلاة الفجر في المسجد الكبير وكان في حالة أبعد ما تكون عن التعب. وقبل أن يدخل إلى المسجد غسل وجهه وفمه وأنفه ويديه إلى المرفقين ثلاث مرات، ثم مسح رأسه

وأذنيه بيديه بالماء مرة واحدة، ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثلاث مرات. وبعد الانتهاء من الصلاة رجع قافلاً إلى منزله.

بعد صلاة العصر كانت أشعة الشمس قد خفت حدتها، وكان بانتظاره إمام عند مدخل المسجد. عبرا الفناء ثم سلكا ممراً ضيقاً ليصلا أخيراً إلى المجلس العام le Majlis amm، وهو أضخم

قاعة في الجامعة فرأى أمامه جمهوراً غفيراً قد جلس على الأرض مباشرة، وكان معظمه من الشبان. كانت إضاءة القاعة سيئة بسبب قلة نوافذها، وكان يتوسط القاعة طاولة قليلة الارتفاع مع بعض الأرائك، ولم يكن هناك المنبر الذي يخطب منه الإمام عادة في المصلين. توسط ابن رشد المستمعين الذين شد انتباههم فجأة. ورأى أمامه على بعد ثلاثة أمتار الحاكم وقد أحاط به عدد من مساعديه، وكان يومئ له بيديه مشجعاً. ولاحظ في أحد زوايا القاعة أشخاصاً أكبر سناً ومن بينهم ابن كوبي الطبيب الذي استقبله استقبالاً فاتراً، وكان يبدو سارحاً بنظره. أما الآخرون فكان يراهم لأول مرة، وكان يصعب عليه تمييزهم في الظلمة. بدأ حديثه فقال:

- باسم الله الرحمن الرحيم، تفكروا يا أولي الألباب، هل من الممكن دون أن نتهم بالكفر أن نبحث عن الحقيقة حول نشأة الكون؟ هذا هو السؤال الذي أريد أن أناقشه هنا أمامكم. سأكلمكم في أمور صعبة باعتباركم لستم أناساً عاديين. إن الناس درجات في العلم والمعرفة، فالبعض يرفض الحقيقة، والبعض الآخر يرفض الصعوبة، وآخرون أيضاً يرفضون العلم. وبلغني أنكم لا ترفضون أياً منها، بارك الله فيكم.

ديانتنا هي أكمل الديانات جميعاً. فتوراة اليهود كتاب غامض محشو بالأخطاء، وهو كتاب ديني لشعب علينا احترامه لأنه يؤمن بإله واحد. والمسيحيون مخطئون بقولهم أن الله هو اتحاد الثالوث، فإذا كان الله ثلاثة، فهناك أحد ما أو شيء ما قد خلق هذا الثالوث، وبذلك يكون هذا الشيء هو الخالق الحقيقي، إله ما قبل الثالوث، فالمسيحية إذاً لا تؤمن بإله واحد. أما كتابنا القرآن فهو معجزة من ناحية الوضوح، هو ما هو بديهي بذاته وليس سراً يستعصي تفسيره.

فليس مباحاً إذاً تفسيره، أي عدم التمسك بمعناه الظاهر، إلا في الحالات التي يدعونا فيها بجلاء للقيام بذلك. في هذه الحالات يجوز الركون إلى العقل.

سمعت جلبة بين الحضور، والتفت بعضهم إلى الزاوية التي قبع فيها ابن كوبي، ولم يستطع ابن رشد أن يعرف السبب. تابع حديثه:

- جاء في القرآن:

﴿. . . يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . . .﴾[1]

ويضيف القرآن الكريم بصدد السور التي ليس من المحظور تفسيرها هذه الآية الجوهرية:

﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[2]

١- سورة فاطر: الآية ٢٨.

٢- سورة آل عمران: الآية ٧.

يعتبر هذا النص أساساً لفهم ما يحق لنا نحن المسلمين الآخرين قبوله من العلم. وهو بالتالي جوهري لهذه المحاضرة. هناك تفسيران ممكنان لهذه الآية: بما أن هذه الآية لا تحوي علامات ترقيم، فالبعض يقرؤها على النحو التالي:

﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

وهذا معناه أن الله حصر تأويل السور القرآنية به دون غيره، مما ينتج أن علم اللاهوت هو وحده العلم المباح. ولكننا نستطيع قراءة هذه الآية دون وقفة بعد كلمة «الله»، فتصبح الآية:

﴿. . . وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

وهذا معناه على العكس أن العلماء أنداد لله عندما يفكرون. وأنا آخذ بالتفسير الثاني، فلماذا يستأثر الله لوحده بالتأويل؟ من المؤكد أنه يشرك فيه جميع البشر. وإذا كانت بعض جوانب الرسالة غير واضحة، فإنه لا يحتفظ لنفسه بحق التأويل، بل يوكل الناس المميزين والعلماء بذلك. ولي الشرف أن أكون واحداً منهم.

علت الأصوات في القاعة من جديد، وكانت هذه المرة أكثر صخباً. نهض اثنان من الحضور وهما بالخروج ثم جلسا من جديد. ودوى صوت جهوري في نهاية القاعة بالقرب مباشرة من ابن كوبي:

- بأي حق تظن نفسك مخوّلاً بتفسير القرآن؟

لم يـر ابـن رشـد الـشخص الـذي كـان يـتكلم ولم يـسبق لـه أن سمع هذا الصوت من قبل. أحس بالخطر، فأجاب باحتراس:

- لو كان المهدي ابن تومرت هنا، لكان الوحيد الـذي يحق لـه تأويله. ولكنـه تـوفي، وهـذا الحـق يعـود إلى مجموعة معينـة مـن النـاس الراسخين في العلم، وأظن أنني أستحق بفضل علمي أن أكون منهم.

يسمع الصوت نفسه يقول:

- لنـر إن كنـت جـديراً بـذلك أو أنـك نـصاب يـستحق المـوت... أكمل حديثك.

تنحنح ابن رشد ثم قال:

- علـى الـرغم مـن أن العقـل يقودنـا إلى الخطـأ فحظـر اسـتخدام العقل بسبب هذه الأخطاء شبيه بجعل الناس يموتون من العطش بحجة أن البعض منهم ماتوا غرقاً. مـن الممكـن أن يكـون العقـل أداة للقتل، وأن يوضع في خدمة الشر، ولكـن هـذا لـيس سـبباً لكـي لا نـستخدمه من أجل التقدم. وإن أول شيء خلقـه الله هـو الـذكاء وحتـى قبـل وجـود المادة، ثم صمم الكـون تحكمـه قـوانين رياضية ثابتة يمكـن فهمهـا عـن طريـق اسـتخدام العقـل. فالمعرفـة لا تقودنـا إذاً إلى رفـض الإيمـان ولا إلى رفـض خلـق الله، وإنمـا إلى معرفـة القـوانين الـتي أرادهـا الله. والفلـسفة الـتي تـدرس هـذه القـوانين هـي التعـبير عن العقـل والحـق في تأمل الكون. وتتيح لنـا التقـرب من الحـي القيـوم تمامـاً كمـا يتيح لنـا العمـل الفـني التقـرب مـن الفنـان. أمـا ادعـاء الوصـول إلى الله ومعرفـة أسرار الكون من دون العقل فيقود إلى التصوف والتحزب ولا يرضـي العلي القدير.

قال الصوت الجهوري من أقصى القاعة:

- لا يتمنى أحد حظر عمل العقل، ولكن ينبغي أحياناً التنديد بالذين يتكلمون باسمه على أنهم مجانين، فهم ليسوا جميعاً يقظانين. ولست بالطبع تمتلك الحقيقة لأن اسم رشد يعني ذلك.

فكر ابن رشد بينه وبين نفسه: إنه هو ولا يمكن أن يكون أحد سواه. إنه الكندي. أخيراً تجرأ ولفظ علانية كلمة «اليقظانون». هل مجنون هو؟ هل غافل هو؟ هل مشاغب هو؟ شعر بفرح غامر بعد كل هذه المدة من الانتظار، وتجاهل بقية الحضور وراح من الآن يخاطب الخيال الجالس في نهاية القاعة.

- أنا لا أدعي أن العقل قادر على فهم كل ما جاء به الوحي الإلهي، بل إن الجزء الذي يكشفه ليس فيه تجديف على الله. إن ما يقوله لنا العلم عن العالم لا يمكن أن يضر الإيمان في شيء لأن العقل والإيمان متوافقان وسوف يظلان كذلك على الدوام. أضف إلى ذلك أن لا وجود لمنهج إسلامي في البحث عن الحقيقة لأن على العلم وحده أن يفرز منهجاً لبلوغها.

حدث في القاعة هرج ومرج، وخرج من القاعة عشرة من الشبان وأستاذان وهم ساخطون.

تذكر ابن رشد ما قد يتعرض له بسبب جرأته المفرطة، فاعتدل في حديثه:

- فحقيقة ما لا يمكن أن تضاد حقيقة أخرى، وإنما تتفق معها وتشهد لصالحها بطريقة منفصلة. فحقيقة العلم منفصلة عن حقيقة القرآن، مثل سلاح الجلاد الذي هو أيضاً يخلق النظام

وهو منفصل...

سمع صوت متعجب يقول:

- نعم مثل سلاح الجلاد الذي ينتظرك عندما تخرج من هنا.

كرر ابن رشد قوله وهو ينظر إلى الجهة التي أتى منها الصوت:

- ما هو عقلاني وما هو من تنزيل الوحي لا يفسر بعضه بعضاً، إذ أن كلاً منهما خارج عن الآخر وله شرعيته الخاصة به والتي لا تتطاول على مجال الآخر. كل منهما يعبر عن الحقيقة بطريقته الخاصة حتى لو كانت جديدة كل الجدة. ومن جهتي فأنا أفضل العقل على النقل.

- العقل هو الفكر، قال الصوت الجهوري، والنقل هو الحديث. الأول إغريقي والثاني عربي. فهل سينتصر برأيك الإغريق على علماء ديننا؟

كان هذا هو السؤال الأكثر خطورة. وعاد الهرج والمرج من جديد. قال ابن رشد:

- ليس من المؤسف أن تكون الطريقة التي تبحث عن الحقيقة، أي المنطق إغريقية، فالإغريق هم الذين اكتشفوها ومن العبث إعادة اختراعها. وهم أول من فكر بملكوت السماوات والأرض، بالإضافة إلى كل الأشياء التي خلقها الله.

علا صوت آخر من الجهة الأخرى من الصالة:

- لماذا تخلى الإغريق عن مكانهم للرومان إن كانوا على درجة كبيرة من القوة؟

صفق البعض لهذا السؤال. أجاب:

- ليس الرومان وجميع الشعوب التي أتت بعدهم سوى مقلدين فاشلين للإغريق. استولى علماء الدين على القرآن لينشئوا ديناً فحشروا أنفسهم خطأً بين الشعب ورجال العلم، لذلك يتعرضون الآن للنقد كما تعرض البلغاء في زمن أرسطو.

ازدادت حدة الضجيج.

- ماذا؟ وكيف؟ وما معنى هذا؟ ينتقد وجود الدين؟

- لا يعلم علماء الدين كيفية التفكير، وإنما ما ينتج عن تفكيرهم الخاص فقط. فهم يتصرفون مثل الذي يعلم التلميذ كيف يتجنب آلام الرجلين، فلا يعلمه فن صنع الأحذية أو طريقة الحصول عليها، وإنما يكتفي أن يقدم له عدة نماذج من الأحذية. قد يأتي ذلك له بخدمة عملية، بحل فوري ولكنه يبقى حلاً مسبق الصنع. وهذا لا ينقل له منهجاً للبحث أو أداة يستطيع استخدامها في مواقف أخرى.

والشيء نفسه عند علماء الدين، فهم يزودون الناس بوصفات معدة مسبقاً وليس بمناهج للتفكير.

وشيئاً فشيئاً بدأ الضجيج يعلو. سمع ابن رشد صوتاً يقول:

- إنه الآن يشبهنا بتجار الأحذية؟

- وصلت به الجرأة أن يتحدث عن الأحذية داخل المسجد؟ إنه يجدّف! إنه يجدّف! إنه يسخر منا! إنه يستحق الموت.

تابع ابن رشد دون أن يستسلم للخوف:

- الله يفكر في الكون، ويمد الإنسان بوسائل بسيطة ليفكر بوساطة العلم للحظة كما يفكر هو. يعلمنا كيف ينتج ويفكر في العقل الأول الذي يصدر عنه فيما بعد عقول جميع الأجرام السماوية،

وأكثرها تواضعاً هو العقل البشري، البشرية المفكرة والفكر البشري. ومن الله إلى القوة الفاعلة، هناك عشر درجات نزولاً. وإن تعلم ارتقاء هذه السلسلة التي نتحد بوساطتها بالله يمدنا بالحبور بإتاحته لنا التفكير مثله.

علا الضجيج من المكان نفسه بين الحضور. وكان الضوء يتناقص، وخفت قوة تمييز ابن رشد للوجوه التي بدت له الآن أكثر انتباهاً وأشد تركيزاً وأقل ضجيجاً. فقرر الاستمرار في الهجوم

- برنامجي هو فهم الكون ومحاولة استخلاص الحقيقة منه. ويجوز من أجل ذلك استخدام أعمال الفلاسفة أياً كان مصدرها، ولا سيما أعمال أعظم واحد بينهم، ألا وهو أرسطو.

عاد الضجيج بقوة وأحس الحضور بموجة ترفعه من مكانه. تابع:

- إذ إنني أعتقد أن هذا الرجل كان قانوناً في الطبيعة، نموذجاً اخترعه الله لكي يبين لنا إلى أي مدى يمكن أن يصل الكمال البشري.

- لأن أرسطو هو مبعوث من الله؟

سمع من جديد الصوت الرنان نفسه الذي سمعه في البداية. إنه الكندي بالتأكيد. صديق واحد فقط للكريموني يستطيع أن يطرح مثل هذه الأسئلة، الأسئلة نفسها التي أجاب عليها مع ابن طفيل.

- إن مذهب أرسطو هو في ذات الوقت أفضل المذاهب والمعبر الوحيد الممكن عن الحقيقة، فهو يساعدنا على الفهم أنه من الجائز التفكير والاعتقاد.

- هل تعتقد أن محمداً قد قلد أرسطو؟

ساد صمت ثقيل. كان من الممكن لابن رشد أن يموت من إجابته على هذا السؤال. أجاب بفطنة:

- كلا، فهناك في القرآن إعجاز، وبصمات إلهية يستحيل إسنادها للعقل البشري أياً كان. ولكن أرسطو يبرهن على وجود الله. يكفي أن تلاحظ حركة الأشياء وترجع إلى أسبابها، فتصل عندئذ إلى المحرك الأول الذي يتقدم سلسلة من المحركات التي تحرك الكون بصورة أبدية، وهو يقع خارج هذا الكون. هذا المحرك الأول هو ممثل الله، هو فكر يسند الكون منذ الأزل، وهو الجوهر الأكثر بساطة والأقل مادية. الله يعلم والله يخلق، ويفكر في الكون ولكنه لا يريده. العلي القدير هو مبدأ كل حركة، لكنه لم يخلق المادة الأزلية ولا الأشكال إذ لا شيء يمكن أن ينتقل من العدم إلى الوجود. الواحد لا يمكن أن ينتج إلا الواحد. ليس للكون بداية أو نهاية. والزمن أيضاً أزلي إذ أنه لو بدأ من لحظة ما فمعناه أنه وجد بعد آن كان غير موجود.

- كيف تدرس عمل الله كما لو أنه موضوع بحث ليس إلا؟

أصبح الصوت الرنان أكثر رصانة، وساد صمت تأملي بعد مداخلته.

- يأمرنا النبي بالعلم والتعلم عن طريق تأمل الكون، أي عن طريق دراسة الفلسفة. والفلسفة ليست سوى الاسم الآخر للعلم. تذكر هذه الآيات من القرآن:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ . . .﴾[1]

وأيضاً:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝﴾[2]

قال أحدهم في أقصى القاعة مثيراً قهقهة عند بعض الحضور:

- لأنك تظن أننا كالإبل؟

كان ينبغي هنا لابن رشد أن يوجه رسالة واضحة للكندي، فقرأ ببطء شديد مقطعاً كان قد أعده بعناية:

- العلم هو الطريق إلى الكمال، ومن يقف في وجه العلم يقف في وجه المشروع الرباني الهادف إلى تحقيق مثل هذا الكمال. الله هو العارف والله هو الخالق والله هو المفكر. الله عسير المنال، والعلماء هم أفضل من يدافعون عنه، فهم يبرهنون أفضل من أي شخص آخر على غائية الخليقة. فمثلاً لاحظ أرسطو أن الدودة تزحف وذوات القوائم الأربع أكثر ارتفاعاً، والقرد محني الظهر والإنسان منتصب. وهدف الدودة أن تمشي على أربع، وهدف رباعي القوائم أن يصبح مثل القرد. وكلما نزلنا في درك الكائنات كلما كان هناك مادة وكلما صعب تمييز الشكل. وعلى العكس كلما ارتقينا صعوداً كلما اتضح الشكل واختلط بالنهاية، فالأرض تكاد تكون بلا شكل،

١- سورة الأعراف: الآية ١٨٥.

٢- سورة الغاشية: الآيات ١٧-١٨.

والشجرة لها شكل مميز ولكنه لا يختلف عن النهاية، أما الإنسان فله شكل أقرب إلى نهايته، أما الله فهو الكائن الوحيد الذي ليس له مادة، وإنما هو شكل صرف. وما هي غاية الإنسان؟ هي الارتقاء إلى الشكل الصرف والفعل الصرف حيث لا يوجد نقص.

و دور العلم في علة وجود كل كائن بشري هو أن يساعده في أن يصير شكلاً محضاً ويتحرر من قيود الجسد ويتقرب من الله ويصحو.

صرخ الإمام قائلاً:

- كلا، ليس الإنسان حصيلة تطور، فهو لا يتطور. لن تقول لي إنك مؤمن بتطور الأرض إلى قرد والقرد إلى إنسان؟ فهل تقر بخصوصية النوع البشري من حيث أن الله خلقه على صورته؟

أصبح ابن رشد الآن عرضة للخطر أكثر من آي وقت مضى. فالتشكيك بخصوصية الإنسان وخلقه الفريد على يدي الله هو من أبشع الجرائم التي يمكن لمؤمن أن يرتكبها بحق الإيمان. فكر أن الوقت قد أزف للخاتمة، فنهض وختم قائلاً:

- الكون في تطور مستمر نحو الله. وأنا أؤمن بما يقول لي العقل أن أؤمن به، ولا سيما عندما يقدم لي العقل أسباباً تجعلني أندهش من مشروع الله. أشكركم وسنستأنف هذه المحاضرة الأسبوع المقبل.

نهض الإمام وبدأ بالصلاة وسجد الجميع ملبين نداء إقامة الصلاة.

وبعد الانتهاء من الصلاة شاهد ابن رشد وهو خارج من المسجد خيالاً برفقة حراس يفسح له الجميع الطريق. وعندما وصل إلى ممر

صغير خصص على ما يبدو للأساتذة رأى رجلاً بانتظاره، وكان يرتدي لباساً من الحرير الأسود من غير حلية أو نطاق. لم يميز ابن رشد منه لأول وهلة سوى نظرته الثاقبة الصافية الحازمة. وكادت عيناه تشبهان عيون المغول، فقد كان يبدو آسيوياً أكثر منه بربرياً. فتذكر ما قاله له الكريموني من أن الكندي هو من أصل آسيوي. قال له الآخر:

- لقد كنت شجاعاً حقاً. هل تعلم أنه ما من أحد هنا تجرأ يوماً على التعبير بهذا الشكل؟

فتعرف ابن رشد على صوت الرجل الجهوري الذي كان يخاطبه طوال المحاضرة. أجاب باحتراس:

- الشجاعة تجلٍ من تجليات العقل والإيمان.

- وهي أيضاً علامة على دعم الأقوياء. تساءل الكثيرون إن كنت ستلقي محاضرتك المقبلة من على الخازوق.

- هل هذا ما ينتظرني؟

- ليس على الفور. ولكن لا تعاند القدر.

- هل هذا تهديد؟

- بل نصيحة. كن في دروسك المقبلة أقرب إلى التقليد وتجنب التفسيرات المعقدة أو المفرطة في الجرأة. لا تظهر حقيقة تفكيرك، ولكن لا تجهر بعكس ذلك، فالحقيقة ليست للجميع. إذا التقيت رجال دين على انفراد فأكثر لهم منها، واحتفظ بجوهر براهينك لنخبة العلماء.

ينبغي لك أن تخفي نظرياتك عن عامة الناس الجهلة حتى لا يتزعزع إيمانهم وتنقسم الأمة الإسلامية على بعضها وتتفرق إلى شيع جاهلة يقاتل بعضها بعضاً قتالاً شرساً.

سأله ابن رشد:

- من تكون أنت لكي تكلمني على هذا النحو؟

ابتسم الآخر وقال:

- رجل عنده فضول لكل شيء. ومسافر يعيش هنا متنقلاً عبر الصحراء ليحضر المنتجات القادمة من الجنوب.

- ما هو اسمك؟

- أدعى عبد الله المنصور. وأحياناً ينادونني بكنية عائلة زوجتي، وهي الكندي...

اقترب ابن رشد أخيراً من الهدف، ولكنه بقي حذراً:

- بلغني حضورك في القاعة. قيل لي إنك صديق للكريموني؟

- نحن من عائلة واحدة تقريبا.

فأخرج ابن رشد القطعة الثقيلة التي سلمها له ابن طفيل فيما مضى.

- كلفني أن أريك هذا الشيء.

تناول الشيخ القطعة بتؤدة بإصبعين وتفحصها مطولاً وبدا عليه التأثر.

- لا تظهرها أبداً أمام أحد، وإلا كان الموت جزاءك.

- أعلم ذلك، ولن يعلم أحد أنني أظهرتها لك.

- اعلم أن الذين يدّعون صداقتك لن يبقوا على هذه الصداقة إلا ما دمت نافعاً لهم. فلا تقل لهم شيئاً عن علاقتنا، وإلا دفعنا أنا وأنت الثمن.

فكر ابن رشد بينه وبين نفسه أن هذا تحذير آخر من ابن طفيل. قال:

- هل لديك شيء تريد أن تسلمني إياه؟

- عندي بالفعل كتاب لك. هل تستطيع أن تأتي إلي بعد أربعة أيام، في هذا الوقت نفسه تماماً؟

- أين؟ فأنا لا أعرف أين تسكن.

- لن تعرف مسكني. سأرسل أحدهم في طلبك.

قبل ثلاثة أسابيع خلت بانت سبتة في الأفق لعائلة ميمون. كان موسى أثناء الرحلة التي سارت بلا عراقيل يتسلى في مراجعة كافة الوصايا الإلهية المتناثرة في الكتاب المقدس. وأسعفته ذاكرته التي لا نظير لها في تذكر تعداد للحبر سيمله Simlai ذكر مرة واحدة في التلمود، وكان يشير إلى ٦١٣ وصية، منها ٢٤٨ إيجابية و٣٦٥ سلبية. وحاول العثور عليها جميعاً، ولم يكن ذلك عسيراً عليه. ثم قال بينه وبين نفسه: كيف السبيل لتذكر كل هذه الأعداد. لا بد أن يكون هناك نظام يقوي الذاكرة حتى يتذكرها. اعتقد أن الرقم ٢٤٨ يدل في نظر أطباء تلك الحقبة إلى عدد عظام جسم الإنسان، فالوصايا الإيجابية يبلغ عددها إذاً عدد عظام الهيكل العظمي للإنسان، ويمكننا أن نقول إن كل شيء يتم كما لو أن كل عظمة من العظام قالت يوماً للنفس:

«افعلي هذا معي.» أما الوصايا السلبية فعددها مساوٍ لعدد أيام السنة الشمسية، فكل شيء يتم كما لو أن كل يوم يقول للإنسان: «لا ترتكب هذه الخطيئة في هذا اليوم الذي هو يومي.» اكتفى موسى بهذا التحليل فدونه ووضعه جانباً تحسباً لما بعد.

كان الفتى مصمماً على الإسراع إلى فاس للقاء الأب شوحانا، وهو آخر حلقة في السلسلة التي بدأت في قرطبة قبل ثلاث عشرة سنة

مع إليفار. لقد مضت ثلاث عشرة سنة! كان هناك جيرار الكريموني في طليطلة، وابن طيبون وألبيرك دو مونبا في ناربون. وجميعهم كلّموه عن كتاب أطلق عليه إليفار اسم «الأبدية المطلقة»، وهو عمل فكري مفقود لأرسطو ويتكلم عن علة وجود الكون. وقال عنه أيضاً إنه «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور». وكان هناك أيضاً جماعة تطلق على نفسها اسم «اليقظانون»، وكان يبدو أنهم متعاونون مع بعضهم لمنعه من الحصول عليه. عندما سيحصل عليه سيأخذه معه إلى الإسكندرية، وهو المكان الوحيد الذي يستطيع أن يعيش يهودي فيه قرير العين. وسيقرؤه ويستخدمه في عمله.

أما والده فلم يكن يحلم إلا بالعودة إلى الأندلس على الرغم من أنه كان يعلم عدم جدوى هذا الحلم.

فميمون انضم عن رضى وقناعة إلى المشروع الذي كلمه ابنه عنه، ألا وهو الرحيل إلى فاس ومحاولة العيش وسط أبناء دينه الأكثر قرباً منهم. كانت المدينة بالطبع تقع في قلب مملكة الموحدين، ولكن ميمون كان يعتقد أن لا أحد يجرؤ على مس شعرة من شعر اليهود، وأنه سيجد فيها أساتذة استثنائيين أتوا من كل مكان، ويلجأ إليهم الأئمة أنفسهم للمشورة. وكان يحب أن يتذكر أسماءهم مثل الحبر إيهودا حيوز، وكان من أشهر النحويين العبريين في عصره، والحبر حوشيل القيرواني، والحبر حنوش القرطبي، وعالم التلمود ابن عباس الذي درس في مدارس بابل الدينية، والحبر يهودا ها كوهين ابن شوحانا، وهو وريث عائلة تتحدر من بغداد وعاشت في قرطبة.

أما داوود فكان نهباً للقلق، إذ كيف يمكن لوالده وأخيه أن يلقيا بأنفسهما في أتون هذه المدينة الملعونة؟ وكيف يمكن ليهود يفترض أنهم يتمتعون بذكاء خارق أن يكونوا من الغباء بحيث يلتجئون إلى عاصمة الإمبراطورية التي تعادي اليهود؟ بدأ يفكر أنه لعل هذا وذاك قد اعتنقا الإسلام في السر تجنباً للمتاعب مع السلطات. لقد تغيرا كثيراً منذ وفاة سارة. ولكن لا مجال بالنسبة له لكي يستسلم، فهو يفضل أن يموت والسلاح في يده.

وتراءى لهم قارب شراعي من ميناء سبتة، فحاول ميمون أن يطمئن ولده الصغير:

- لا تحزن، فمدينة فاس شبيهة بقرطبة، فهي مدينة يهودية أسسها يهود هربوا من بابل.

- جميع مدن العالم في نظرك هي مدن من تأسيس اليهود، قال داوود متذمراً. والحقيقة أننا الآن في المغرب، وهو البلد الأصلي للذين طردونا من ديارنا.

أجاب والده:

- هؤلاء الناس ليسوا مخلدين في السلطة. وكلما كانت الأمور تسوء كانت فاس تستقبل يهود قرطبة. فعندما حدثت أعمال شغب ضد اليهود منذ قرنين من الزمن، جاء المئات من طائفتنا واستقروا على الضفة اليمنى لوادي فاس، وأسسوا فيها حي الأندلس.

ابتسم داوود:

- دائماً القصص القديمة نفسها! ولكنها ليست كلها مضحكة. هل نسيت أن زعيماً من فاس ارتكب بعد ذلك بزمن قصير

وبسبب نزوة مذبحة، راح ضحيتها ستة آلاف يهودي، فهاجر من بقي منهم على قيد الحياة إلى قرطبة، وكان عددهم قليلاً جداً...

قال ميمون:

- ولكنهم رجعوا بسرعة عندما رجعت الحياة سهلة في المغرب إبان حكم المرابطين...

رد داوود:

- لكي يعتنق غالبيتهم الإسلام منذ نحو ثلاثة عقود عندما أعلن لهم أحد المجانين عن قدوم المسيح. ويكاد لا يبقى أحد من اليهود اليوم.

قال الأب:

- هذا خطأ. لقد بقي منهم الكثير. وهذا هو قدرنا.

رد داوود غاضباً:

- المسألة ليست مسألة قدر. لا تستكن للقضاء والقدر الذي يؤمن به المسلمون. لا يوجد شيء مقدر سلفاً، ولا وجود للقدر، والله لا يتحكم بمصائر الأفراد، وإلا لماذا أراد موت أمي وأخيها؟

ولماذا أراد إخراجنا من ديارنا؟ نحن أخيار أن نؤمن بالله أو لا نؤمن به. ونحن أيضاً أخيار أن نسلم أمرنا بإرادتنا للعناية الإلهية أو أن لا نسلم أمرنا لها. ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لنا. وعلينا نحن أن نقاتل في سبيل مستقبلنا، وإذا لزم الأمر فسوف أقاتل.

اكتشفوا عند نزولهم من السفينة أن سبتة مدينة قد خلت من الأمن والأمان، مليئة بالشحاذين والفرسان، وتضج بالإشاعات وتخلو منها آداب السلوك. ولا حظوا أن الناس يتجنبون النظر إلى ثيابهم

الطويلة البنية اللون التي تتميز بها الأندلس. وعندما وصلوا إلى الحي اليهودي الذي كان فيما مضى أغنى حي في المدينة، وجدوه شبه مقفر، فحوانيت الصائغين والنساجين كانت مهجورة، وقاعات الدرس في الكنائس مقفلة. واهتدوا إلى القاعة الوحيدة التي كانت في الخدمة.

كانت ضيقة وتقع في الزاوية الأكثر انعزالاً في الحي. شاهدوا في إحدى زوايا الفناء الداخلي بعض النساء يصلين، وكان يقف بالقرب منهن رجل فارع القامة يحيط به سرب من الأطفال، وكان يوبخهم بالعربية. كان هذا الرجل هو حبر الطائفة ويدعى يهوذا واكنين إسبتي. وعندما عرفوا عن أنفسهم، انحنى لهم وقال:

- يشرفني أن ألتقي بأعضاء من العائلة العريقة التي أنجبت معلمين كثيرين لشعبنا.

ماذا جئتم تفعلون هنا؟

- نحن ذاهبون إلى فاس، أجاب ميمون.

- هل أنتم مجانين؟ كل الناس يغادرون المدينة أو يدخلون في الإسلام، وأنتم تهرعون إليها؟

يقال أن الخليفة على فراش الموت. ويقال أيضاً أنه يريد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يقضي علينا ويعود إلى قرطبة لكي يسحق الملك الذئب صديق اليهود ويتخذها عاصمة من جديد. فالوضع سوف يصبح صعب التحمل لنا جميعاً من مراكش حتى تونس. ومن يبقى في هذه البلاد لن يكون أمامه سوى خيار التخلي عن دينه أو الهلاك. ومن جهتي فأنا أكاد أكون آخر من يرحل على الرغم من أنه لا يحق لي

ذلك. وعليكم أن تفعلوا مثلي. أرجعوا إلى السفينة التي أتت بكم إلى هنا. عودوا من حيث أتيتم.

قال ميمون:

- نحن قادمون من برشلونة. وليس من المعقول أن نعود أدرجنا إلى أرض مسيحية، فهي ليست عالمنا.

- رافقونا إلى مصر، فهم بحاجة هناك إلى أطباء وتجار وأحبار. وسوف تكونون هناك موضع ترحيب.

سأل موسى:

- سوف تمرون بالأرض المقدسة؟

زمجر يهوذا قائلاً:

- الأرض المقدسة؟ إنك أكثر جنوناً من أبيك. وسط الصليبيين الذين يربطوننا إلى الأعمدة ويجعلوننا فرجة لكل الناس أو يجعلون حوافر الخيول تدوسنا؟

- أنت تبالغ!

- اسأل إيهودا حليفي رحمه الله إن كنت أبالغ.

راح ميمون وولداه يتبادلون النظرات فيما بينهم:

- إيهودا حليفي مات؟ كنا نعتقد أنه في مدرسة رابانية في حلب!

- ألا تعلمون أنه توفي؟ لقد توفي منذ زمن طويل في طريقه بين عكا والقدس. داس عليه الفرسان بخيولهم وتركوا جثته تتعفن في وسط الطريق.

- هذا ليس صحيحاً. لكنّا سمعنا ذلك، فهناك دائماً أناس يذهبون ويجيئون من هنا وهناك.

- لم يعلم أحد أنه هو الذي مات في ذلك اليوم إلى أن ذهب ابنه للبحث عنه فعثر على شهود عيان فأنطقهم الحقيقة. ومنذ ذلك الحين والوضع متفاقم. لقد فشلت قوات الملك بودوان في فتح دمشق. وقام المسلمون وعلى رأسهم قائد جديد يدعى نور الدين بشن هجوم على الصليبيين، وإخواننا محاصرون في الوسط. الوسط هو مكان سيئ دائماً. دعوني وشأني الآن فأنا مشغول بأمور كثيرة. علي أن أجهز مخطوطات التوراة، فلا مجال للتخلي عنها. ارحلوا من هنا وإلا كان الموت من نصيبكم. ولتكن السماء معكم في الحالتين.

لم يرجع موسى عن رأيه في التوجه إلى فاس على الرغم من نصائح يهوذا وعلى الرغم من إلحاح داوود. وبعد أن اشتروا مستلزمات السفر من خيول وحمير ومعدات غادروا سبتة دون إبطاء إلى المدينة المقدسة، ووصلوا إليها بعد رحلة كانت منهكة ومضنية على ميمون.

وقال الشيخ محدثاً نفسه إنه لن يلبث طويلاً حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. ولم يكن يقوي من عزيمته سوى الأمل في رؤية أصدقائه القدامى والتحدث عن الماضي الجميل الذي قضوه فيما مضى في قرطبة سوية.

ولم يكن موسى يركز تفكيره إلا في العثور على المخطوط والانطلاق به إلى مصر بأسرع ما يمكن. ولم يكن داوود يتطلع إلا إلى الهرب في أقرب وقت والرحيل إلى الهند.

بحثوا عن حي الأندلسيين حيث كان يعيش فيه آخر أحفاد المنفيين من قرطبة. ومروا بمصابغ الجلود التي كانت تفوح منها الروائح الكريهة، ومروا أيضاً أمام مسجد الأندلسيين، وكان بابه

الشمالي الضخم المزخرف بالميناء والمزين بطنف من الخشب المحفور شهيراً في طول بلاد الإسلام وعرضها. استقروا في نزل في فاس el-Bali مقابل مدرسة[1] بو حنانيا المخصصة للمسافرين اليهود. وهي الآن تكاد تكون خالية، فمن يرغب في الإقامة في فاس؟ لم يكن هناك سوى بعض التجار واللاجئين القادمين من الجنوب والمتجهين إلى موانئ الشمال، وبعض أهالي فاس الذين باعوا ممتلكاتهم وهموا بالرحيل.

كره موسى هذا البيت على الفور، فقد حفر على الواجهة الخشبية للباب من جميع جوانبه ثلاثة عشر كأساً وليس أربعة عشر، وهذا نذير شؤم. وقد صدق حدسه عندما جاءه صاحب النزل ليخبره أن رسولاً قد ترك له رسالة. ودون أن يفضها خمن موسى ما يمكن أن تحوي، واستشعر بتهديد الموت يعود للمرة الثالثة. فتح الرسالة وقرأ:

«أنت مخطئ إذ تلح. لم تعرّف عن نفسك بوسائل عالمنا، وأنت لست واحداً منا. وعندما تحصل على ما لا يخصك سوف تلقى حتفك.»

«اليقظانون.»

شعر موسى بالخوف يمسك بخناقه. فهم لن يتركوه إذاً وشأنه. وهم كانوا إذاً يتعقبونه منذ اليوم الأول. وبالتالي فهم يعرفون كل شيء عن بحثه. وما زالوا بانتظاره في فاس. إن طريقه مفروش بالأموات ابتداءً بإليفار إلى دو سوزا. ترى من سيكون التالي؟ هو بلا شك.

يجب أن ينتهي من هذا الأمر بسرعة. ويجب ألا يتعفن هنا. سيغادر غداً النزل باكراً جداً وسيذهب للبحث عن ابن شوحانا.

١ـ madrasa كانت تطلق هذه الكلمة على المدرسة الملحقة في الجوامع في المغرب، وكانت مخصصة لدراسة القرآن وأمور الدين.

وما أن أصبح خارج النزل حتى انقضت عليه ثلة من الفرسان، ولم يفلح في النجاة منهم إلا بفضل ملجأ اختبأ فيه. ثم تابع سيره بعد أن هدأ روعه. وقال بينه وبين نفسه مطمئناً أن ذلك لم يكن سوى مصادفة بلا شك، فهجوم الفرسان لم يكن يقصده هو بالذات.

عثر موسى على ابن شوحانا في كنيس متواضع في حي الأندلس يقع في عمق زقاق مائل، و يخيل إليك أنك في بيت عادي. عبر الفناء الصغير الذي تحيط به جدران عالية تغطيها النباتات المتسلقة، ثم دخل من باب ضيق إلى قاعة الصلاة وكان لها شكل مربع كبير يدعو للعجب، وجدران ملبسة بخشب نقشت عليه كتابات من التوراة. وكان على شمال المدخل غرفة صغيرة فيها صبية يتدربون على فن الخط، وفي نهايته درج يؤدي إلى بيت الطهارة. وكان بهو النساء يقع في الأعلى لكنه كان خالياً. كان يتوسط القاعة حبر طاعن في السن يقرأ بمفرده بعد قداس الصباح.

شعر موسى بالقلق الشديد، فلا بد أن يكون هذا الرجل النحيل الذي يطلق لحية طويلة بيضاء هو ابن شوحانا، العلامة الوحيد الذي كان والده معجباً به. كيف يمكن لهذا الحبر القادم من بغداد أن يكون على علاقة بمترجم من طليطلة وبطبيب من ناربون، وكلاهما مسيحي؟

كان فرصته الأخيرة للحصول على المخطوط السري. كيف يسأله عنه؟ أينبغي أن يروي له أن معلماً مسيحياً أرسله إليه قبل أن يموت غيلة؟ وهل ينبغي أن يظهر له القطعة الذهبية؟

قرر الفتى أن ينتظر الوقت المناسب حتى لا يخيفه. اقترب من الشيخ المستغرق في صلاته.

- صباح الخير، أيها المعلم. أدعى موسى بن ميمون.

تفحصه الشيخ مطولاً وقال:

- أعرف هذا الاسم. هو من أشهر الأسماء في عالم السفارديم. هل أنت حقاً ابن ميمون من قرطبة؟

- نعم، أنا واحد من حكماء الأندلس الأكثر تواضعاً والذي عانت شهرته كثيراً من النفي.

- والدك صديق وحكيم كبير جداً. هل هو معك هنا؟

- إنه يرتاح من عناء السفر. وطلب مني أن أنقل إليك تحياته.

- والدك رجل عظيم. سأسعد كثيراً برؤيته والتحدث معه. وهذا ما يخفف من وحدتنا. عليك أن تكون فخوراً به وجديراً به. وأين أخوك؟ لك أخ، أليس كذلك؟

- هو معنا. وهو بمثابة ابني وتلميذي. إنه يعمل ويكسب مالاً لكي يساعدني على الاستمرار في التعلم. وهو متبحر في التلمود وهو أيضاً نحوي بارع.

ابتسم الحبر ابتسامة حنونة كأنه يغفر لموسى كذبته:

- إنه لأمر حسن أن يفتخر المرء بأخيه... وما هي أخبار أمك؟

- توفيت أمي وتركتنا محبطين في بلد أجنبي.

- وخالك، أين هو؟

هل كان ابن شوحانا يعرف إليفار أيضاً؟

- أخو أمك، تابع الحبر كلامه. علمت بما حصل له. كان حقاً رجلاً رائعاً... رائعاً!

لماذا شعر موسى أن الشيخ قد توتر فجأةً؟ همس موسى قائلاً:

- عندما تقع عيني مصادفة على كتاب من كتبه أو على خط من خطوط يديه، يكاد قلبي ينفطر من شدة ألمي. وغالباً ما كنت أظن أنني استسلمت للحزن في أعقاب رحيله عن الوجود. ولو لم تكن دراسة التوراة بالنسبة لي أنساً ومتعة، ولو لم تكن دراسة العلوم لي تفريج هم، لساءت صحتي يوماً بعد يوم.

- ليس عليك أن تموت، فليس هذا ما كان خالك يريده. كان يضع فيك آمالاً كباراً، فهل تفكر أو تعتقد أنك أصبحت عالماً مثله؟

- كلا، ليس بعد. فعلى الرغم من دراستي ليل نهار لوصايا ربنا، لم أستطع أن أصل إلى مستواه نظراً لقساوة العيش والقمع الذي نتعرض له. اقتفيت بأمانة آثار الحاصدين وجمعت السنابل الجميلة وغير الجميلة، ولولا عون من الله لما استطعت أن أجمع العلم الذي أمتلكه وما زال ينفعني إلى اليوم. أضف إلى ذلك أنني لم أستطع أبداً العيش بأمن وسلام، فكيف السبيل إلى الدرس والنفي يلاحقنا من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى آخر؟

- أنا أدرك ذلك. ولكن لماذا أتيتم إلى هنا بينما الجميع يعمل على الرحيل من هنا؟

تردد موسى في البداية، ولكن كان ينبغي عليه أن ينتهي من هذا الأمر. قال:

- هل اسما جيرار الكريموني وألبيريك دو مونبا يذكرانك بشيء؟

أحس موسى أن جسم الحبر المسن قد تصلب من الخوف. ألقى نظرة حولهما فلم ير أحداً. وران الصمت بينهما. فأخرج موسى من جيبه القطعة الذهبية الثقيلة ومدها لابن شوحانا الذي تفحصها مطولاً وكأنه أمام شيء يستحق الإجلال. وشعر أن الشيخ ينتحب أو يصلي صلاة صامتة.

قال الحبر أخيراً وقد تغير صوته:

- هكذا إذاً، فأنت من اختاره... فتى! فتى!... كان إنساناً عظيماً، كان أفضل واحد بيننا...

فهو لم يخطئ في اختياره.

نظر الشيخ حولهما من جديد كما لو أنه يخاف أن يكون مراقباً في وسط الكنيس القفر. همس قائلاً بصوت ضعيف كأنه يكلم نفسه:

- آمل أن يستقبلك بسرعة، وبعدها ترحل.

- «يستقبلني؟»

- سأشرح لك. ولكن قل لي أولاً، فنحن هنا معزولون عن العالم، كيف رأيت المناطق التي قطعتها؟

كان موسى يود العودة إلى موضوع المخطوط، ولكنه لم يجرؤ.

- ما زالت طليطلة والبروفنس تستقبلان اليهود، ولكن لا أحد يعلم إلى متى. وطوائفنا مهددة بالانقراض حيثما وجدت، إما عن طريق اعتناق ديانات الآخرين أو عن طريق الاكتشافات العلمية.

- هل تعتقد أنه علينا أن نحارب العلم كما نحارب التخلي عن الدين؟

فهم موسى المغزى، فقد كان هذا السؤال كالسؤال الذي طرح عليه في طليطلة أو في ناربون. وكان موضوع السؤال في كل مرة مختلفاً. قرر أن يدخل في اللعبة:

- كلا، فالحقيقة تبقى هي الحقيقة. وأعتقد أنه لا يهم من ينطق بها حتى لو كان إنساناً وثنياً.

إن المستقبل منوط بالعلم، فينبغي إذاً تعلمه قبل اللاهوت حتى لا يقضي على الإيمان.

- أنا لا أفهم شيئاً في العلم. فهل تعتقد أنه يستطيع القضاء على الإيمان؟

- إذا لم ينتظم الإيمان ضمن دستور، وإذا لم يوجد أحد لكي يسن هذا الدستور ويشرح كيف يصون المرء هويته دون أن ينفي العالم، نعم فالعلم سوف يهدم الإيمان.

اعترض الحبر قائلاً:

- ولكن هذا الدستور موجود، إنه الميشنا الذي كتبه معلمون في القدس منذ ألف سنة.

قال موسى محاولاً إقناعه:

- الميشنا دستور صعب معقد وثقيل جداً، ولا أحد يقرأه اليوم. وشعبنا معرض لخطر الزوال لأنه يجهل كيف يصون هويته. فيكفيه من أجل ذلك أن يتبع وصايانا، ويستطيع كل واحد منا ذلك أياً كان مستواه المعرفي أو وضعه الاجتماعي، أو في وضع يتعرض فيه للقمع. وينبغي أيضاً أن نشرح لإخواننا لماذا من الأهمية بمكان إطاعة وصايا منافية للعقل في ظاهرها بينما يبدو أن العقل يبعدنا عنها أكثر

فأكثر. لأنه من الممكن أن نشرح للجميع أن العلم يستطيع أن يمدنا بأسباب الإيمان.

سأل ابن شوحانا:

- أتعتقد أن إيماننا يمكن تفسيره بوساطة العقل؟ ولكن حكماءنا لا يثقون بالعلوم. فهم يخافون مما قد تعلمنا، ولا تنسَ أن التلمود يحظر التفكير «فيما هو فوق وفيما هو تحت، فيما هو أمام وفيما هو وراء».

أجاب موسى:

- أعرف هذا النص وجميع التعليقات التي كتبت بشأنه. لا تظنني غراً. فسعديا غون يفسر على سبيل المثال أن هذا النص يحثنا على توخي الحذر أثناء التفكير في طبيعة اللانهائي، اللانهائي في المكان («فيما هو فوق وفيما هو تحت») واللانهائي في الزمان («فيما هو أمام وفيما هو وراء»). لأن اللانهائي يتجاوز تفكيرنا، وعلى الإنسان أن يكون عالماً كبيراً لكي يغامر في التفكير فيه. ولكن هذا ليس بمحظور، فالعلم يقربنا من الله.

- أرى أنك لست مبتدئاً، ابتسم الحبر. وأضاف بتأثر: هل هو خالك من علمك ذلك؟

- نعم.

- ولم يعلمك شيئاً عن الإغريق؟

- قد يكون بالفعل علمني أفكار بعض الإغريق...

تفحص ابن شوحانا موسى في وجهه، وكاد يتكلم ثم تدارك نفسه وقال بلهجة مختلفة تكاد تكون لهجة مازحة:

- قيل لي إنك طبيب ماهر؟

- لست سيئاً. لماذا تسأل؟

- حسناً جداً. ستعمل إذاً طبيباً، فنحن بأمس الحاجة إلى طبيب.

- لكنني أريد فقط أن أحصل على الكتاب والرحيل بعد ذلك...

- ليس الأمر بهذه البساطة. ولا شيء بسيط في مصيرنا. يلزمنا بعض الوقت للتحقق من بعض الأمور.

- تتحقق من أي شيء؟

- ستأتي إلى هنا صباحاً للتعلم ومداواة من يأتي من المرضى. وبعد الظهر ستستقبلهم في منزل والدك باركه الله. استأجر منزلاً جميلاً، فكثير من المنازل خالية من السكان لسوء الحظ.

إن تطبيب الجسم هو طريقة لدراسة خلق الله. وبذلك تكون نافعاً لطائفتك.

- ولكن هذا التحقق الذي تتكلم عنه، من سيقوم به؟ وكيف أعرف أنه تم؟

تناول الشيخ رقاً من جلد الغزال ورسم عليه بعض الإشارات لم يستطع موسى أن يفهمها.

- سيأتي أحدهم قريباً لكي يقودك في مدينة الأندلس la Médina al-Andalous إلى أحد التجار المسلمين ويدعى المنصور الغربي. وهو يتاجر بالحرير المصنوع في المنطقة، ويصدره إلى أنحاء العالم. فلديه شيء سيقوله لك، وربما سلمك شيئاً ما في يوم من الأيام.

وهكذا إذاً فبحثه لم ينته بعد. ينبغي عليه أن يبقى في فاس بضعة أسابيع على الأقل. شعر موسى بالقلق وتساءل إن كان والده وأخوه سيمارضان ذلك.

وابتداءً من اليوم التالي انتشر خبر بين أفراد الطائفة اليهودية عن وصول طبيب جديد أفضل بكثير من الأطباء الذين بقوا في المدينة. وطفق المرضى بالتوافد إلى الكنيس وإلى النزل حيث تسكن عائلة ميمون. وبدأ موسى باستقبالهم إذ بات مقتنعاً أن وجوده هنا سيكون لبعض الوقت.

وفوجئ الجميع بالأسئلة التي كان يطرحها على المرضى وبالعقاقير التي كان يصفها لهم مثل أكل رئة القنفذ وقسر النفس على الضحك وعدم خشية الموت. وكان البعض يقولون إنه ساحر جاء من طليطلة، مدينة السحر والشعوذة. وكان البعض الآخر يعلنون أنه يتبع الطب الإغريقي.

وكان آخرون أيضاً يؤكدون أنه طبيب مصري بعد أن رأوا عنده صيدلية كاملة تحوي مختلف أنواع الأدوية المضادة للسموم التي تعلمها من ألبيريك دو مونبا.

سعى داوود في هذه المدينة المنفتحة على جميع المنافذ إلى شراء بعض الأحجار الكريمة وبيع بعضها الآخر. وعلم ميمون من خلال بحثه عن أصدقائه القدامى بالمصير المأساوي لابن عباس، وكان ما يزال يظنه في فاس.

فعندما وصل الموحدون إلى المدينة قبل خمس عشرة سنة، عزم ابن عباس على الرحيل إلى حلب في سوريا حيث كان يعيش فيها عدد من الأدباء اليهود الهاربين من بطش الموحدين.

وكان برفقته ابنه صموئيل، وكان عالماً وشاعراً ورياضياً. وعندما رأى ضعف اليهود في الأماكن التي مرا بها، افترق عن والده في حلب واعتنق الإسلام ووضع نفسه في خدمة حاكم مرغا في أرمينيا. ونشر هناك رسالة قدح وذم باليهود، وتحمل عنوان «عار اليهود»، وينتقد فيها والده بالذات وأفضل صديق لوالده واسمه إيهودا حليفي. أصيب ابن عباس الطاعن بالسن باليأس، وذهب للبحث عن ولده لكي يتوسل إليه أن يرجع إلى دينه. بدأ برحلته عبر بابل، وكانت رحلة تفوق طاقته الجسدية والمادية، فمات في طريقه إلى الموصل.

تأثر ميمون كثيراً عندما سمع بهذه المأساة، ورأى فيها صورة مصغرة لما يتهدد الشعب اليهودي، ألا وهو انقراضه بسبب كرهه لنفسه.

وبعد أسبوع جاءت عجوز متشحة بالسواد إلى عيادة موسى. ولم تكن والحمد لله بحاجة لأن يطببها، وطلبت منه أن يذهب معها في الحال إلى سيدها الذي كان في انتظاره. ونطقت له باسمه: المنصور الفربي، وهو الرجل الذي كلمه عنه ابن شوحانا. أخيراً جاء الفرج.

صرف موسى على الفور جميع المرضى ومشى وراءها. غادرا الحي اليهودي وظلا يسيران إلى أن وصلا إلى بيت جميل في وسط المدينة القديمة. تركته الخادمة في فناء فخم جداً وأشارت عليه بالانتظار. انتظر وظل ينتظر إلى أن جاء عبد وأدخله على شيخ فارع القامة مصفر الوجه مائل العينين. ودهش موسى لرؤية آسيوي متنكر بزي بربري. نظر إليه الشيخ نظرة عدائية في صمت.

همس موسى قائلاً:

- قال لي الحبر ابن شوحانا إنك تريد رؤيتي...

أجاب الآخر بصوت يخلو من التهذيب:

- أخبرني صديقي ابن شوحانا أن لديك شيئاً تريد أن تظهره لي.

أخرج موسى القطعة الذهبية، فأصيب التاجر برعشة، ثم مد يده ليأخذ القطعة، لكنه غيّر فجأة رأيه وامتنع عن تناولها.

- كان ذلك صحيحاً إذاً. أمر لا يصدق... اثنان... ولكن لماذا فعلوا ذلك؟ ومن نقض...

- أنا لا أفهم ما تقول.

- لست بحاجة للفهم، فهذا الأمر لا يعنيك إلا إذا... من أعطاك هذا؟

- لست مخولاً بأن أقول لك.

- أعلم... أعلم... ثم همس التاجر قائلاً:

- لا أعلم إن كنت عضواً في جماعتنا أو جاسوساً. وفي الحالتين خبئ هذا الغرض، وخبئه جيداً ولا تتركه عندك. ضعه في مكان لا يستطيع أحد أن يعثر عليه. سأطلبه منك ذات يوم. وإذا كان ما أظن صحيحاً فأنت في خطر، أو تكون أنت الخطر، وربما الاثنان معاً.

توقف الشيخ عن الكلام واتجه بنظره إلى ما وراء موسى فأضاءت ابتسامة قسمات وجهه. استدار موسى فرأى امرأة شابة، وكانت قد دخلت خلسة. لم تكن محجبة، وهذا ما كان يدعو للعجب من شابة من فاس. ودون أن تسبل عينيها الواسعتين حدقت بموسى الذي كان قد تحجر لرؤيتها، لأنها أولاً تشبه صديقة طفولته ربيكا، وثانياً لأنه لم يكن يعرف امرأة في طولها الفارع، وأخيراً لأن جمالها يبهر الأبصار.

تذكر موسى ابن عزرا، فأين هو الآن هذا الصديق الذي اشتاق إليه كثيراً؟ وتذكر أيضاً هذه القصيدة الفارسية التي كان يحب أن ينشدها:

«كم هو وضيع هذا القلب الذي لا يحسن أن يحب

ولا أن يسكر من نشوة الحب.

إن كنت لا تحب،

كيف تستطيع أن تعجب بنور الشمس الساطع

وبضوء القمر العذب؟»

وكان يقف خلف المرأة رجل بدا لموسى أنه يكبره بعشر سنين، وكانت تبدو عليه إمارات الدهشة لرؤيته. وراح التاجر ينظر إليهما برصانة:

- اسمحا لي أن أعرفكما على بعضكما بعضاً: موسى ابن ميمون، فيلسوف وفقيه وطبيب. ومحمد ابن رشد، فيلسوف وفقيه وطبيب. وكلاهما من قرطبة، وكلاهما جاءا إلى مدينتنا لأسباب مختلفة. وإذا كان فهمي في محله فقد انتظر أحدكما لكي يصبح عمره ثماني وثلاثين سنة، والآخر سبعاً وعشرين سنة حتى تلتقيا. وإذا كان فهمي في محله فكلاكما يحمل قطعة ذهبية نادرة جداً، ولم يبق منها إلى اليوم في العالم سوى أربع عشرة قطعة. وكلاكما جئتما لتطلبا مني مخطوطاً لا يحق لي تسليمه وفقاً لقانون عمره أكثر من ألف سنة إلا لشخص واحد فقط. تصوروا إذاً مبلغ دهشتي وقيامي بمعرفة أي منكما نصّاب يستحق أن ينتهي على المحرقة.

وإذا كان أحدكما قد سرق هذه القطعة يستطيع أيضا أن يسرق بعض أسرارنا، ويعرف بعض أسمائنا، وربما يقتل بعض أفراد جماعتنا. ولكي أميط اللثام عن هذا اللغز فأنا لا أنتظر شيئاً منكما. إن ما قد يقوله كل منكما الآن قد لا ينورني. فسوف أقوم برحلة متزامنة مع تسليم بعض البضائع. وحتى ذلك الحين عليكما بالانتظار. عدة شهور...

- عدة شهورا تعجب موسى الذي كان يفكر في الرحيل إلى الإسكندرية بأسرع وقت.

- عدة شهورا تنفس ابن رشد الذي كان يأمل بالعودة إلى قرطبة في أقرب وقت.

تابع التاجر كلامه:

- وفي أثناء هذه الفترة، يمارس كل منكما عمله كطبيب، أو كمعلم. افعلا ما تشتهيان، ولكنكما سوف تنتظران. فاعتباراً من اليوم اعتبرا نفسيكما تحت الإقامة الجبرية. أنتما تحت سيطرة رجالي، ولا أنصحكما بالهروب أو بتبليغ شرطة الخليفة عن كل هذا، فسوف تلجأ لتعذيبكما لتنتزع منكما القطعتين الذهبيتين. وكم هي الإمبراطورية بأمس الحاجة لمثل ذلك! دعني يا موسى مع ابن رشد واذهب برفقة ليلى.

خرج موسى تتقدمه ليلى دون أن تنبس ببنت شفه. كان الشاب مصعوقاً بجمال الفتاة التي يسير وراءها. ولم يتصور أبداً أنه سيحس بمثل هذه العاطفة. عليه أن ينتظر مثل السجين.

وفجأة لمعت في ذهنه فكرة جنونية، فأخرج القطعة الذهبية ولما صار بجانب الفتاة همس في أذنها قائلاً:

- قال لي والدك أن أخبئ هذه القطعة بحيث لا يدري أحد أين هي. وهو نفسه غير مصر أن يعرف مكانها. فأرجوك أن تخبئيها لي، ولن يخطر ببال أحد أنها في حوزتك. لا تكلمي أحداً في هذا الأمر أرجوك فهو في غاية الأهمية.

بدت الفتاة مترددة ونظرت في عينيه مباشرة ثم ابتسمت وأخذت القطعة دون أن تقول شيئاً. لامست يدها يد موسى فأحس بقشعريرة.

وعادت إلى المنزل بعد أن تركته نهباً لاضطراب شديد في وسط الشارع.

في هذه الأثناء كان التاجر يستجوب ابن رشد:

- كيف تفسر أن يهودياً جاء إلى فاس حاملاً القطعة نفسها التي تحملها؟

- ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك.

- من أعطاك هذه القطعة؟

- ليس لي الحق أن أقول لك من هو.

- هو من أرسلك إلي؟

- كلا. قال لي الذي سلمني هذه القطعة أن أذهب إلى طليطلة وأسأل عن شخص اسمه جيرار الكريموني، وهو بدوره أرسلني إليك. هل يذكرك هذا الاسم بشيء؟

- هذا ممكن.

- كيف ستتحقق من أنني لست نصّاباً؟

- ينبغي أن أعود إلى مصدر ما، وأن أقابل بعض الأشخاص البعيدين جداً من هنا. لا تسألني أكثر من ذلك، فليس في نيتي أبداً أن أكشف أسراري لنصّاب.

وأضاف التاجر وهو ينظر مباشرة في عينيه:

- حتى لو لم يستطع مطلقاً مغادرة هذه المدينة. أما القطعة التي أظهرتها لي، فخبئها ولا تجعل أحداً يراها أبداً، ولا سيما موسى. وانتظر حتى أطلبها منك ثانية، فإما أن تقودك إلى المخطوط وإما أن تقودك إلى المحرقة. دعني الآن وحدي.

خرج ابن رشد مشدوهاً وقلقاً على نحو غامض. فعليه أن يقضي الشهور هنا، وهذا ما لا يستطيع إليه سبيلاً، ولا سيما إذا كان الخليفة يستعد للرحيل إلى قرطبة من جديد. لمح أمام البيت موسى الذي كان يبدو في انتظاره.

قال الحبر الشاب:

- هل تحب أن تمشي معي قليلاً؟

أجاب ابن رشد:

- بالطبع، فليس لدينا سبب يجعلنا عدوين لبعضنا بعضاً. ما دامت خدعتك لم تتكشف على الأقل.

- كنت سأقول لك الشيء نفسه... والدك ووالدي كانا صديقين، وكذلك جدك وجدي. وها نحن خصمان يواجه كل منا الآخر في نزال حتى الموت.

- هذا ما رسمه القدر لكلينا.

- لأنك تؤمن بالقدر؟

- أظن أنه لا أنت ولا أنا هنا بمحض المصادفة.

- بالفعل. ولا أحب أن أفكر أنه عليك أن تموت عندما تظهر الحقيقة.

- سوف نرى من منا سوف يموت. ضيفنا قال إنك طبيب؟

- نعم، أنا طبيب.

- حسناً، سنرى إن لم تكن أنت النصّاب، قال ابن رشد. مم يشتكي؟

- الكندي؟ التشخيص سهل: إنه يعاني من الربو وهو يحتاج إلى طعام خاص.

- هو لا يحتاج سوى استنشاق الهواء النقي والإكثار من النوم والقيام ببعض التمارين الرياضية.

- إنه مريض جداً ، وربما يكون قاب قوسين من الموت.

- هذا تشخيص دجّال. هل عاينته بدقة؟

- ليس هذا ضرورياً ، أجاب موسى. لا فائدة من تفحص المريض لمدة طويلة ، فالمهم هو أن تتكلم معه. فاستماعي إليه لوقت قصير كان كافياً لأفهم أن هذا الرجل يعاني من كرب فظيع. وتوتره يرجع إلى حزن بالغ أو محنة شديدة أو حيرة لا حدود لها. وهنا يكمن سبب مرضه.

ومن أجل تقديم الراحة لمثل هؤلاء الناس وتجنيبهم أسوأ العذاب، فإن تناول السوائل العادية لا يأتي بأي عمل مفيد ، لذلك ينبغي أن نكلمهم ونفهمهم أن الألم ليس في الجسم فقط.

قال ابن رشد موافقاً :

- أنا متفق معك في هذا النقطة. فالطبيب الماهر عليه أولاً أن يصغي دون ملل أو كلل إلى أسرار الجسم البسيطة. وإلى استرواحهم وجبنهم أمام الموت، فالناس لا يمكنهم تصور الحياة إلا مجسدة في الجسم، وكل ما ليس جسماً لا وجود له في نظرهم. ومع ذلك الحياة تكمن في النفس، وبتحريرها نشفى من الألم. وعلى كل حال باتباع هذه الطريقة أنوي أن أصبح ذات يوم أعظم طبيب في قرطبة.

- تريد إذاً أن يقال يوماً أنها كانت مدينة ابن رشد ، الطبيب العظيم.

- على الأقل بقدر ما تريد أن تشتهر قرطبة على أنها مدينة موسى بن ميمون، الطبيب العظيم.

الفصل الخامس

٥ كانون الأول ١١٦٤،
غارة عاشوراء
١٨ كسلو ٤٩٢٥ - ١٨ محرم ٥٦٠

كان أول صيف بعد وصولهم إلى فاس جافاً جداً. فكان لا بد من تقنين الماء على الدباغين والصباغين. ولم تعد الطواحين التي تسقي أشجار ليمون الحاكم تعمل إلا ساعات قليلة في الليل. وكانت المحاصيل في حالة يرثى لها. ومات الكثيرون في المدينة والقرى المجاورة من العطش والجوع. وتضرع علماء الدين والأحبار إلى السماء لتغفر للمؤمنين خطاياهم. وتردد عدد كبير من الفلاحين في الرحيل عن المنطقة لعلمهم أن القحط كان عاماً وأن مزارع الأندلس وفرنسا وإيطاليا تعرضت للمصير نفسه، ولا سيما حدائق طليطلة الشهيرة جداً التي كادت أن تيبس من قلة الماء.

ظهرت بواكر الغيوم في الأفق بعد بداية الخريف بسبعة أسابيع. وبدأ المطر بالهطول بعد عشرة أيام. هطل المطر في البداية متقطعاً، ثم انهمر مدراراً. ففرح أهالي فاس ورقصوا على سطوح المنازل. وطاف الناس

في الشوارع ابتهاجاً مع بدء السقاية وعودة الخضار والفواكه إلى الأسواق. وأعلن الحاكم أن السماء قد أمطرت أيضاً في الجهة الأخرى من المضيق، وأن بساتين البرتقال في الأندلس نجت بأعجوبة من الجفاف. وأضاف ساخراً أن المطر كان شحيحاً عند المسيحيين، فمحاصيل نافار قد تلفت واضطر ملك قشتالة الشاب الذي استعاد طليطلة لتوه من الأحزاب المتخاصمة أن يمد يده إلى ما تبقى لديه من احتياط الذهب ليستورد كميات كبيرة من المؤن، يسد بها أفواه الأهالي الجائعة التي دفعها رجال الوصي السابق على العرش إلى التمرد والعصيان.

رأى بعض علماء الدين في هذه التقلبات المناخية دليلاً آخر على تفوق الإسلام. وشرح بعض أساتذة الجامعة أن الله العلي القدير قضى أن يمد المسلمين بوسائل الانتصار على الكفار انتصاراً نهائياً. وأضافوا أن المناخ سوف يساعد إمبراطورية الموحدين على استعادة طليطلة وبرشلونة وناربون وبوردو.

هز ابن رشد كتفيه وقال لطلابه واثقاً أن الله لديه أمور أخرى غير الاهتمام بأمر المطر والطقس الجميل فأثار بذلك حفيظة علماء الدين. وقال أيضاً بأن وضع الإمبراطورية لا يبرر مثل هذا الاعتداد بالنصر. فلم يعد الموحدون في الواقع واثقين كثيراً من بقاء حكمهم، ولم يعد إسلام الأندلس في موقع الفاتح. كان المسيحيون و «الملك الذئب» يشنون الغارات على قرطبة.

غادر الخليفة برفقة ابنه وابن طفيل وأعضاء حكومته مراكش على رأس جيشه ليقود بنفسه الهجوم من الجهة الأخرى للمضيق، على الرغم من شدة إعيائه وتزايد آلام بطنه الفظيعة.

و راح الجميع بسبب خطورة مرضه يتكهنون بخليفته من بعده، وكان كثيرون يقولون إن ابنه لن يفلح في التصدي لطموحات الأعيان القدامى الذين يجدونه ذا ذهنية منفتحة تولي اهتماماً مفرطاً للثقافة. وبدأ علماء الدين والموظفون وقادة الجند ورجال السياسة والدعاية يقفون إلى جانب الطامعين في العرش. كان يسود في أرجاء الإمبراطورية كافة جو ينذر بقرب نهاية الحكم. وفقد الكفار الذين كان البعض يعتب عليهم أنهم متحالفون مع البعض الآخر اعتبارهم. وغادر معظم المسيحيين الأندلس والمغرب، ولم يبق سوى عشرة آلاف من اليهود الذين سارعوا إلى التمركز بكثرة في أحيائهم باستثناء واحات الجنوب وفاس، حيث كان اليهود مازالوا يعيشون بصورة تدعو للدهشة كما لو أن شفيعاً خفياً كان يجنب هذه المدينة الكوارث العامة.

وكان اليهود المدركون لهذا الأمر يتوافدون إلى الغيتو الفاسي le Mellâh fassi الذي كان يعج بالنساء والأطفال واللاجئين من كل صنف ولون.

استقر ابن رشد وموسى في حياتهما الجديدة بانتظار عودة الكندي. وكان كلاهما يمارس الطب. وكان ابن رشد بالإضافة إلى عمله يدرس في الجامعة بينما كان موسى يعكف على الدراسة في الكنيس. وكان كل منهما يعلم أنه يعيش مهمشاً ضمن طائفته، وأنه يخفي جرأة قناعاته الفلسفية وسبب وجوده الحقيقي في فاس. وكان كل منهما يذهب كل أسبوع تقريباً إلى منزل الكندي ليحاول الحصول على أخبار عن رب المنزل. وبشكل عام كانت ليلى تقف

خلف شبابيك إحدى نوافذ الطابق الأول المطل على الفناء الداخلي حتى يعود الزائر من حيث أتى. وكانت أحياناً تنزل محجبة ونادراً ما كانت تنزل سافرة لتقول بأن والدها بعث لها برسالة يخبرها فيها أنه مر في هذه المدينة أو تلك. ففي كل أسبوع كانت تتكلم عن باريس ولندن وكولونيا وروما والقسطنطينية والإسكندرية والقدس والموصل. وبعد ذلك لا شيء، فبدت قلقة وبات ظهورها نادراً.

وقع الشابان تحت سحر قامتها المشوقة المختلفة عن قامات فتيات المنطقة، وسحر صوتها المتميز والذي كان يزيد في تمايزه لهجتها في تكلم اللغة العربية.

كانت ليلى بشكل يدعو للفضول تميل إلى موسى على الرغم من أنه ليس مسلماً. ربما لأنه كان أصغر من ابن رشد سناً أو أطول منه قامة أو أشد منه هوى.

كان ابن رشد في الواقع أقل اهتماماً بها من موسى، فقد كان يقضي جل وقته عند الحاكم ليعلم إن كان الخليفة قد نجح في فك الحصار عن مسقط رأسه. وكان يخشى قبل كل شيء على حياة والده وعلى مصير المكتبة الضخمة، وهي في نظره أقدس مكان في العالم. وكان يقضي بقية وقته في الدراسة والكتابة والتحضير للدروس. وكان يحس في كل ذلك بغبطة ونشوة. فالتفكير برأيه هو علة حياته، وهو إحساسه بمتعة خالصة لا تستقي قوتها إلا من ذاتها، وهو شعوره لمدة قصيرة جداً بحياة مماثلة لحياة الله، أي إحساسه إحساساً خاطفاً بما يحس به الله بصورة سرمدية.

أما بالنسبة لمحاضراته، فقد اتبع ابن رشد نصيحة والد ليلى التي أسداها له في أول لقاء بينهما في جامعة القرويين، ألا وهي الامتناع عن التحدث مع المبتدئين أو المتبحرين. وبذل قصارى جهده ليكتب عن مداخلاته ثلاث نسخ مختلفة: يكتب أولاً نصاً بسيطاً لعامة الطلاب، وثانياً نصاً أكثر تعقيداً موجهاً لعلماء الدين في اجتماعاتهم، وأخيراً احتفاظه بشروحه المفصلة تفصيلاً كبيراً وتعليقاته الجريئة جداً للطلاب الأكثر تقدماً في الفلسفة والعلوم والذين كان يستقبل كل واحد منهم على انفراد. ووجد منافع جمة في مثل هذا التمرين الذي كان يدفعه لتوضيح أفكاره، فرأى أن حظ أي تقديم في أن يكون صادقاً هو بقدر ما يكون بسيطاً. بيد أنه كان في أغلب الأحيان لا يتوانى عن إظهار بعض التحدي أمام رجال الدين:

- يكون الطفل عند ولادته في بلد ما أو عائلة ما أو دين ما على الفطرة التي خلق الله عليها الإنسان عند خلقه لآدم. فالتربية التي يقوم بها الأئمة أمثالكم أو التي يقوم بها الأحبار أو الكهنة لتجعل منه مسلماً أو يهودياً أو مسيحياً قد تغير من طبيعة هذه الفطرة. ولكي نحافظ عليها أو نعيدها إلى ما كانت عليه، يتوجب على كل امرئ الجهاد ولا أعني الجهاد المقدس ضد الكفار وهو ضروري أحياناً، وإنما جهاد النفس المفروض على كل واحد ليبقى على الصراط المستقيم في الشريعة. وهذا لا يتم إلا بالإرادة، فكفّوا عن التوجه إلى الله لكي تسألوه أن يعيد إليكم فطرتكم الذاتية. عليكم أنتم أن تصلحوا ذاتكم بالسيطرة التامة على شياطينكم. وإذا توجه كل

واحد إلى الله لأسباب ذاتية خاصة، فسيوقف تركيزه على الوجود الكوني، وستصبح الحياة ذكرى مشوشة في عقل الذكاء الأسمى، وسيمسي الذين ماتوا كأنهم لم يخلقوا. أهذا ما تريدون؟

كلا؟ فلا تعطلوا إذاً أيام الله بتوسلات تفصيلية وضعوا ثقتكم بحريتكم وبفكركم النقدي وبقدرتكم على التحليل.

ثارت ثائرة علماء الدين مما اعتبروه تجديفاً، وأحسوا بالغيظ مما ظنوا أنهم يعرفون عن طريقة حياته، فطالبوا بطرد ابن رشد من التعليم. رفع رئيس الجامعة ابن كوبي هذا المطلب إلى الحاكم فنصحه هذا الأخير أن يخفف من حمية رجال الدين، فابن رشد مبعوث الأمير وصديق لوزير المال وداعية كبير إلى الحرب الجهادية، فلا أحد يستطيع أن يمسه بشيء.

وفي هذه الأثناء كان موسى يشيد أمام والده وأخيه بمحاسن فاس، ويقول إنهما يجب أن يعتبرا أنفسهما من المحظوظين لوجودهما في هذا البر الآمن. ولم يكن يبوح لهما بشيء عن رحيلهم إلى مصر حالما يعود التاجر غريب الأطوار. طلب من سفيرة أن تعثر لهم على بيت فسيح يستقرون فيه. كانت المرأة الشابة سعيدة بالانتظار هنا على أمل العودة إلى الأندلس، فعثرت لهم في قلب الغيتو على بيت رائع هجرته لتوها عائلة مشهورة في طريقها إلى القسطنطينية.

وكان ميمون سعيداً، إذ كان يتمنى أن يعيش في فاس عندما اضطروا إلى مغادرة قرطبة.

فهي المدينة التي تشبه بلغتها وثقافتها مدينته أكثر من أيّ مدينة أخرى. أضف إلى ذلك أن الكثير من اليهود الأندلسيين

يعيشون فيها ويستطيع بصحبتهم تذكر الأيام الخوالي الجميلة، وأولهم صديقه الحميم والمعلم الوحيد الذي يعتبره نداً له، ابن شوحانا.

و بعد أن أنهكته السنون لم يعد يأمل بالرجوع إلى قرطبة إلا لكي يلحق بسارة في قبرها.

أما داوود فكان يرى أنه من الجنون البقاء في فاس، فوضع اليهود لا يمكن أن يبقى ردحاً طويلاً من الزمن مختلفاً عن وضع باقي طوائف إمبراطورية الموحدين. فعلى الذين بقوا على دينهم أن يدفعوا ضرائب تتزايد باستمرار، وعلى الذين اعتنقوا الإسلام أن يرتدوا ثياباً سوداء لها أكمام طويلة وواسعة، وأن يضعوا فوق رؤوسهم بدل العمامة غطاءً ثقيلاً فظاً. وكان داوود يؤكد أن يهود فاس معرضون مستقبلاً للمصير نفسه، فليست زيادة الضرائب هي التي ستهددهم فقط، وإنما سيسلط سيف الجلاد فوق رقابهم.

كان داوود يرفض أن ينتهي كما انتهى خاله ومن كان معه على منصة الإعدام. وقال إن على اليهود ألا يكونوا خرافاً. وبانتظار إقناع أخيه بالرحيل إلى مصر، أخذ يتدرب على استخدام السلاح الأبيض من سيف وخنجر وكان قد أعجب بهما عند تجار السلاح في طليطلة. وشكل مع بعض أترابه فريقاً صغيراً، وراحوا يتدربون سراً على رمي الخنجر وعلى القتال بالسيف. ولم يبح بشيء إلى أخيه حتى لا يسبب له القلق والهم. ومن جهة أخرى، كانت التجارة في فاس مزدهرة بشكل مدهش، فعثر على عدد لا بأس به من هواة الأحجار الكريمة. وهكذا بقيت حياتهم مريحة.

وفي غضون بضعة شهور ازدادت أعباء موسى ثقلاً، فكان في الصباح يذهب إلى الكنيس ويناقش في هذا الموضوع أو ذاك من التلمود مع ابن شوحانا والأحبار الآخرين. وكان بعد ذلك ينصرف إلى تطبيب المرضى الذين كانوا يقصدونه بعد الانتهاء من الصلاة. وأخيراً كان يذهب إلى الجامعة ليحضر دروس علماء الدين الإسلاميين حول نظريات الفارابي وابن باجه بالإضافة إلى دروس حول خلود الروح. وسرعان ما أصبحت شهرته تضاهي شهرة أفضل أساتذة الطب. لم يكن يسمح للأطباء من ناحية المبدأ علاج سوى أبناء دينهم، إلا أنه سمح لموسى بعلاج المسلمين. والأفضل من ذلك، فقد دُعي إلى تدريس الطب في جامعة القرويين، وهذا يعتبر امتيازاً نادراً جداً بالنسبة ليهودي. كان المرضى يتوافدون إليه من كل حدب وصوب فأصبحت أيامه حملاً ثقيلاً عليه. ولعل الحاكم أرسل في طلبه وقت الغداء، فلم يكن يعود إلى بيته في فترة بعد الظهر إلا منهكاً وجائعاً ليجد جميع غرف الطابق الأرضي من منزلهم الجديد يعج بجمهور غفير غير متجانس من اليهود وغير اليهود، من الأعيان ومن عامة الشعب، من القضاة ومن المتقاضين، من الأصدقاء ومن الأعداء. وما أن يترجل عن راحلته ويذهب ليغسل يديه حتى يعتذر من المرضى ويجلس مع والده لتناول الطعام، وهي وجبته الوحيدة في اليوم. وبعدها ينزل إلى الطابق الأرضي ليفحص المرضى ويصف لهم العلاج المناسب.

وكانت حركة المرضى جيئة وذهاباً تمتد إلى ساعة متأخرة من الليل، وربما امتدت أحياناً إلى الساعة الثانية أو أكثر بعد منتصف

الليل. فكان يشعر بضرورة الراحة بعد أن أضناه التعب لدرجة لم يعد يستطيع معها النطق.

لم يكن أحد من أفراد طائفته يستطيع التحدث معه على انفراد إلا يوم السبت. وكان الكثيرون يقصدونه في هذا اليوم بعد صلاة الصبح ليتعلموا منه ومن والده ما يجب أن يفعلوه طوال الأسبوع. كانوا يدرسون إلى الظهر ثم ينصرفون. وكان بعضهم يرجعون بعد صلاة العصر ويدرسون من جديد حتى صلاة العشاء. وبعد العشاء كان موسى يعكف على كتابة تعليقاته حول الشريعة اليهودية التي كان يفكر بها منذ حداثة سنه. كان تطور اليهودية في العالم يقض مضجعه. فغالباً ما كان يشير إلى زواره أن التوراة تكاد تندثر في الغرب وأن الطوائف الكبيرة شبه ميتة بينما يحتضر بعضها الآخر في الشرق. ولم يبق في الأرض المقدسة سوى ثلاثة أو أربعة أماكن مريضة إذا صح التعبير. ولم يبق في كل سوريا سوى حلب لتدريس التوراة دون أن يكون هنالك أحد على استعداد للتضحية من أجلها. ولم يبق في بلاد الرافدين سوى ثلاثة أو أربعة أماكن آمنة في أيدي «أمير اليهود» زكريا الذي فقد كل اعتبار. ولم يكن اليهود في الهند يعرفون سوى الشريعة المكتوبة وكانوا يجهلون كل شيء عن الشعائر باستثناء قواعد السبت والختان. وكان يرى أن عمليات الاضطهاد تزداد عنفاً في كل مكان. وكان علم العلماء يندثر وذكاء الحكماء يختبئ وراء قناع. وكان يخيل للمرء عندما يستمع إليه أن اليهودية العالمية في طريقها إلى الانقراض كما انقرضت شعوب كثيرة وأديان كثيرة وحضارات كثيرة قبلها.

كان موسى أثناء عودته إلى البيت يجد أحياناً مكتبه مقلوباً رأساً على عقب. فيقول في سره بأن متتبعيه مصرون على العثور على القطعة الذهبية. ولكن من يكونون؟ لن يعثروا عليها ما دامت لم تعد في عهدته، ولن يذهب أحد مطلقاً للبحث عنها عند ليلى. لعلهم يظنون أنه يمتلك الكتاب الشهير؟ كان عليهم أن يفهموا أنه لو كان الكتاب معه لهرب به منذ زمن طويل.

كان الخوف يستولي عليه أحياناً: ماذا سيحدث إذا وضع يهود فاس كغيرهم في الإمبراطورية أمام خيار اعتناق الإسلام أو الهجرة؟ فهل سيضطر إلى اعتناق الإسلام لكي ينتظر الكندي؟ أم سيعدل عن «الأبدية المطلقة»؟ وماذا سيحل بليلى؟

انقضى فصل الشتاء. وكان داوود يحث أخاه كل يوم على الرحيل. وأصبح بالإضافة إلى تجارته النادرة بالأحجار الكريمة من أشهر المرابين في المدينة الذين يقرضون المال مقابل الرهن. وكان يسمع من التجار الذين يتعامل معهم أخباراً مكدّرة: لم يكن أحد يفهم استمرار تسامح الموحدين مع اليهود في مدينتهم المقدسة، فقد لا يدوم ذلك. فلماذا البقاء ما دام هناك متسع من الوقت للهروب؟ كان داوود يتدرب على استخدام الأسلحة بشراسة، وتبين أنه موهوب برمي الخنجر على وجه الخصوص، وكان يتدرب على تصويبه إلى أهداف تزداد بعداً بالتدريج، فالمهارة التي اكتسبتها يداه من نحت الأحجار الكريمة أعطته ثقة كبيرة جداً بنفسه.

وبدأ الحبر ميمون أيضاً بالتفكير في الرحيل عندما رأى داوود يزداد توقاً للمشاجرة، وموسى يهمل واجباته اليومية ويذهب في أغلب

الأحيان للقاء فتاة تاجر مسلم. فإذا كان ابن رشد لا يرى في ليلى سوى جمال مذهل ومادة إغراء بين أشياء أخرى، كان موسى يطلق العنان شيئاً فشيئاً لحب جارف. وحينما يكون لوحده كان يفكر بعمق بنظرتها وشكلها وصوتها. وكانت كل الحجج في نظره مقنعة للذهاب لرؤيتها. وكان في كل مرة يزورها فيها يزداد إعجاباً بعمق ثقافتها. فقد كانت قد قرأت كتباً كثيرة، وزارت بلداناً عديدة، وكانت تتحدث بذوق مرهف عن المناظر الطبيعية واللغات وطرق العيش في آسيا. كان يشق على موسى الإقرار أنه لم يعد يستغني عن حضورها. وكان أيضاً يسأل نفسه لماذا تندفع إلى استقباله دون أن تثبط عزيمته، ولماذا توحي بابتسامتها المتكررة وبملامساتها الخفيفة أنها مهتمة به. هل كانت تفكر أن تدفعه إلى اعتناق الإسلام؟ كان موسى يشعر بتمزق بين حب يسير في طريق مسدود وبين تعلقه بشعبه تعلقاً كبيراً بحيث يستحيل أن يتنكر له.

ذات مساء ذهب لزيارتها كعادته دون أي سبب، فنزلت من غرفتها مرتدية جلباباً طويلاً مخصصاً للحفلات، وكان مطرزاً بالذهب واللآلئ، وفي جيدها عقد من المرجان. وفي فاس لا ترتدي المرأة المرجان إلا لتبلغ الرجل عن رغبتها بإنجاب طفل. وكان يُعتقد في الواقع أن المرجان يسهّل عملية الولادة. كان موسى يسخر بوجه عام من هذه الخرافات. شعر بالارتباك عند رؤيتها. وقال في سره إن عليه التوقف عن رؤيتها لكنه لم يستطع ذلك. ولعله فكر بصورة خاطفة أن أفضل حل في النهاية ربما يكون اعتناقه الإسلام اعتناقاً شكلياً بالطبع ليتيح له ذلك البقاء في فاس إلى الأبد والزواج من ليلى مع

الاستمرار في حياته اليهودية. ألم يكن غالباً يسمع والده يقول إذا كنت أمام قاطع طريق يخيرك بين: «مالك أو حياتك» يجب عليك أن تتخلى عن المال. ولكن والده كان يضيف: «اهرب بعد ذلك في الحال من هذا الجوار السيئ.» أي أن يهرب بعد اعتناقه الإسلام. ولكن ليلى لن تقبل الهروب معه ولا أن تعتنق اليهودية. وحتى لو أنها أرادت ذلك فلن تستطيع أن تأخذ قراراً بغياب والدها. وإذا عاد هذا الأخير فربما وشى به على أنه هو «النصّاب». لاحظ داوود اضطراب أخيه ولكنه لم يسأله شيئاً، فقد كان يفكر في طليطلة عندما قلق أخوه الكبير هناك قبل سنة على علاقته بماريا دوسوزا.

ومع بداية الخريف التالي سُمع صياح مجلجل في القسم السفلي من المدينة. كان الفرسان يحملون للناس البشارة، فقد أثخن عبد المؤمن «الملك الذئب» بالجراح فلاذ بالفرار ودخل الخليفة قرطبة.

وألغى الخليفة القواعد الجماعية التي وضعها المهدي إلى غير رجعة، ونصّب نفسه سلطاناً وعين ابنه خلفاً له.

أعلن حاكم فاس للناس بعد أيام أن السلطان سيعيد بناء قصر الأندلس التي عاد السلام إلى ربوعها، وسيزيد مكتبة قرطبة غنى بحيث تضم من الكتب أكثر مما تضم جميع مكتبات أوروبا مجتمعة.

تنفس ابن رشد الصعداء؛ فحالما يعود الكندي سيكون في مقدوره العودة إلى قرطبة ورؤية والده من جديد، وسيكون في حماية رجل أصبح أقوى بكثير مما مضى هو ابن طفيل، هذا الذي كلفه بمهمة تعريف المسلمين بأرسطو ووجهه في طريق المخطوط السري.

ولكن كيف سيقابله إذا اعترف له أنه لن يحصل أبداً على هذا الكتاب دون موافقة تاجر آسيوي؟

كان الفرح لا يوصف بين أفراد الطائفة اليهودية. وكان الأحبار يؤكدون أن ولي العهد صديق لشعب إبراهيم وأن المنفيين من قرطبة سوف يستطيعون العودة قريباً إلى ديارهم. كانت فرحة ميمون كبيرة، فقد كان يفكر أنه سيستطيع قريباً أن يلحق بزوجته سارة في مثواها الأخير.

أما داوود فلم يكن متحمساً كثيراً، فقد كان يخشى أن يؤدي انتصار عبد المؤمن بالموحدين إلى إظهار صرامة أشد نحو اليهودية والمسيحية، وأن تنقلب فاس من جزيرة الطمأنينة والسكينة إلى عكس ذلك، وأن لا يبقى أمام يهود فاس سوى الخيار بين اعتناق الإسلام أو الموت. كان مستعداً للقتال أكثر من أي وقت مضى. وكان هو وأصدقاؤه يدعون أحياناً أنهم ذاهبون للصيد لعدة أيام، ولكنهم في الحقيقة كانوا ينسحبون إلى الجبال من أجل التدريب على استخدام السلاح تدريباً صارماً.

أما موسى فقد كان يريد الاعتقاد أن الوضع قد اتضح، وأن بصيصاً من النور أضاء أخيراً في نهاية هذا النفق من الآلام الذي لقي فيه خاله وأمه حتفهما. كان يحدوه الأمل بالعودة إلى قرطبة حالما يقابل والد ليلى، وكان يحلم أن باستطاعته إقناعها باللحاق به إلى هناك واعتناق اليهودية.

في هذه المدينة المبتهجة، قرر موسى الذهاب لرؤية الفتاة والبوح لها بمكنون قلبه. وما كاد يبدأ وهو مضطرب بالبحث عن كلمات

لم يعثر عليها حتى قاطعته بحركة من يدها وبابتسامة من ثغرها وكلمته بصوتها الذي لا مثيل له.

وبما أنه كان يصعب عليه تكوين جملة في حضرتها، ولم يكن ليستغرب ذلك، فهي التي ستعبر عما تريد قوله. لا شك أنه لم يكن من المعتاد أن تخاطب فتاة شابة رجلاً، لكن أخبار والدها انقطعت عنها منذ ثمانية أشهر، وعليها أن تفكر بما ستفعله إذا لم يرجع. سألت في البداية إن كان موسى مهتماً بها كما كانت تخمن. هل كانت مخطئة؟ كلا؟ الحمد لله. ومن ثم لم يكن عليه أن يقلق لكونها مسلمة، وإنما عليه ألا يقاطع كلامها وأن ينتظر حتى يفهم في النهاية.

كان موسى أكثر الناس علماً بأن المرء قد يضطر لتغيير دينه من أجل أن يحمي مصالحه دون أن يعرض بذلك هويته الحقيقية للخطر. فهي كانت في وضع من هذا القبيل. نعم لقد فهم أنها كانت أكثر قرباً إليه مما كان يظن.

وصعق موسى لهذا الخبر، فالتاجر الكبير الذي كان يظنه عربياً كان في الحقيقة يهودياً، وقد اعتنق الإسلام وبقي على دينه في السر.

روت ليلى قصة عائلتها. فعائلة والدها جاءت من كوشان، وقد استقرت هناك قبل قرن ونصف طائفة من اليهود من أصل بغدادي بقيادة شخص اسمه يوسف ربان. وقد بلغ عدد أفرادها ألف يهودي، وكانوا متمسكين بالشريعة وملمين بالتلمود ويشتغلون في تجارة الأحجار الكريمة. وكانوا يعملون وسطاء للسماسرة والتجار القادمين

من مصر. وكان جدها شاباً عندما هاجر من كوشان ليستقر في كيفانغ في الصين، وكانت عاصمة الأسرة الملكية سونغ في إقليم هينان على ضفة النهر الأصفر. وأصبح هناك زعيماً لطائفة صغيرة من التجار اليهود القادمين من عمان وفارس والهند، وكان لديهم مكاتب تمثيل لتجار الشرق الأدنى. وهكذا أصبح جدها أحد مستشاري الإمبراطور الصيني في تلك الحقبة، وكان المسؤول عن النقد والخزينة العامة. وكان الوحيد في العالم الذي اخترع عملة ورقية من ألياف نباتية لتحل محل العملة المعدنية.

ولسبب ما تزال تجهله حتى الآن هجر والدها إيليا في شبابه عائلته وتخلى عن حياة رغيدة في سبيل مهمة تكتم عليها، ولكن يبدو أنها كانت مصيرية بالنسبة له. فسافر عبر الصين المنغولية والهند التركية والشرق العربي حتى وصل إلى أوروبا الشمالية. وتعرف على ربيكا التي ستصبح زوجته في الطائفة اليهودية في كولونيا حيث كان أبوها يعمل طبيباً ويدعى إبراهيم كندر. ثم تزوجا ورزقا بليلى، ولكن ربيكا لاقت مصرعها على يد جنود من الصليبيين فقدوا الوعي من شدة السكر. فهربت مع والدها إلى انجلترا ثم إلى فرنسا ثم إلى توسكانيا ثم إلى بلاد المجر وبكتريان، وكانا في كل مرة يغيران اسميهما وديانتهما. وكان والدها خلال هذه الرحلات يعمل بالتجارة، وكان الهدف من ذلك في المقام الأول في نظرها هو أن يكون لديه شيء يشغله ووضع اجتماعي ومن ثم المال، فقد كانت ليلى تظن دائماً أن والدها يتلقى مساعدات مالية من عائلته في الصين. كان التاجر يحب ابنته حباً جماً، فعلمها القراءة والكتابة باللغة

الصينية والإغريقية واللاتينية والتركية والفرنسية والعربية والعبرية والرومانية والانجليزية. وكلمها عن الحكمة الهندية والفلسفة الإغريقية وكان يبدو أنه متمكن منها جيداً. وعلمها الصلاة بالعبرية وشجعها على أن تتعلم بمفردها قدر ما تستطيع من اللغات، وأكد لها أن هذا الكنز الثقافي سوف يخدمها في يوم من الأيام. وكان يبدو أن إيليا يأخذ حذره على الدوام، فقد فوجئت به مرات عديدة يتحدث على انفراد مع غرباء، فكانوا يلتزمون الصمت في حضرتها. وعندما وصلا إلى الأندلس قبل نحو عشر سنين، قرر إيليا أن يصبح مسلماً لكي لا يجذب إليه الأنظار كما كانت تقول. وطلب منها أن تواصل صلواتها بالعبرية وأخذ عليها عهداً أن لا تجهر بها علانية أبداً. وعندما كانت تسأله أين يقع موطنهما كان يجيبها أن ليس لهما موطن وأنها هي موطنه الوحيد.

كانت ليلى إذاً يهودية. كانت الفرحة لا تتسع لموسى، فليس عليه أن يبدل دينه ليتزوجها. وهو الآن واثق من زواجه منها ورحيلهما سوية إلى الإسكندرية.

لم يكن موسى يستطيع أن يفشي هذا السر لأحد، لا لأبيه الذي كانت صحته المتدهورة تقلقه ولا لأخيه الذي كان يحلم في كل لحظة بالقتال. وكم كان يشعر بالاشتياق إلى ابن عزرا! أين هو الآن يا ترى؟ فصحيح أن ابن رشد أصبح صديقه ومنافسه في وقت واحد، ولكنه لم يأخذ مكان صديقه القديم.

على الرغم من أن ابن رشد وموسى كانا ينتظران عودة مسافر يستطيع أن يحكم على أحدهما بالموت، وعلى الرغم من أنهما لم يأتمنا

بعضهما بعضاً على أي سر، وعلى الرغم من أنهما لم يتكلما أبداً عن المنافسة بينهما في البحث عن «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور»، كانا يكتشفان كل يوم، أثناء محادثاتهما التي لا تنتهي، التقارب غير العادي بين أفكارهما. كان كل منهما يتكلم باحترام عن ديانة الآخر، ويعتبرها الشكل الأكثر علواً للتوحيد.

كان موسى معجباً بجرأة ابن رشد الذي كان يقول لطلابه إن الحقيقة ليست في القرآن، وأن الكون وجد دون أن يخلقه الله، وأنه لا يأمل شيئاً من جنة وهمية. أما ابن رشد فقد كان سعيداً بالتعرف على يهودي يحترم مثله فكر أعظم الإغريق طراً. وكان كلاهما يريان أن الله موجود خارج الزمان، وأن هذا هو الأمر الوحيد الذي يميزه عن الكون، وأنه (الله) الذكاء الكامل الخالد والذكاء الكوني الذي يتولى إدارة الكون والانتقال من الفكر إلى الفعل. وكان كلاهما يعتبران، دون أن يفصحا، أن التوراة والقرآن نصان مجازيان بشكل كبير. وكان كلاهما يجهران أن الله ليس له جسم، وأن الكتاب المقدس يتكلم عن «إصبع» أو عن «روح» الله وعن «طوله» وعن «مقاساته» لكي يستطيع الجميع أن يفهموه. وكان كلاهما يؤكدان أنه لا يمكن أن ننسب إلى الله الطيبة أو الحسد أو الغضب أو الكبرياء أو الإحساس بالعدالة أو الرحمة أو القدرة، لأن الله في جوهره لا تنطبق عليه الصفات الإنسانية. وارتأى كلاهما أن الإيمان والعقل غير متعارضين، وأن الله المتمسك بعلته الخاصة به لا يستطيع أن يقرر أن ليس له وجود أو يغير قوانينه الخاصة. وكان العقل بالنسبة لكل منهما الوسيلة التي وهبها الله للإنسان من أجل

الوصول إليه. فاستنتج كل منهما أن المادة الفانية وحدها هي الشر، وأن الروح الخالدة هي الخير، وأن العناية الإلهية ليست سوى تنفيذ قوانين الطبيعة التي وضعها الله مرة واحدة في الكون، وأن ما من شيء، إن لم يكن المستحيل والضروري، يتعدى على حرية الاختيار التي وحدها تستطيع أن تقود الناس إلى الشر بإبعادهم عن وصايا الرب. وكانت الصلاة بنظرهما شكلاً التأمل وليست وسيلة للحصول من الله على تحقيق الأماني.

كان ابن رشد يظهر بشكل عام أكثر جرأة من موسى. فقد كان يجرؤ بالجهر علانية أن الله لا علاقة له بوجود الكون الأزلي في الماضي والسرمدي في المستقبل، وإنما يستطيع أن يغير من طبيعته بالتوقف عن التفكير فيه. ولم يكن موسى يشاطره هذه الجرأة، ولكنه كان يقول إنه إذا كان العلم يبرهن على خلود المادة، فبإمكانه هو أن يبين أن التوراة تتفق مع هذه الفكرة. وكان يضيف عندما تأتيه الجرأة أن كتاب «سفر التكوين» نفسه يشير إلى وجود المادة قبل خلق العالم.

لم يكن موسى يتفوق على ابن رشد في الجرأة إلا عندما كان يقول إن الله تجريد خالص، أما صديقه فكان يؤكد أنه إذا قدمنا الله على أنه تجريد، فإن الناس تكف عن الإيمان به، فينبغي إذاً أن نقدمه على أنه «نور».

في إحدى الأمسيات، وبعد محادثة طويلة تطرقا إلى السبب الحقيقي لوجودهما في فاس، وإلى الظروف التي جعلتهما يتقابلان في طليطلة. تحدث موسى عن كريمون وابن طيبون وألبيريك دومونبا

والحبر شوحانا الذي أرسله إلى الكندي، ولكنه لم يأتِ على ذكر خاله في حديثه.

وتكلم ابن رشد عن مقابلته مع كريمون الذي أرسله إلى ابن طيبون والكندي، ولم يأتِ على ذكر ابن طفيل. وتكلم كلاهما عن «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور»، وهو كتاب «الأبدية المطلقة» لأرسطو، وقد وعدا به. ولم يتطرق أي منهما إلى القطعة الذهبية التي بقيت زمناً طويلاً في حوزة كل منهما.

في يوم من أيام الصيف الثاني بعد وصولهم إلى فاس، جاء خادم إلى ابن رشد وقال له إن أحد الزوار ينتظر في الخارج على أحر من الجمر. فاعتذر منه ابن رشد وطلب منه أن يعود في يوم آخر إذ إنه كان على وشك أن ينتهي من تحضير محاضرة لليوم التالي. فرجع الخادم وقال إن الزائر مصر على الدخول وأنه يعرّف عن نفسه «كصديق لجيرار الكريموني». اندفع ابن رشد إلى الخارج فوقع نظره في الفناء الداخلي على رجل نحيل الجسم شاحب الوجه غائر العينين مجعد الشعر، ويميل شعره إلى الحمرة. كان يبدو منهكاً من التعب ولكنه يتميز بحيوية داخلية غير طبيعية. أخذ ابن رشد على الفور حذره. وبدا له أنه شاهد هذا الرجل من قبل في مكان ما، ولكنه لا يتذكر متى وأين. ومع ذلك كان لون شعره لا يُنسى. عرّف الرجل عن نفسه بلهجة عربية ثقيلة باسم وليام هستينكز، مترجم إنجليزي قادم من مانشستر، وقال إنه صديق لتوماس بيكر، وهو ابن تاجر من روان كان مستشاراً للملك هنري الثاني الذي عينه مطران كنتربيري. وإذا صدق هستينكز، فإن حكم الإعدام سينفذ بتوماس بيكر

قريباً إذ أنه تجرأ على تحدي الملك. وأضاف أنه نفسه فضل الهرب من بطش الملك الذي سوف يطال جميع أصدقاء المطران. ادعى الإنجليزي أنه أقام أولا في باريس، ثم في طليطلة حيث التقى هناك بالكريموني وأصبح واحداً من تلاميذه. وكان الكريموني قد كلمه عن ابن رشد. بعد ذلك مر هستينكز بالبروفنس وتوسكانيا ودول البابا، وجاء أخيراً إلى فاس ليتعلم لغة الموحدين، وهي اللغة البربرية.

أخذ ابن رشد يحذره أكثر فأكثر، فالكريموني ألح كثيراً على سرية القطعة الذهبية بحيث يصعب التصديق أنه تحدث عنه (عن ابن رشد) لأي كان. ومع ذلك تذكر أنه عندما التقى المترجم الشهير للمرة الوحيدة في طليطلة، كان محاطاً بتلاميذ إنجليز، وكانت شعور بعضهم حمراء.

كان هستينكز ثرثاراً لا يكف عن الكلام. قدم له ابن رشد شراب الورد فقال بوقاحة عجيبة إن شراب الورد الذي يستحق هذا الاسم هو شراب الورد الفارسي، وأن هذا الشراب لا يمت بصلة لشراب الورد. وتابع حديثه قائلاً إنه قرر الاستقرار في فاس لأن سياسة الخليفة سوف تتغير، فقريباً سيصير كل شيء أكثر انفتاحاً وأكثر يسراً، وسوف يزيد عدد الوافدين، وسوف تنتشر الأفكار، وسوف يرحب بأمثاله من المسيحيين من دون أدنى تحفظ. ولكن من يطمح مثله للعيش في العالم الإسلامي الذي يستهويه عليه أن يتكلم اللغة البربرية، لغة الأسياد التي ينبغي أن يترجم كل شيء إليها. ولهذا السبب جاء إلى فاس، قبل أن تصبح السياسة الجديدة فعلية، وسيكون ذلك في القريب العاجل على حد قوله.

كان عبد المؤمن على فراش الموت، فكيف علم بذلك؟ لا يقبل أن يسأله أحد كيف، المهم أنه كان يعلم. وتابع هستينكز حديثه قائلاً إن ابنه الأمير أبو يعقوب يوسف سيخلفه في السلطة وسيتخذ لقب السلطان يوسف الأول، وهو الذي سوف ينفذ هذه التغيرات المهمة. كان العاهل المستقبلي قد أمضى سبع سنين في إشبيلية وهناك تلقى القسم الأكبر من تعليمه وتتلمذ على يد أفضل علماء الأندلس. وسوف يتخلص من أعيان والده القدامى، ويبدأ في طول الإمبراطورية وعرضها برنامجاً تحسينياً يشمل الجوامع والقنوات والقصور والحدائق والترجمات والكتب. وسيبدأ عهد جديد من النور والحرية كما كان الحال في عصر المرابطين. تساءل ابن رشد كيف استطاع هذا الإنجليزي الغريب أن يكون على علم بأسرار كهذه. ولم يجرؤ على تصديق الخبر الطيب التالي: سيصبح الذي كلفه بدراسة أرسطو خليفة عما قريب!؟ إذا صدق هذا الخبر فسيتغير كل شيء. فسيستطيع أن يقضي وقته بين فاس التي يلقي فيها دروسه وبين قرطبة التي ستعود مكاناً مباركاً من الله. وسيعود مركز الإسلام إلى الأندلس من جديد ولن يبقى بعد الآن في أيدي العرب. وسوف يجد طريقة يتفاهم بها مع ابن طفيل، ولن يستطيع الكندي أن يفعل شيئاً ضده حتى لو عاد يوماً وأراد أن يلحق به الأذى.

سأل الإنجليزي ابن رشد بعد أن شرب ثلاثة كؤوس من ماء الورد إن كان يعرف يهودياً يدعى موسى بن ميمون.

- لماذا تسألني هذا السؤال؟ قال ابن رشد متعجباً.

أجاب الآخر بصوت وجده ابن رشد جهورياً فوق العادة:

- لقد كلمني عنه كريمون أيضاً.

هنا قال ابن رشد لنفسه هذا مستحيل! كان موسى قد أخبر ابن رشد أنه تكلم مع كريمون عن فاس، ولكنه قال للمترجم الشهير إنه سيذهب إلى ناربون ليبحث عن النسخة اللاتينية، وليس إلى فاس التي لا يوجد فيها سوى النسخة العربية. فمن المستبعد أن يكون كريمون قد طلب من أحدهم أن يتعقب أخبار موسى في فاس.

ظل ابن رشد على حاله من التيقظ، وشعر أن الآخر يتربص به كما يتربص هر متوحش بفريسته. ونظر إلى يديه الناعمتين كثيراً وإلى أظافره الطويلة جداً المتشبثة بمقعده كأنها براثن حيوان مفترس. استجمع شجاعته وقال:

- أنت تكذب...

تشنجت أصابع الإنجليزي وتشبثت أكثر فأكثر بالمقعد الخشبي كما لو أنه كان يريد تحطيمه.

- ماذا تقول؟

- لا أظن أن كريمون قد كلمك عني، أو قد كلمك عن هذا الذي اسمه موسى.

- ولماذا إذاً؟

امتقع لون وجهه، وشعر ابن رشد أنه ينظر باتجاه الباب كأنه يريد أن يطمئن على وجود مخرج يفر منه. فأجابه:

- لثلاثة أسباب. أولاً لأن كريمون رجل متكتم يخاف كثيراً من المغامرة التي زج نفسه فيها على حد تعبيره، وهو نادم على اشتراكه فيها، فهو بالتأكيد لن يكلم غريباً عنها. وثانياً لأنه لم

يكن يعلم أن شخصاً آخر غيري سيأتي إلى فاس. وثالثاً لأنه على حد علمي قد هرب من طليطلة غداة لقائنا خوفاً من أن يتهم بجريمة القتل المزدوجة. فلا أرى متى سنح له الوقت كي يتكلم عن الترجمة مع غريب أو عني أو عن موسى بن ميمون. ولكن ليس بمستبعد أن يكون شخص بهذا الاسم قد مر بهذه المدينة. ولكن كيف عرفت ذلك؟

استعاد الإنجليزي رباطة جأشه. وشعر ابن رشد أنه أمام وحش بارد الأعصاب يضبط نفسه جيداً. وتساءل مرة أخرى أين رآه من قبل. أجاب الغريب بصوت هادئ:

- غريب أن يكون لديك أصدقاء يهود، وأنت عالم دين مسلم...

- أنت لا تجيب على سؤالي. كيف عرفت أنني سأكون في فاس؟ وكيف عرفت أن موسى مر بهذه المدينة؟

أخرج هاستينكز من جيبه منديلاً ومسح به عرق جبينه بلطف.

- لأن كريمون كلفني في الواقع أن أسأل كلاً منكما سؤالاً. وأنت حر بعدم سماعه، فهذا شأنك وحدك.

راقب ذو الشعر الأحمر محاوره بهيئة وديعة ملؤها التواضع والخضوع. تردد ابن رشد.

- ما الذي يثبت لي حقاً أنك قابلت كريمون؟ هل قال لك شيئاً من شأنه أن يقنعني أنه هو الذي أرسلك دون أي شك؟

- ربما صدقتني إذا قلت لك إن كريمون كلمني أيضاً عن صديق لصديقك، وهو يهودي آخر اسمه ابن عزرا... ألا تفهم؟ أنت مستغرب؟... ألا تعرف أفضل صديق لأفضل صديق لك؟ أليس موسى

هو أفضل صديق لك؟... أنتم بلا شك أناس غير عاديين. المهم أخبره أنني أحمل إليه أخباراً من ابن عزرا وسيهرع في الحال.

عزم ابن رشد أن يقف على حقيقة أمر هذا الرجل الغريب، فأرسل عبداً إلى موسى فحضر بعد أقل من ساعة. استقبله ابن رشد في فناء المنزل وقص له حكايته مع الإنجليزي.

- لا أعرف البتة من يكون هذا الرجل. فهيئته فيها تواضع وتهديد في آن واحد. ولم يسبق لي أن رأيته، ولكن شكله مألوف لي. وأغرب ما في الأمر أنه يدعي معرفته بنا عن طريق الكريموني...

- هذا مستحيل. فكريمون لم يكن على علم بمجيئي إلى هنا.

- هذا ما قلته له. ويدعي أن لديه سؤالاً يريد أن يطرحه علينا نحن الاثنين. أضف أنه يؤكد أن كريمون قد كلمه عن شخص اسمه ابن عزرا، ويبدو أنه آحد أصدقائك.

- إنه بالفعل آحد أصدقائي، رد موسى متعجباً. ولكن كريمون وابن عزرا لا يعرفان بعضهما بعضاً، فأنا لم أر كريمون سوى مرة واحدة في طليطلة، وكنت بمفردي. وعندما افترقت عن ابن عزرا في ناربون كان في طريقه إلى روما. قلت له إنني سأذهب إلى فاس، وربما يكون كريمون قد سمع بي عن طريقه؟

- حتى يكون هذا صحيحاً، ينبغي على كريمون أن يكون قد التقى ابن عزرا...

- وهذه مصادفة صعبة التصديق.

- تعال معي نطرح عليه كل هذه الأسئلة. ولنأخذ حذرنا منه، فهو يكذب بلا شك. ولكن لماذا؟!

دخلا على الإنجليزي في غرفة الجلوس. فالفياه يحاول أن يتكلم بلغة بربرية سيئة مع خادم شاب راق له على ما يبدو.

أصيب موسى بصدمة، فهو أيضاً دهش من لون شعره الكثيف وتيقن أنه رآه أكثر من مرة من قبل في مكان ما. ولكن أين يمكن أن يكون قد رآه؟ وكيف أمكن أن ينسى مثل هذا الشعر؟

رمقه هستينكز بنظرة حذرة:

- من تكون، أنت؟

- أنا موسى بن ميمون.

أضاء وجه هستينكز:

- إذاً أنتما تعرفان بعضكما.

ثم استدار نحو ابن رشد:

- ليس من اللائق إخفاء ذلك عني. ليس من اللائق بالمرة...

كان يتكلم بهدوء كأنه رجل شرطة يجري تحقيقاً أو كأنه مريض استعاد طمأنينته.

تفحصه موسى بعمق وقال:

- لقد التقينا من قبل، أليس كذلك؟

رمقه الآخر بنظرة تحد في عينيه مباشرة:

- كنت أحب أن يكون لي هذا الشرف، ولكنني لا أظن أننا اجتمعنا قط في غرفة واحدة.

- مع ذلك أقسم... أنت تعرف كريمون؟ وتقول إنه التقى ابن عزرا؟ أين؟ وكيف؟

لاذ المترجم الإنجليزي بالصمت لبرهة من الزمن، وراح يلاحق بنظراته الخادم الذي أحضر طبقاً من الفواكه. وعندما خرج استأنف كلامه بتؤدة:

- لقد التقيت بالفعل كريمون، بل وكنت تلميذاً له.

سرح موسى بتفكيره إلى تلاميذ كريمون الإنجليزيين الذين قابلهم في طليطلة، فهل كان واحداً منهم؟

تابع الآخر:

- كانت فترة ممتعة. وعندما قلت له إنني سأمر بفاس، أوصاني أن أبحث عنكما وأن أسألكما إن كنتما قد وجدتما ما أرسلكما للعثور عليه هنا...

راح ابن رشد وموسى يتبادلان النظرات فيما بينهما. فكر موسى في سره أنه ليس مستبعداً أن يكون كريمون قد أراد أن يعرف إن كانا قد حصلا على الكتاب الشهير. وأنه من الممكن أن يكون كلام هذا الغريب الأصهب الذي يبدو ثقيل الظل صحيحاً عندما أعلن معرفته بكريمون.

سأل موسى:

- كيف يريد أن نبلغه جوابنا؟

- عن طريقي أنا. علي أن أرسل له أشياء كثيرة على عنوانه في روما، فأنقل له الجواب مع هذه الأشياء.

فكر ابن رشد أن كريمون لا يمكن أن يخاطر مثل هذه المخاطرة. فلا يمكن أن يكون قد كلف غريباً ليطرح عليهما مثل هذا السؤال. وفكر موسى من جانبه أن الإجابة بصورة غامضة على

سؤال غامض لا يلزمهما بشيء. وهمّ بالإجابة، ولكن ابن رشد أشار عليه بالسكوت.

قال القاضي الشاب:

- لا أعرف مطلقاً عن أي شيء تريد أن تتكلم.

- كلا؟ ولا أنت أيضاً؟ قال الإنجليزي وهو يحدق بموسى.

- ولا أنا أيضاً، رد موسى وهو ينظر إلى ابن رشد.

- ليس لديك إذاً أي جواب لأنقله إليه؟ قال الإنجليزي دون أن يحول نظره عن موسى.

- كلا، لا يوجد عندي أي جواب.

- حتى لو قلت لك إن كريمون كلمني أيضاً عن صديقك ابن عزرا؟

بدأ موسى يرتجف بكل كيانه. فالسؤال الذي تفوه به الغريب بصوت عذب رقيق كان له وقع تهديد.

- وماذا قال لك عنه؟

- إنه تعرف عليه في روما.

فكر موسى أن هذا بعيد الاحتمال، لكنه سأل:

- وما الغريب في هذا؟

عاد هستينكز إلى شرب ماء الورد، ونظر إلى الفاكهة وتناول واحدة منها ووضعها أمامه قبل أن يأخذ واحدة أخرى، ثم همس قائلاً:

- حضر نفسك لما هو أسوأ.

سأل موسى وقد انتابه القلق:

- ماذا يعني ذلك؟

تنفس الإنجليزي وتثاءب كما لو أنه تخلص من ورطة، ثم قال:

- قال لي كريمون إنه صادف صديقك في مكتبة الفاتيكان البائسة منذ تعرضها للنهب والسلب. وكان عاكفاً على دراسة قواعد اللغة القبطية الاستثنائية عندما وقع بصره على رجل يقهقه في قاعة الدرس، وكان مُثاراً جداً. كانا بمفردهما، فاعتذر الآخر عن الإزعاج الذي سببه ثم شرح لكريمون أنه عثر لتوه على اكتشاف غير عادي سيغير كل ما كان الناس يعرفونه عن الكون والأديان. ولم يتفوه بأكثر من ذلك سوى أنه قلق على صديق له اسمه موسى بن ميمون، وقد رحل إلى فاس ليلقي بنفسه إلى التهلكة، وكان قد نصح له في طليطلة أن يأخذ حذره وألا يدخل في لعبة القطعة الذهبية. وصرح ابن عزرا أيضاً لكريمون أنه إذا حصل ذات يوم على الدليل المطلق لما كان قد اكتشفه لتوه، فإن تاريخ البشرية كله سينقلب رأساً على عقب. ولم يفهم كريمون شيئاً من هذا الهذيان. وفي اليوم التالي سمع أن ابن عزرا قد انتحر بإلقاء نفسه في نهر التيبر.

صرخ موسى:

- هو ينتحر؟ مستحيل!

- أنا متأسف، ولكن هذا هو الواقع.

قال موسى متعجباً:

- لا يمكن أن يفعل ذلك مطلقاً!

همس ابن رشد قائلاً:

- وكيف لك أن تعلم، فالانتحار يأتي في لحظة، وفي اللحظة التي تليها ربما يتخذ قراراً آخر.

كرر موسى قوله:

- كلا، هذا مستحيل. إنه لم ينتحر. ربما مات مقتولاً، هو أيضاً. لماذا؟ نعم لماذا؟ كرر السؤال كأنه يخاطب نفسه.

صر الإنجليزي على أسنانه:

- أراك حزيناً... ولكن ربما تكون هذه هي البداية إذ لا يستبعد أن يكون لهذا الانتحار علاقة بما جئتما تبحثان عنه هنا. ولكن ليس علي أن أتدخل، فهذه أمور تخصكما لوحدكما. لقد نقلت رسالة كريمون، وأستطيع الآن أن أعود إلى أموري الخاصة. سوف نلتقي ذات يوم بالتأكيد، فنحن نسكن في مدينة واحدة. السلام عليكم.

وفجأة انحنى هستينكز احتراماً بعد أن تركهما في ذهول. من كان هذا الرجل؟ وأيّ مصادفة قادت كريمون إلى ابن عزرا في روما؟ وهل تحدث فعلاً إلى هذا الإنجليزي عن ابن عزرا؟ وإذا كان ابن عزرا قد مات، فمن قتله؟ فهو بالطبع لم ينتحر.

وبعد يومين أكد القصر خبراً من الأخبار التي جاء بها الإنجليزي، وهو أن الخليفة عبد المؤمن العظيم يحتضر في قرطبة. فرحت فاس لهذا الخبر وهلّلت. وفتحت الحانات أبوابها مدة أطول من المعتاد، وظهر الخمر من جديد ولكن قلة قليلة تجرأت على شربه علانية بصحة الخليفة المقبل. ولم يحرك الحاكم ساكناً فهو لا يعلم من أي جهة ستهب الريح.

شاع في الفيتو اليهودي أن الخليفة المقبل سوف يعيد لكل يهودي حقوقه غير منقوصة. وبدأت عائلات كثيرة من التي هاجرت من

قرطبة قبل عدة سنين تأمل ببيع محلاتها التجارية أو حقولها الزراعية استعداداً للعودة إلى الأندلس. وكان البعض يفكرون أن اليهود الذين أجبروا قبلاً على الدخول في الإسلام سوف يصبح بإمكانهم الرجوع إلى ديانتهم اليهودية دون خوف، إذ إن اعتناقهم الإسلام كان بالقسر والإكراه. وقال داوود في سره إن تعلمه رمي الخناجر واستعمال السيوف كان من غير جدوى أو فائدة.

وبعد أسبوع دوى صوت ضخم في المسجد. وبدأ جميع المؤذنين بالتراتيل الدينية. ووصل الخبر على ظهور الخيول من موقع إلى آخر أن الخليفة قد قضى نحبه منذ ثمانية أيام، وأن ابنه أبو يعقوب يوسف قد خلفه في الحكم. أعلن الشعب الحداد وسار آلاف الناس في الشوارع وهم يضربون على صدورهم بأيديهم. واجتمع الحاكم ومستشاروه وكبار التجار والأساتذة خلف الأبواب المغلقة من أجل تبادل الرأي ووضع الخطط ودارسة أفضل طريقة يفوزون بها برضى الخليفة الجديد.

وبعد ثلاثة أيام، عُلم أن الخليفة قد ثبت ابن طفيل في منصبه ككبير للوزراء. وبعد مرور أسبوعين أقيمت الأفراح في جميع مدن الإمبراطورية احتفالاً باعتلاء العاهل الجديد للعرش. وفي فاس طافت الجالية اليهودية في أحياء المدينة ولاقت الترحيب من أهالي فاس، فقد كان الجميع يشعر بالسعادة، إذ أصبح في مقدورهم من جديد أن يذهبوا علانية إلى أعياد بعضهم بعضاً.

ثم جاء أسوأ خبر، وهو أن الخليفة الجديد قد أصدر أمراً يقضي بتطبيق القرآن بحرفيته وحذافيره، فيوسف لن يسمح بأي

تساهل في مجال الإيمان وسوف يحارب كل خروج عن الشريعة. وأمر أيضاً أن يكتب في أعلى كل وثيقة رسمية عبارة «الحمد لله»، واحتفظ لنفسه في كل أرجاء الإمبراطورية بحق إصدار حكم الإعدام. وأعلن أنه كان دائماً يعتبر وما زال ابن تومرت معلمه في التفكير على الرغم من أن والده كان أهمل بعضاً من وصاياه، وأن «لا مكان للعقل في الشريعة الإلهية». كان ذلك إدانة لا تقبل النقاش للحق في التفكير والفلسفة والاتجاه نحو العلم. وأصدر يوسف مرسوماً جاء فيه أن من لا يقبل من المسلمين بهذه المبادئ سوف يعتبر كافراً مثله مثل اليهود والمسيحيين. وقال إن الحرب الجهادية ليست موجهة ضد أساطيل الملوك المسيحية فحسب، وإنما موجهة أيضاً ضد آخر فرسان المسلمين المتمردين وضد كل من يرفض تطبيق تعاليم القرآن حرفياً.

استولى الارتباك والاضطراب على من بقي من اليهود. فبعد أن أيقنوا بقدوم الأيام المجيدة، ها هم يستعدون أكثر من أي وقت مضى لمواجهة أسوأ شيء في حياتهم. ورفض أعيان المسلمين استقبال أعيان اليهود، وكانوا قبل أيام يصفقون لمرور طوائف اليهود في أحياء المدينة. أمر ابن شوحانا في قداس المساء الجميع بالهروب ليس من الإسلام وإنما من مستبد شوه حقيقة هذا الإسلام. أما بالنسبة إليه، فهو لن يرحل ولن يبدل دينه، ولكنه لا يطلب من أحد أن يحذو حذوه.

شاع الهلع بين الناس في المدينة عندما أعلن الحاكم عن قدوم وشيك لكبير الوزراء ابن طفيل إلى المغرب، وقد كلفه العاهل الجديد بالعمل على تطبيق المذهب الجديد.

شعر ابن رشد بالخوف والذهول في آن واحد. فكيف يمكن للأمير الذي كلفه بنشر أفكار أرسطو أن يصبح من المتشددين في الإسلام؟ وكيف يمكن لمستشاره ذي الذهنية المنفتحة أن يسير خلفه؟ هل كان كل منهما خائف؟ ولكن من أي شيء؟ وممن؟ ومن يمتلك السلطة الحقيقية إذا كانا مجرد دميتين؟ وهو الذي أظهر جرأة وجسارة في محاضراته سيكون على رأس قائمة المحكومين.

عبأ داود أصدقاءه، فليس من الوارد أن يقتلوا دون أن يقاتلوا. فالأفضل أن يموتوا والسلاح بأيديهم إذا دعا الداعي كما حدث في مسادا في إسرائيل منذ اثني عشر قرناً. تحدث مع موسى في هذا الأمر وكشف له عن مواهبه في استخدام السلاح، فوضع له هدفاً على بعد أكثر من ثلاثين خطوة ورمى باتجاهه عشرة خناجر متتالية فاستقرت جميعها في قلب الهدف دون أي خطأ.

هدأ موسى من ثورة حماسه، فربما رحلا بأسرع وقت دون الحاجة للقتال ودون انتظار ميمون وقد يأخذ معه ليلى إذا اقتضى الأمر. أسرع إلى بيتها ليعرض عليها الرحيل.

وجد أمام البيت حراساً من الجبابرة الآسيويين لم يرهم من قبل، وكان كل منهم يرتدي بنطالاً فضفاضاً وحذاءً عالياً ويعتمر قلنسوة غريبة من الفرو. أفسحوا له الطريق كما لو كانوا بانتظاره ورافقوه إلى الفناء الأول. كانت الأرضية مغطاة بالحقائب وقد بان منها السجاد الحريري والتماثيل العاجية والأقمشة المطرزة والحلي الذهبية والأحجار الكريمة والقناديل البيضاء. فجاءت ليلى وكانت ترتدي الحجاب، وأكدت له ما في ذهنه من أفكار. كان والدها قد

عاد من السفر بعد غياب استغرق سنة تقريباً، وطلب على الفور رؤية موسى وابن رشد. شدّت على يده بقوة وقد بدا عليها القلق وتركته يصعد الدرج برفقة اثنين من الحراس.

لمح موسى ابن رشد في غرفة الجلوس وقد أحاط به حارس من كل جهة. وتبادل الاثنان نظرات الخوف، وكان كل منهما يفكر بالشيء نفسه الذي يفكر به الآخر، وهو أن واحداً منهما لن يخرج بالتأكيد من هذه الحجرة على قيد الحياة.

بعد قليل دخل التاجر الشيخ وجلس على أريكة ودعا ضيفيه إلى الجلوس بجانبه. وكان يبدو عليه التقدم في السن قليلاً، ولكن عينيه الصافيتين كانتا ما تزالان ثاقبتين. قال بصوت بطيء:

- السلام عليكما. أخبرتني ليلى أنكما كنتما في أغلب الأحيان تسألان عن أخباري، وهذا أمر حسن. لقد قمت برحلة طويلة بسببكما تقريباً. وقابلت عدة أشخاص في بلدان متعددة. وخلصنا إلى نتيجة أن في أخويتنا ما لا يدعو للطمأنينة. فكل شيء يدل على أنها خرقت من قبل مجهول يسعى للتخلص منا جميعاً واحداً تلو الآخر. واحد يمتلك القطعة الذهبية ولكنه لا يمتلك الكتاب فيرتكب القتل لكي يحصل عليه، ولكنه لحسن الحظ لم يفلح حتى الآن. وظن الجميع أن الشخص المجهول لا يمكن أن يكون إلا واحد منكما، إذ إننا واثقون من الآخرين. فواحد منكما إذاً نصّاب ويعرف نفسه أو أنه ساذج غرر به، وفي الحالتين سيلقى مصرعه. وأظن أنني أعرف من يكون.

نظر إلى موسى ثم أضاف:

- ليس لقراري علاقة بدياتني أو بديانتكما. لقد حان الوقت لكي نتجاوز هذه الأمور الصبيانية. وهذا هو كل الموضوع في هذه القصة. كلا، فقراري لا يتعلق إلا بجوابكما على ثلاثة أسئلة. ومن أختاره منكما يكون الكتاب من نصيبه، ويكشف بقية أعضاء الأخوية عن هوياتهم له. والآخر...

توقف هنيهة ثم استأنف قائلاً:

- لنكرر باختصار. لا يستطيع أي منكما أن يقول لي من سلمه القطعة الذهبية التي معه. أنا أفهم ذلك، فتلك هي قاعدتنا. ولكن حدثني كل واحد منكما ما حصل له بعد ذلك. فأنت يا ابن رشد، أرسلك إلي جيرار الكريموني؟

- ليس تماماً. طلب مني أن أذهب إما إلى فاس لأقابلك وإما إلى ناربون لأقابل شخصاً يدعى ألبيريك دومونبا، ففضلت المجيء إلى هنا. فهذه الوجهة أقل خطراً في نظر إنسان مسلم، لكنني لم أستطع ذلك على الفور، إذ إنني لم أحصل على إذن لمغادرة مركزي في سبتة.

- أما أنت يا موسى، فقد اضطررت أن تمر بالمزيد من المراحل، وتزعم أن كريمون قد أرسلك إلى شخص يدعى ابن طيبون الذي أرسلك بدوره إلى ابن شوحانا الذي أرسلك إلي أنا. أليس كذلك؟

- ليس تماماً. فكريمون خيّرني بين وجهتين، واحدة إلى فاس، والأخرى إلى ناربون. وجهتان كوجهتي ابن رشد. كلمني عن ابن شوحانا في فاس، وأنا فضلت التوجه إلى ناربون لأقابل ابن طيبون لأن هذه المنطقة كانت تبدو لي أقل خطراً من المغرب بالنسبة ليهودي. وابن طيبون هو الذي أرسلني إلى ألبيريك دومونبا.

ران الصمت لفترة طويلة ثم استأنف التاجر كلامه:

- نظن انه كان يجب ان نكشف هوية الجاسوس قبل حصوله على القطعة الذهبية، ولكن هذا لم يحصل لأن الأسئلة التي كان يجب أن تطرح عليكما لم تطرح، فكريمون كشف لكما عن أشياء لم يكن ينبغي عليه أن يدعكما تعرفانها.

سأل ابن رشد مستفهماً:

- أسئلة؟ ما هي هذه الأسئلة؟

- لا أحد يستطيع أن يدخل بشكل نهائي إلى أخويتنا دون أن يجيب إجابة مقنعة على ثلاثة أسئلة. وكانت هذه الأسئلة الثلاثة تتيح لنا على الدوام منذ وجود أخويتنا أن نتحقق إن كان الذي نطلعه على أسرارنا جديراً بها، ونظن أن واحداً منكما ليس كفؤاً على الإجابة على هذه الأسئلة.

تبادل موسى وصديقه النظرات وقد استولى عليهما الخوف. وكان الجبابرة الصينيون يسدون جميع المنافذ.

تابع الكندي قائلاً:

- إليكما أسئلتي، أجيبا عليها بفضل معرفتكما وخذا وقتكما. ابحثا في أعماق الذاكرة عن الجواب الأكثر صحة دون أن تخشيا ما أرغب في سماعه. هل كلامي واضح؟

هز كل منهما رأسه.

- السؤال الأول: ما هي بنظركما أوجه الاختلاف بين الديانات التوحيدية الثلاث؟

جحظت عينا كل منهما، فقد كانا يتوقعان أسئلة أدق وأوضح من ذلك بكثير. لم يفهما طبيعة العلاقة بين هذا السؤال اللاهوتي الأساسي وبين المخطوط الشهير. ولكن موسى فكر في سره أنه سمع السؤال نفسه من قبل. فأين يا ترى؟

همس قائلاً كما لو أن إنساناً آلياً يتكلم من داخله:

- ليس هناك من اختلافات بين هذه الأديان، فجميعنا نؤمن بالأشياء نفسها. إن الله في نظر اليهود والمسلمين هو فاطر السماء والأرض. يظهر للبشر ويقيم معهم العلاقات، يهتم بهم ويكترث لسلوكهم. يعلمهم طريقة العيش الصحيح، ويحاسبهم تبعاً لأفعالهم وتبعاً لطريقة تقيدهم بتعاليمه. وهناك تسعة مبادئ في اليهودية متفقة مع الإسلام، وهي الإيمان بوجود الخالق، وبوحدانيته وبلا ماديته وبخلوده وبوجوب عبادته وبرسله وبتنزيل الشريعة على موسى عند طور سيناء وبديمومة هذه الشريعة المنزلة وبعلمه لكل شيء. أضف إلى ذلك أن موسى بنظرنا هو أعظم الأنبياء بينما محمد ليس كذلك لأن النبي يجب أن يحسن القراءة، ومحمد كان أمياً. والأنبياء يقودون الشعوب دون أن يكونوا قادة عسكريين، ومحمد كان قائداً عسكرياً. ومحمد في نظرنا نحن اليهود ليس سوى إنسان مكلف برسالة سماوية مثل يسوع أو مريم أو سيروس ملك الفرس، وهو رجل يسير ويعيش ويأكل كغيره من الناس. ومن جهة أخرى ننظر إلى الشر على أنه هو الجهل، وفي الإسلام هو فعل وحشي. والشيطان في اللغة العبرية هو الجاهل، وفي الإسلام هو الجن الحاقد على البشر. والقرآن برأينا مليء بالمتناقضات، فهو على سبيل المثال

يذكر في زمن الفراعنة مهمان وهو عندنا إستير، ويخلط بين مريم أم يسوع وبين مريم أخت موسى وهارون، ويخلط بين يسوع الذي يسميه عيسى وبين عيسو أحد أولاد إسحاق. وأخيراً يقول القرآن إن إسماعيل هو من كان سيفدّى به وليس إسحاق. وعلى الرغم من كل هذه الاختلافات يبقى الإسلام في نظرنا أطهر الديانات التوحيدية وأنا أكن له الاحترام والتقدير. ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسيحية التي ليست توحيدية في نظرنا.

لم ينطق التاجر بكلمة. استدار نحو ابن رشد وحدق به. قال القاضي الشاب بصوت متوتر:

أنا لا أفهم أهمية هذا السؤال، ولكن جوابي هو التالي: نحن أيضاً نجل اليهودية ونحترمها، وهي ديانة كاملة. والإسلام الذي أراده محمد ديانة للمسلمين هو قريب من اليهودية لدرجة أن مشركي المدينة سارعوا إلى الاعتراف بفكر محمد قبل استحواذ اليهود عليه. أضف إلى ذلك أن اسم إبراهيم يظهر تسع وستين مرة في القرآن، وفي خمس وعشرين سورة. ومن جهة أخرى نختلف عن اليهود في تصورنا عن ماهية الله، فالله في نظرنا نور، وفي نظرهم تجريد. أضف أن الإسلام دين شمولي، فهو ليس معقوداً على شعب واحد كما عند اليهود ولا على شخص واحد كما عند المسيحيين. وجميع الناس عنده متساوون، فأنا أؤمن بالشعوبية أي المساواة بين جميع المسلمين. ويكفي في نظرنا خلق العالم حتى نتيقن من وجود الله، فلسنا بحاجة إلى انتظار مسيح. والقرآن هو معجزة محمد اليتيمة، وهو آخر كلام الله. وأضف أيضاً أنه العلامة الحقيقية على نبوّته. وإذا كان قد كتب

بطريقة خاصة جداً، فلأنه نزل على الأقوام العربية الذين حُرِّموا من الظهورات الأخرى، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية القرآنية:

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ . . .﴾[1]

ولهذا السبب يجب توجيه تفسير القرآن لأقوام آخرين. وقد ذكر الغزالي سبعين ألف تفسير ممكن لكل سورة من سور القرآن، وتكلم بعض الفلاسفة عن أكثر من ثلاث مئة ألف تفسير، وآخرون أيضاً تكلموا عن مليونين وأربع مئة ألف تفسير. أما المسيحية فهي ليست في نظري كما في نظر موسى ديانة توحيدية، وأنا أكن لها الاحترام والتقدير. يقول المسيحيون إن المصلوب هو تطعيم غصن من شجرة زيتون برية مع شجرة زيتون اليهودية، ولكن لماذا تطعيم شيء ما من شجرة زيتون سليمة؟ ويقولون أيضاً إن يسوع أتى لافتداء آلام العالم، ولكن هل هناك سوق للآلام؟ فيسوع ابن مريم لم يمت في نظرنا على الصليب، وإنما صعد حياً إلى جوار الله، وسوف يعود في نهاية العالم كما جاء في النبوءة. وهو ينتمي إلى فئة الأنبياء مع إبراهيم وإسماعيل وموسى ولوط وصالح وهود وشعيب ومحمد. فديانتنا هي إذاً برأيي تعلو على جميع الديانات الأخرى، ولا تنزع إلى السيطرة عليها.

راح الكندي ينظر تارة إلى ابن رشد وتارة أخرى إلى موسى دون أن يصدر عنه حركة يمكن تفسيرها على أنها استحسان أو استهجان لما سمعه. وبعد برهة من الزمن قال وكأنه أراد أن يتمثل إجابتهما:

١- سورة ياسين: الآية ٦.

- لنتابع مع السؤال الثاني: ما الذي بإمكانه أن يجعل الكون يزول عن الوجود؟

قال ابن رشد في سره، والتاجر يتفحصه بقوة: ياله من سؤال غريب!. كيف يمكن أن يسعفه ذلك في معرفة النصّاب الحقيقي؟ أما موسى فقد فهم، فالسؤال ذكّره بخاله إليفار. وقد سبق أن طرح عليه هذا السؤال، فهو الآن متأكد منه وقد لقنه جواباً نطق به بأقصى سرعة:

- يزول الكون عن الوجود إذا توقف الله عن التفكير فيه. كانت مشيئة الله أن يكون الكون في لحظة ما فكان وبإمكانه أن يكفّ عن هذه المشيئة. ولكن إذا كان الكون موجوداً منذ الأزل بشكل مستقل عن الله كما يؤمن البعض، فالله عز وجل يستطيع أيضاً أن يجعله يزول عن الوجود. وهناك في الواقع دلائل في سفر التكوين تحملنا على الاعتقاد أن المادة كانت قبل خلق العالم، فمن الممكن إذاً أن تكون المادة والزمن خالدين، ولا يمنع هذا الله من أن يضع نهاية لهما وذلك بمجرد التوقف عن التفكير فيهما.

- وأنت يا ابن رشد، ما السبب الذي يجعل الكون يزول عن الوجود في نظرك؟

رد القاضي:

- لا يوجد سبب على الإطلاق له تأثير على ما ليس له بداية. أحياناً أهدد طلابي بزوال الكون من الوجود، ولكنني لا أؤمن بذلك. إن الله لا يمكن أن يجعل شيئاً لم يخلقه يزول عن الوجود، لأن الله الذي هو مبدأ كل حركة لم يخلق لا المادة الخالدة ولا الأشكال ولا الزمن إذ

لا شيء يمكن أن ينتقل من العدم إلى الوجود. الواحد لا يمكن أن يولّد سوى الواحد. الله لا يخلق الكون وإنما ينقل فكره إليه، فهو يخلق العقل الأول الذي تصدر عنه فيما بعد عقول جميع الأجرام السماوية وأكثر هذه العقول تواضعاً هو العقل الإنساني، الإنسانية المفكرة. وإذا توقف الله عن التفكير في الكون، فإنه لا يزول عن الوجود وإنما يصبح شيئاً آخر، يفرغ من محتواه ولا يعود الفكر الإنساني يدركه، وهو الفكر المصَمّم لإدراك العالم الذي فكر الله فيه. وإذا توقف الله عن التفكير في الكون، يمكنه أيضاً أن يقضي بأن فكراً آخر غير فكرنا يفكر فيه بطريقة مغايرة، ولن يكون هناك بالنسبة لهذا الفكر لا زمن ولا مادة. فالعلم موجود لأن الله يدع الإنسان يفكر فيه، وهذا العلم قد يصبح له وجود مغاير لما كان موجوداً بلا شك قبل تفكير البشر فيه. فالعلم إذاً هو طريقة لتفسير الكون خاصة بالوضع البشري؛ فهو لا يستطيع أن يقول لنا إذاً كيفية زوال الكون عن الوجود.

ظل الكندي محتفظاً بهدوء أعصابه، وراح ينظر بعيداً أمامه. قال:

- إليكما السؤال الثالث: هل من الممكن أن تكون الحقيقة قد نزلت على غير أنبيائكم؟

عجل ابن رشد بالإجابة على السؤال إذ إنه باعتقاده قد فهم إلى أين يريد التاجر أن يصل:

- بالطبع! إن الحقيقة نفسها التي أنزلها جبريل على النبي محمد أنزِلت أيضاً على الفلاسفة بإفاضة من الله، وهي القوة الفاعلة والنور الرباني وتعبير الفعل الإلهي.

قال الكندي بصوت مهموس:

- حسناً، حسناً جداً.

تابع ابن رشد وهو يفكر بما يظن أنه يعرف عن الكتاب السري:

- إن الفلسفة والعلم هما طريقة للوصول إلى عمليات المحافظة على الكون على حالته، والعقل يفتح للبشر باب الوصول إلى نفس الحقائق التي أنزلها الله على أنبيائه.

استدار الكندي إلى موسى وقال:

- وأنت؟

كان موسى قد حذر السؤال قبل أن يطرحه التاجر عليه، فتلا بلا تردد ما كان قد علمه خاله في هذا الشأن:

- إن الله يظهر لأقوام مختلفة بطرق مختلفة ومن خلال ظهورات مختلفة تتطابق مع طباعهم وعاداتهم وثقافاتهم. فيمكن أن يكون هناك ذات يوم أنبياء غير يهود.

قال الكندي متمهلاً:

- هل من المعقول أنه كان هناك أنبياء غير يهود وغير مسلمين؟

فكر موسى من جديد بما لقنه خاله فيما مضى، فأضاف:

- استناداً إلى التلمود ومنذ هدم الهيكل، لا يحق إلا للأطفال والمجانين أن يصبحوا أنبياء. ولكنني أعرف أحدهم كان يتكلم كما يتكلم الأنبياء دون أن يكون واحداً منهم.

سأل الكندي ملحاً:

- ومن يكون؟

نظر موسى إلى ابن رشد، تردد ثم تشجع مستشهداً بخاله:

- هو أرسطو. فيبدو أن كتابه «الطبيعة» مستوحى من الإصحاح الأول في «سفر التكوين» ويستلهم كتابه «ما وراء الطبيعة» مباشرة الإصحاح الأول لحزقيال...

بقي الكندي محتفظاً برباطة جأشه. همس قائلاً:

- إن الأنبياء المزيفين هم عميان مجبرون أن يستندوا على مقبض الأبواب. ومجد الله هو أن يخفي الحقيقة... وأنت ما قولك في ذلك؟ قال مخاطباً ابن رشد.

أجاب ابن رشد على الرغم من ما اعتبره نوعاً من التحذير:

- إن الأعمى يبتعد عن الحفرة التي يقع البصير فيها. ووحده تنزيل القرآن نبوي. فالفلسفة والدين يجب أن يبقى كل منهما في دائرته الخاصة، وهذا هو شرط اتفاقهما. ولا أعرف شخصاً أقرب من أرسطو ليكون نبياً إذ لا يوجد شخص أكثر منه كمالاً بين البشر.

- هل تعتقدان إذاً أن أرسطو لم يكن بإمكانه أن يكون نبياً؟

رد ابن رشد:

- هذا مستحيل! ولكن على الرغم من أن الإغريقي ليس نبياً، فإن الحقيقة تصدر عنه أحياناً، وعلينا عندها أن نأخذ بها فرحين لأن أداة التضحية لا تؤثر على صحة التضحية ذاتها.

ابتسم التاجر الشيخ وقال:

- هذه مقارنة غريبة جداً.

- أعني بذلك أن المهم ليس الأداة وإنما النتيجة. أضف إلى ذلك أنه بقتل كبش الفداء يحافظ الجلاد على النظام الاجتماعي. فالتضحية أو قول الحقيقة هما شيء واحد. ودور العقل هو إقامة

النظام في العالم لأن الله لم يخلق سوى عالم يسوده النظام. وهكذا فغاية الفلسفة كما غاية الرياضيات والقانون هي تجميع المعرفة عن عمل الله، والقضاء على العنف.

نظر التاجر إلى الشابين على التوالي ثم تناول كأساً من ماء الورد وهمس قائلاً:

- أشكركما، فأنا الآن أعرف من منكما النصّاب. وسيحصل الآخر على أهم كتاب خطته يد كائن بشري. يجب علي الآن أن أذهب لأجتمع ببعض الأصدقاء لنقرر ما سنفعله. وفي هذه الأثناء، انتظراني هنا. حدق بموسى وأضاف:

- إذا لم أرجع أختارك أنت قيّماً على ليلى.

وخرج الكندي تاركاً الرجلين نهباً للخوف والقلق تحت أعين الجبابرة الصينيين.

في هذه الأثناء، وفي ليلة الثامن عشر من شهر محرم، ويصادف يوم عاشوراء (يوم الصيام احتفالاً بتوبة آدم المطرود من الجنة وبنجاة نوح وبتحرير أطفال إسرائيل من ظلم فرعون)، دخل ابن طفيل سراً إلى فاس مع كبار ضباطه. فدعا على الفور كبار المسؤولين في المدينة إلى اجتماع وشرح لهم أنه لم يعد بإمكانه التساهل مع الامتيازات المشينة التي كان أهل الكتاب من يهود أو مسيحيين يتمتعون بها حتى الآن. كان ينبغي وضع حد لهذا الوضع السيئ، فقد سمع أن احتفالات دينية كانت تقام في بعض بيوت المدينة، وكانت هذه الاحتفالات محصورة بمسلمين اعتنقوا اليهودية سراً أو بيهود اعتنقوا الإسلام ولكنهم ظلوا على دينهم السابق. وكانت مثل هذه التصرفات تعرض صاحبها للموت.

غادر الضباط مكتبه ثم جمعوا جنودهم. اقتحم الفرسان الغيتو اليهودي على حين غرة، وقام الجنود بتحطيم الأبواب وإيقاظ العائلات من نومها، ودخلوا على وجه الخصوص إلى منزل الكندي وأصيبوا بالدهشة لما رأوا شابين لم يستطيعوا اتهامهما بشيء. وقاموا بتفتيش الأثاث والصناديق دون أن يعثروا على شيء. فتشوا جميع المنازل وكانوا على وشك المغادرة عندما لا حظ أحد الجنود مشكاة غريبة في جدار أفقر البيوت في الغيتو. ووراء الستار اكتشفوا ممراً يفضي إلى طريق متعرج وينتهي بغرفة واسعة تحت الأرض مغطاة بالرمل حتى لا تسمع وقع الخطوات. وهناك اكتشفوا كنيساً جميلاً مضاءً كأنك في وضح النهار، وكان يجتمع فيه ما يقارب عشرة أشخاص، ومن بينهم ابن شوحانا وتاجران كبيران من المدينة القديمة وأحد الأئمة الأكثر نفوذاً، والمترجم الإنجليزي هستينكز وتاجر عائد لتوه من السفر ويدعى الكندي. صرخ هستينكز وبكى وقال إن وجوده هنا هو بمحض المصادفة، وادعى أن له علاقات مع شخصيات كبيرة في السلطة وأن لا علاقة له بهؤلاء الناس لا من قريب ولا من بعيد. وحاول الكندي الهرب ولكن ألقي القبض عليه وقام الجنود بضربه واقتيد مثخناً بجراحه مع الآخرين إلى سراديب القصر التي لا يخرج أحد منها على قيد الحياة كما يقال.

الفصل السادس

٨ نيسان ١١٦٥م،
تنفيذ حكم الإعدام
بالحبر ابن شوحانا أمام مدرسة بو حنانيا
١٤ نيسان ٤٩٢٤ - ١٣ جمادى ٥٥٩

كان الشتاء كارثة على اليهود في كل مكان من الكرة الأرضية. ولم تلق نداءات البابا الإسكندر الثالث للقيام بحملة صليبية ثالثة أي صدى إذ إن أوروبا قد انهارت ولم تبرأ بعد من هزيمتها في الحملة الصليبية الثانية. تعرضت الطوائف اليهودية في فرنسا وإنجلترا وألمانيا للقتل والتشريد. فلجأ بعضها إلى بولونيا، والبعض الآخر إلى مصر والقسطنطينية وقشتالة. وقع من بقي من اليهود في فلسطين بين الديانتين الموحدتين وعوملوا معاملة بعيدة عن معاملة الإنسان لأخيه الإنسان. ولم يكن مصير طوائف حلب وبغداد والموصل ودمشق وكابول واليمن بأفضل. كان موقف إمبراطورية الموحدين من فاس إلى القيروان، ومن مراكش إلى الأندلس حاسماً، فقد أعلن الخليفة الجديد أن على جميع اليهود أن يعتنقوا الإسلام

على الفور أو أن يجلوا عن أراضيه دون أن يحق لهم بيع شيء من أملاكهم.

وفي فاس تركت غارة عاشوراء في نفوس الآلاف من اليهود انطباعاً مخيفاً. وكان كثير منهم يجدّفون على الله لأنه تركهم يقعون في هذه المصيدة. وكانوا يقولون إنهم لم يكونوا يستحقون مثل هذه الإهانة، فهم كانوا دائماً يصلون، ولكن العلي القدير أصبح ظالماً وعاقاً إذ أوقعهم في أيدي محظييه الجدد. كان اليهود يدخلون في الإسلام أفواجاً. أما داوود وصحبه فكانوا يستعدون لقتال جنود الخليفة وفي أيديهم الموت والأسلحة. ادعى أحد المخبولين في عقولهم أنه المسيح وكان يعد من يسير خلفه بالحماية من الموت وبالخلود دون الحاجة لتبديل دينه.

ندد موسى في عظته في الكنيس الكبير بهذا المسيح الدجال الذي لا يمكن أن يكون المسيح لأنه لا يستطيع أن يحرك ساكناً ضد طاغية ولا أن يمنح الناس الخلود. فهذا الفرد لا يستحق سوى السجن أو مشفى المجانين لأنه دجال أو مجنون. وأعاد موسى إلى الأذهان أنه ينبغي عدم انتظار شيء من السماء وعدم تقديم فروض الطاعة بدافع المصلحة أو اتهام الله بالمصائب التي تكب الناس بها. وقال إن الله ليس بخادم للعالم، فيجب أن يكون الإيمان منزهاً عن المصلحة تنزيهاً خالصاً، ويجب أن تجد ممارسة العدل والحقيقة والحب مكافأتها في ذاتها.

أسرعت ليلى غداة غارة عاشوراء إلى قصر الحاكم لتحاول الحصول على أخبار عن والدها. فطردها الحاكم وأمرها أن تكون

أكثر تكتماً إذا أرادت ألا تثير الانتباه لحالتها. هل كانت حقاً مسلمة صالحة؟

لم يفلح ابن رشد الذي توسلت إليه لمساعدتها في مقابلة ابن طفيل. بلغه فقط أن السجناء قد اقتيدوا إلى سراديب قصر الحاكم وأن ابن طفيل قام باستجوابهم بنفسه وعرض عليهم العفو بعد سنة من العبودية بشرط اعتناقهم الإسلام. فأذعن عدد كبير منهم وأرسلوا على الفور إلى العمل في مناجم الجنوب. وكان وليام هستينكز من بين هؤلاء ولكن القاضي الشاب علم أنه لم يخرج حياً من التحقيقات وأنه دفن داخل سور السجن. أما ابن شوحانا فقد رفض تبديل دينه مفضلاً الموت على ذلك. ولم يتوصل ابن رشد إلى معرفة مصير الكندي الذي أصيب بجروح وهو يحاول الهرب.

اقترح داوود على موسى شن حملة لاقتحام القصر وتحرير السجناء، فرفض موسى لأن ذلك سيزيد من عدد الضحايا. كان موسى يشعر بالقلق من جراء ميول أخيه وصحبه للعنف، فقد تنقلب أعمالهم ضد مصلحة طائفتهم.

بعد فترة أعلن الحاكم أن الحبر سوف يعدم إذا بقي مصراً على موقفه، أو إذا لم يدفع اليهود عنه فدية مقدارها عشرة آلاف مرابطية[1]، وهو مبلغ كبير يستحيل جمعه. اجتمع أرباب العائلات في الكنيس وحسبوا ما بحوزتهم من مال فوجدوا أن أقصى ما يستطيعون دفعه هو ستة آلاف ومائتا مرابطية هذا مع تعريض حياة أفراد عائلاتهم الذين كانوا يستعدون للرحيل لخطر المجاعة. عرضوا هذا

١- وحدة نقد اندلسية تساوي قرشاً.

المبلغ على الحاكم فرفضه، وأبى أن يرضى بأقل من عشرة آلاف وفي مهلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر. لم يبق أمامهم سوى البحث عن مساعدة مالية في مكان آخر. ولكن أين؟ فاليهود الميسورون يعيشون في طليطلة التي استقر الوضع فيها، وهم وحدهم القادرون على دفع بقية المبلغ. لذا كان ينبغي إرسال وفد يقنعهم بتقديم المساعدة، غير أن الوصول إلى طليطلة كان صعباً، فيجب ركوب البحر إلى برشلونة والتحرك بسرعة.

تقرر إرسال مبعوث يحمل رسالة إلى رئيس الطائفة عبد الحسن يهودا، وكان يشغل منصباً مهماً في بلاط ملك قشتالة. قام موسى بكتابة الرسالة واختار أخاه لنقلها لأن داوود خبير أكثر من غيره في شؤون المال ولأنه أيضاً أكثر استعداداً من غيره لاجتياز هذه المناطق الخطرة برفقة أصحابه.

جاء في رسالة موسى ما يلي:

«... حماك الله ورعاك وبارك فيما قمت به من عمل في صالح الأسرى. يحمل إليك أخونا المحترم داوود بن ميمون حفظه الله رسالة يجب أن تتلى أمام الجميع. وأرجو منكم يا أخوتي الأعزاء أن تصغوا إليها بانتباه شديد عندما تتلى على مسامعكم. فبهذا تفعلون فعلاً تستحقون عليه الشكر. تصرفوا كما تصرفنا نحن القضاة والشيوخ والعلماء. فقد قمنا في الليل كما في النهار بزيارة جميع الناس في الكنيس والبيوت والأسواق كي نلتمس منهم السخاء وندعوهم للمساهمة في هذا العمل الخيري. وقد قدمنا بأنفسنا ما استطعنا من مساهمة مالية كل حسب طاقته. لذا يقع على عاتقكم أن تحذوا

حذونا من أجل أن نعتق أسيرنا وندلل على كرمنا. وعندما تتيح لكم العناية الإلهية وقلوبكم البيضاء جمع المبلغ المطلوب نرجو منكم أن تتفضلوا بإرساله إلينا مع أخينا داوود المحترم الذي ورد اسمه في مقدمة هذه الرسالة. وأعرف أن لا حاجة أبداً لأن أذكركم بواجباتكم، نتمنى من الله ذي الجلالة أن يجنبكم الوقوع في الحاجة وأن يشملكم بحمايته ويمن عليكم بالخير والبركة. جعل الله أيامكم دائماً أمناً وطمأنينة.»

بعد انقضاء شهرين تلقى يهود فاس، والفوضى تضرب أطنابها في كل مكان، رسالة من أحبار ناربون ينصحونهم فيها بخيار الموت ولا الدخول في الإسلام. كانت هذه النصيحة صدمة كبيرة لهم، فإذا كان الأحبار البعيدون عنهم يفكرون كما يفكر معلمهم ابن شوحانا، فربما كان هذا الأخير على صواب. أخذ الجميع بالبكاء والنحيب. واغتاظ موسى من هذه النصيحة التي أسداها أناس يعرفهم حق المعرفة دون أن تكون حياتهم معرضة للخطر. تذكر قبل ست عشرة سنة ذلك اليوم الرهيب الذي تكلم فيه والده في الموضوع نفسه في الكنيس الكبير في قرطبة. قال موسى ووالده الواهن إلى جانبه: أن الحياة هي أقدس ما في الوجود، فينبغي ألا نندد بمن يستبدل بدينه ديناً آخر تحت الضغط والإكراه. وأضاف قائلاً إن من يُكره على ترك دينه فلا خوف عليه، لأن الإسلام هو أيضاً دين توحيدي، وأن الجوامع المبنية من الأحجار والخشب لا تضم أصناما، بخلاف أماكن عبادة المسيحيين، وينبغي بالطبع الهروب عندما يصبح ذلك ممكناً. ويجب عدم التفكير بالموت إلا إذا استحال الهروب أو غصب المعتدي

المعتنقين للإسلام على انتهاك واجباتهم الأخلاقية كما حدث تماماً إبان حكم نبوخذنصر قبل أحد عشر قرناً. ولكن الوضع هنا مختلف، فالموحدون لا يشترطون على يهود فاس إذا اعتنقوا الإسلام أن يضيئوا النور يوم السبت أو أن يتناولوا الطعام في يوم الغفران. فإذا حصل ذلك وأصبح الهروب مستحيلاً، عندها فقط ينبغي التفكير بالموت.

جاء بعض اليهود ممن اعتنقوا الإسلام ليعددوا المناقب العامة للديانة الإسلامية المهدئة للنفوس، وكرروا بثقة ما كان موسى يكرره دائماً من أنها «أطهر الديانات التوحيدية». وقال البعض إن الاعتناق الشكلي لها لا ينطوي على مخاطرة، إذ إنه يكفي ليبقى المرء يهودياً أن يتلو بعض الصلوات حتى ولو اختصرها، وأن يؤدي فرض الصدقة نحو الآخرين. فقررت بعض العائلات التي يصعب عليها أن تتصور حياتها في مكان آخر، ويعز عليها أن تتخلى عن أملاكها، اعتناق الإسلام اعتناقاً صالحاً دون التفكير في العدول عنه.

شد معظم اليهود العزم على الرحيل تاركين وراءهم كل شيء. وجاء التجار المسلمون ليعرضوا عليهم تولي أمر أملاكهم حتى يستقر الوضع فيردونها لهم بلا تأخير، إذ إن الشيء الوحيد الذي أجمع عليه الجميع هو أن الوضع لن يستمر على هذه الحال إلى الأبد. وعندما يدرك الخليفة الجديد ما تقوم به الطائفة اليهودية والطائفة المسيحية من دور مهم في سبيل عزة المملكة سيعود إلى رشده وسيسمح لهم بالعودة سريعاً.

مرت الأيام ورئيس الوزراء ابن طفيل باق في المدينة لا يتحرك مثيراً دهشة الجميع. وتعجب ابن رشد من أن ابن طفيل لم يبعث أحداً

يطلبه ليسأله عن القطعة الذهبية والمخطوط الذي فقد إلى الأبد. وصار الشيخ ميمون ظلاً لنفسه لا أكثر ولا أقل، فكان يقضي وقته أمام نافذة غرفته منتظراً عودة داوود. أما موسى فكان يقضي جل وقته مع ليلى التي يئست من الحصول على أخبار عن أبيها، كما لو أن الكندي قد تبخر وتلاشى.

رأى موسى مرة في منامه داوود على متن سفينة في مهب العاصفة. كان يصرخ ويبكي ويستنجد وينادي والده وأخاه ويتوسل إليهما كي يسرعا لإنقاذه ثم غرق.

استيقظ موسى من هذا الحلم والعرق يتصبب من جبينه.

بعد أكثر من شهرين على غارة عاشوراء، جاء كبير الوزراء بنفسه ليسلم ليلى جثمان أبيها. قال إن الكندي قد مات متأثراً بجراحه على الرغم من كل العناية التي بذلها له أفضل الأطباء وكان هو من بينهم. وكان هذا هو السبب الذي دعاه للبقاء في فاس. وأضاف قائلاً إنه أمر بإعدام الجنود الذين أفرطوا في أذيته، وإنه كان آخر رجل يريده أن يموت، فهو رجل استثنائي يعلم أموراً كثيرةً...

بعد صمت طويل تابع ابن طفيل قائلاً:

- هل سمعت والدك يتحدث عن عملة إغريقية؟

- كلا!

- أو عن أرسطو؟...

- كلا!

قال ابن طفيل في سره إن التاجر كان بلا شك يستأثر بهذا الشيء لوحده. هل كانت تعرف على الأقل أين يخبئ أغراضه الثمينة

الغالية؟ كان عليها أن تبقى معه حتى يفتش البيت تفتيشاً دقيقاً إذا كانت لا تريد أن ترى رجاله يقومون بنهبه وسلبه.

كانت ليلى مفجوعة بموت والدها. فتحت له جميع الصناديق فوقعت عيناه على أوانٍ صينية

و مولفات يابانية وكتب هندية مقدسة ومخطوطات فريدة من نوعها. ولكن كبير الوزراء أمر جنوده بتمشيط البيت تمشيطاً دقيقاً على الرغم من وعده لها. فحطموا الأثاث والأرضية وسبروا الجدران وفتشوا في الألبسة ولم يتركوا الثياب التي ترتديها دون تفتيش، ولكن دون أن يفكوا الحزام الذي كانت تخفي في داخله قطعة موسى الذهبية التي استودعها إياها منذ سنة. لم يعثر ابن طفيل على ما كان يبحث عنه. انحنى لليلى وقد جن جنونه وخيرها بين الرحيل أو البقاء. وعلى كل حال قال لها وهو ينظر في عينيها مباشرة إنه سيقوم بتأمين حمايتها ما دامت على أراضي الإمبراطورية وما دامت بالطبع مخلصة للإسلام.

وقفت ليلى وسط جنود الوزير وخدم المتوفى وأمرت بلف جثمان أبيها برداء. وبعد ذلك نقل الجثمان إلى المقبرة الإسلامية. وكانت الفتاة قد طلبت من ابن رشد أن يصلي عليه صلاة الجنازة، فصلى القاضي عليه بحزن وأسى. لم يعد يخشى قرار التاجر ولكنه فقد كل حظ وكل فرصة للحصول على المخطوط، ووجد نفسه بوصول ابن طفيل إلى المدينة وجهاً لوجه مع الذي كان قد أشركه في هذه المطاردة، والذي سوف يطلبه بالتأكيد ذات يوم للمحاسبة.

وكان موسى إلى جانبه يتلو في صمت صلاة الميت بالعبرية. كان وضعه كوضع صديقه، فقد تخلص بموت الكندي من التهديد

بالموت وفقد في الوقت نفسه الأمل بالحصول على المخطوط. لم يعد يربطه شيء بالمخطوط الشهير سوى ابن شوحانا الذي كان قد أرسله إلى الكندي. فكان ينبغي عليه أن يفعل المستحيل لإنقاذ الحبر الشيخ. ولكن كيف وداوود قد انقطعت أخباره؟

أطلع موسى ليلى بعد عودتهما من دفن والدها على رغبته في اصطحابها معه إلى مصر وإرجاعها إلى ديانة والدها. فوافقت الفتاة بكل بساطة على الرحيل معه بشرط أن يتزوجا أولاً. ألم يكن هذا هو مطلبه؟. وأوضحت له أنها تريد الزواج في المسجد وليس في الكنيس. ولما رأت دهشة كبيرة ترتسم على ملامحه، شرحت له أن ليس مناها أن تبقى مسلمة ولكن ذلك يمثل بالنسبة لكليهما طريق الحكمة، فابن طفيل كان قد أفصح لها أنه سوف يتخلى عن حمايتها إن هي عادت إلى دين أجدادها. فكان ينبغي إذاً أن يصبح موسى مسلماً، ويرحلان حالما يعود داوود من السفر. وبعدها يصبح من الجائز لهما العودة إلى اليهودية.

أسرعا إلى ابن رشد. كانت الفتاة شاحبة جداً وهي ترتدي لباس الحداد، أما موسى فكان على العكس منها حيوياً نشيطاً.

قال لصديقه:

- نحن بحاجة إليك.

- إلي أنا؟ وفي أي شيء؟

- أريد منك أن تسجل اعتناقي للإسلام.

- أنت تمزح؟ أنت تريد أن تصير مسلماً؟

- نعم أنا.

- لا أظن أنك تختار اختياراً حراً أجمل الديانات وأطهرها. هذا الاعتناق لا قيمة له.

- أرجوك، لا تفكر في الأمر. افعل فقط ما هو ضروري.

- حسناً. يكفي أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن تنطق بذلك باللغة العربية. فإذا كنت مصراً على أن تصبح مسلماً فانطق بهاتين الشهادتين.

تردد موسى في البداية. نظر إلى ليلى فابتسمت له وشدّت على يده. قال بصوت مبحوح:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

- هذا هو أول ركن من أركان الإسلام. أما الأركان الأخرى فهي الصلاة والصيام والزكاة والحج. بالنسبة للصلاة فسوف تتعلمها بسرعة. وبالنسبة للزكاة فهي شبيهة بالصدقة في اليهودية. وبالنسبة إلى الصيام فهو أشد صعوبة من الصوم عند اليهود. وأخيراً بالنسبة إلى الحج، فإن كثرة رحلاتك تسمح لك أن تدرك معناه. وبقي هناك شيء أخير أريد أن أقوله لك وهو أن تأخذ عندما تعود إلى البيت حماماً علامة على الطهارة.

- سأفعل ذلك.

- أنت ترى كم هو سهل اجتياز الحدود. لقد قربنا القدر من بعضنا بعضاً، وهذه مشيئة الله.

قال موسى:

- لا دخل لله في ذلك. لقد تركنا وحيدين، وهو لا يعاقبنا ولا يكافئنا. وإن ما قربنا هي أفعال البشر الشريرة.

رد عليه القاضي:

- أنت لست على صراط مستقيم بقولك هذا بعد أن دخلت ديناً جديداً. ولكن تفكيري مطابق لتفكيرك. إن الناس احرار ولو لم يدركوا هذه الحرية. فإذا عاشوا عشرة آلاف سنة فسوف ينتهي بهم الأمر إلى أن يفهموا أنهم قادرون على التأثير في أقدارهم.

ابتسم موسى وقال:

- بعد عشرة آلاف سنة سوف تمتلئ الأرض بمعرفة الله كما هو المحيط ممتلئ الآن بالماء.

قالت ليلى مقاطعة:

- ليس الوقت الآن هو وقت نقاشكما الفلسفي. أنا وموسى نحتاجك أيضاً في شيء آخر. أنت قاض أليس كذلك؟ وتستطيع أن تسجل الزيجات...

- لقد فهمت.

قال موسى: ماذا تنتظر إذاً!

كان ابن رشد على وشك أن يستدعي شاهدين ليقوم بمراسم الزواج عندما مثل أمامه حارس وأخبره أن ابن طفيل ينتظره على عجل. أخيراً! ها هو كبير الوزراء الذي لم يلتقِ به منذ أن كلفه بهذه المهمة في مراكش قبل نحو سنتين يطلب الآن رؤيته. لا بد أنه سيسأله عما فعل. عليه أن يكون حذراً وأن يشرح له أنه ما زال ينتظر عودة كريمون إلى طليطلة. كان أمله الوحيد هو أن لا يكون كبير الوزراء قد علم أن المترجم قد أتلف نسخته الخاصة به بعد أن سلم نسخة عنها إلى الكندي. ولكن لا بد من أن يكون ابن طفيل على علم بذلك،

فلماذا أمر بشن الغارة إن لم يكن من أجل العثور على هذه النسخة؟ ولعله أجبر الكندي تحت التعذيب على إفشاء سر المخطوط. فإذا كان الأمر كذلك سيفقد ابن رشد كل أهمية ومنفعة في نظر كبير الوزراء. إنه ينتظر هذه الدعوة بقلق وخوف منذ ثلاثة شهور. فكر في الهروب ولكن ذلك مستحيل، فأحد الحراس ينتظره على الباب ليأخذه إلى القصر، ولن يقطع مسافة ساعتين على صهوة جواده حتى يلقى القبض عليه. ابتسم لصديقيه قائلاً:

- سأزوجكما غدا... إذا رجعت حياً.

أحس ابن رشد بالخوف من جديد، لا بل بالرعب الذي كان قد أحس به على متن السفينة التي كانت تعبر المضيق في طريقه لأول موعد له. قال في سره وهو يدخل القصر إنه لن يرى بعد اليوم السماء والنجوم التي طالما أحبها. كان يعلم بينه وبين نفسه أنه مستعد لأي شيء حتى يبقى على قيد الحياة، فهو ليس من قافلة الشهداء. تساءل كيف يمكن للحياة الحلوة الجميلة أن تهوي بين لحظة وأخرى في هوة العدم المخيف، فما زالت أمامه أمور كثيرة ليقوم بها. أخذ عهداً على نفسه أنه إذا نجا فسوف لن ينسى ذلك مطلقاً.

وجد كبير الوزراء جالساً على كرسي الحاكم. كان آخر لقاء بينهما يعود إلى ذلك اليوم الذي كان استودعه فيه القطعة الذهبية في قصر ولي العهد في مراكش، وكان حينذاك مستشاراً له. ولما أصبح كبيراً للوزراء ازداد جسمه بدانة. كانت عيناه غائرتين كأنه كان نهباً لتعب لا برء منه. كم من أمور حدثت في حياة ابن رشد منذ ذلك الحين كرحيله إلى طليطلة، ولقائه بكريمون، وإقامته

في سبتة، والبحث عن الكندي في فاس، ولقائه بموسى، واستجواب الكندي له، ولقائه بهستينكز... ينبغي عليه ألا يقول له شيئاً عن كل هذه الأمور.

كان ابن طفيل يبدو على عجلة من أمره، فعليه أن يرحل قريباً إلى قرطبة التي تتسارع فيها الأحداث. استقبل ابن رشد كما لو أنه كان قد تركه منذ ساعة:

- السلام عليك! لقد فهمت على ما أظن أنك لم تنجز المهمة التي وكلتك بها؟

- ليس بعد. فأنا ما زلت أنتظر رسالة من كريمون تخبرني متى أعود إلى طليطلة لاستلام المخطوط.

- رسالة؟ هذا ما كنت أخبرتني به من قبل. ولكن هل علي أن أصدق ذلك؟

صحيح أن كريمون قد غادر المدينة منذ ما يقارب السنتين، فقد أخبرني بذلك رجل من رجالي الذي كان يتولى مراقبته. وصحيح أيضاً أنه لم يرجع بعد.

قال ابن رشد بعد أن بلع ريقه بصعوبة:

- أنت تعرف إذاً كل ما يجري في طليطلة؟

- من أبسط الأمور في نظر حكومة قوية هو أن يكون لها عيون في عاصمة أعدائها قبل كل شيء. في الواقع لدينا مخبرون ممتازون يشغلون مناصب مهمة في طليطلة. ألم يدلك كريمون هذا على طريق آخر للعثور على الكتاب؟

شعر ابن رشد برجفة ولم يفلح في السيطرة عليها:

- كلا، لقد رحل ليحضر نسخة عن الكتاب ووعدني أنه سيرجع.

- نعم، نعم... هي رحلة طويلة! ولكنني علمت مؤخراً من أحد المخبرين أن كريمون هذا يعرف الكندي، وهو ليس غريباً عنك إذ إن رجالي وجدوك في منزله عشية القبض عليه... غريب، أليس كذلك؟ وكان الإيطالي على معرفة بهذا اليهودي الذي انتحل هوية مسلم. فهل كنت قد أتيت إلى فاس من أجل لقائه؟

شعر ابن رشد بقواه تخور فحاول أن يخفي ذلك:

- جئت إلى فاس لكي ألقي محاضراتي فيها. وأظن أنه كان لك دور كبير في تعييني في الجامعة.

ابتسم الآخر وقال:

- يمكن قول ذلك. ولكنك كنت قد طلبت قبل ذلك إذناً أكثر من مرة لمغادرة سبتة والذهاب إلى فاس. وهذا الحاكم المغفل لم ير داعياً ليخبرني بذلك. لماذا كنت مصراً على المجيء إلى هنا؟

- إنه مجرد فضول فكري. كنت أحب أن أزور الجامعة.

- أن تزور الجامعة؟ نعم بالطبع. ولكن لا بد أن تتخيل أنه لم يغب عن علمي منذ سنتين كلمة من كلماتك التي تفوهت بها ولا درس من دروسك التي ألقيتها ولا فكرة من أفكارك التي جهرت بها.

كان يعرف كل شيء! ماذا كان ينتظر لكي يقرأ عليه حكم الإدانة؟ استعاد ابن رشد قليلاً من الشجاعة فقال مجازفاً:

- أنت تعرف إذاً ما ألقيته في محاضراتي؟

- كانت في الواقع شائقة جداً.

- هل تستطيع أن تشرح لي إذاً، وأنت الذي حرصت أن أعلّم في هذه الجامعة التسامح، لماذا تقف اليوم إلى جانب من يغتال هذا التسامح ويحظّر حرية التفكير والإيمان والعيش المشترك؟

- أرى أنك لم تتخل بعد عن جسارتك. حسناً جداً... أنا أقف مع مجد النبي. فنحن اليوم ننظم انتصار الإسلام، الأساس الذي سنبني عليه إمبراطورية تدوم ألف سنة. ومن الأفضل لك في سبيل إنجاح هذه القضية أن تكون بين الأحياء لا بين الأموات.

- ولكن لماذا تطارد هؤلاء المساكين؟ ولماذا تضطهد هؤلاء اليهود؟ ولماذا تريد قتل هذا الحبر؟

- أصبحت تدافع عن اليهود؟

- لليهود دين من أقدم الأديان. وهم لم يلحقوا بنا أي أذى، وارتضوا أن يعيشوا تحت حكم قوانيننا، فعلينا حمايتهم لا تعذيبهم.

- إلا الذين يتآمرون ضد مصلحة الدولة، وهذا الحبر قد فعل ذلك. وعلى كل حال لم يمت بعد، فما زال أمام أصدقائه يومان حتى يدفعوا فديته. وأظن أنك صديق لأخ هذا الذي أرسلوه لجمع الفدية وإحضارها إلى هنا، أليس كذلك؟

ران الصمت. كان ابن رشد يتوقع من الآن فصاعداً ما لا تحمد عقباه.

- موسى بن ميمون شخصية من أكثر الشخصيات إثارة للاهتمام. أليس هو من كان معك عند التاجر عندما عثر عليكما حراسي في ذلك المساء؟

- بالفعل...

- وماذا كنتما تفعلان هناك بالضبط؟

- كنا نشاهد التحف التي أحضرها معه من الصين.

- من المؤكد أنك لم تكلم موسى هذا عن القطعة الذهبية التي استودعتك إياها؟

- كلا... لماذا؟

- لا شيء. خطرت ببالي أنه ربما يكون هذا اليهودي حجر عثرة في طريقك إلى المخطوط. أو أنه هو الآخر يبحث عنه أو أنه ربما يكون قد عثر عليه. هل أنت واثق من أنه لم يكلمك عنه مطلقاً؟

- كلا، مطلقاً.

- سأعلم هذا أيضاً. سأعلم كل شيء. سؤال أخير: القطعة الذهبية، ما زالت معك، أليس كذلك؟

دس ابن رشد يده في جيبه فأوقفه الآخر على الفور بابتسامة غامضة:

- لا حاجة إلى ذلك. فما زلت بحاجة إليك. سوف نتقابل بعد بضعة أيام. ثم أشار عليه بانتهاء المقابلة.

خرج ابن رشد وهو يشعر بدوار مصحوب بالعرق. لم يفهم السبب الذي حدا به إلى أن يقابله إن لم يكن من أجل انتزاع السر منه؟ وإذا كان يعرف كل شيء لماذا تركه على قيد الحياة؟ ولماذا ترك معه قطعته الذهبية؟ ربما كان كبير الوزراء صادقاً في رغبته بمنحه مهلة من الوقت للعثور على المخطوط.

في اليوم التالي عاد داوود من طليطلة مع صحبه. وفهم موسى أن فريقهم الصغير اضطر إلى قتل بعض فرسان الموحدين عند عبورهم للأندلس. المهم أنهم جمعوا الفدية. والأهم من ذلك هو أن الطائفة اليهودية في طليطلة قد تبرعت بمبلغ عشرة الآلاف مرابطية لكي يتسنى ليهود فاس أن يرحلوا إلى المنفى ومعهم أموالهم.

أسرع موسى إلى الحاكم وبحوزته الفدية ويرفقته أعيان اليهود. دخل إلى قصر الحاكم الذي كان يأتي إليه فيما مضى لمعالجة رجاله. انتظر طويلاً على الباب، ثم جاء كاتم للسر ليقول لهم إن الفدية وصلت متأخرة وأنها لم تعد كافية، فلن يطلق سراح الحبر إلا إذا اعتنق الإسلام. وأضاف كاتم السر أنه لا يملك تفويضاً للتفاوض معهم، وإنما يملك الحق في اصطحاب موسى بمفرده إلى زنزانة السجين لكي يحاول مرة أخيرة إقناعه.

كان موسى يعلم باستحالة ذلك، فالشيخ لن يذعن أبداً، ولكنه مع ذلك تبع كاتم السر.

اقتاده أحد الحراس وكان يحمل مشعلاً إلى درج ينحدر عميقاً تحت الفناء الرئيسي للقصر. ووصلا إلى نهاية ممر طويل وكان يبدو أنه يفضي إلى أبواب عديدة محكمة الإقفال. رأى موسى أمام أحد هذه الأبواب مجموعة من الناس وكانوا يلبسون ثياباً قشيبة. تقدم إليه واحد منهم لم يره من قبل وعرف عن نفسه على أنه كبير الوزراء. قال:

- لنسرع فليس لدينا وقت نضيعه. أظن أن لديك أشياء تريد أن تقولها للبعض.

- هو كذلك ولكن على انفراد إذا أمكن.

هز ابن طفيل كتفيه وقال:

- كما تريد ولكن ذلك لن يغير شيئاً. سأسمع كل شيء على مسافة منكما.

- حسناً، لنذهب سوية، قال موسى موافقاً.

أمر ابن طفيل بفتح أحد الأبواب، ثم دخلا إلى زنزانة مظلمة. كان ضوء المشعل ينير الغرفة. لمح موسى في البداية وقد راعه الذهول رجلاً مقيداً بالسلاسل يرقد على الأرض. كان هذا الرجل هو وليام هستينكز الذي اعتقد أنه مات في السجن منذ ثلاثة أشهر. كان الإنجليزي يبدو شديد المرض، فكانت ذراعاه ملتويتين وكانت ساقه مكسورة على ما يبدو. بدرت منه إشارات نحو موسى فلم يفهمها. تجاهل ابن طفيل الإنجليزي ونظر إلى الحبر الشيخ الذي كان ممدداً بالقرب منه. كان من الصعب التعرف عليه فقد كان وجهه متورماً وكان فكه قد انزاح من مكانه. حاول ابن شوحانا أن يقف على قدميه فلم يستطع فاقترب منه موسى وسنده:

- الفدية بحوزتنا، يا معلمي. ولكنهم يقولون إن ذلك لم يعد يكفي، فهم لا يريدون إطلاق سراحك قبل أن تعتنق الإسلام.

حملق ابن شوحانا بابن طفيل بغيظ بارد. حاول أن يتكلم ولكن فكه المكسور لم يسعفه في ذلك. فرفع قبضته باتجاه كبير الوزراء كأنه يريد أن يضربه. أما الآخر فلم يهتز له رمش.

كرر موسى على مسامع الشيخ:

- هل سمعت ما قلته لك؟

همس بصوت ضعيف جداً:

- لقد سمعتك. اشكر كل الذين رأوا أن حياتي المتواضعة تساوي غالياً في نظرهم. وقل لهم إنهم مخطئون، فأنا لن أبدل ديني على الإطلاق. ولكنهم أحسنوا صنعاً بجمع هذا المبلغ من المال، فينبغي توزيعه توزيعاً عادلاً بين أكثر أفراد الطائفة فقراً من أجل تسهيل رحيلهم. هل تسمع ما أقول؟

- هذا المال هو من أجل إنقاذك، وليس من أجل شيء آخر. ارضَ باعتناق الإسلام فأنت تعلم جيداً أنه يحق لنا ذلك.

لا حظ موسى أن هستينكز يخاطب الحبر بإشارات لم يفهمها. تابع الشيخ كلامه وكان يبذل جهداً جهيداً بعد كل كلمة يقولها:

- أنتم لكم الحق في ذلك، وعليكم أن تقوموا بذلك عند الضرورة، وأحملكم مسؤولية أن لا تفعلوا ذلك. أما أنا فليس لي هذا الحق. لن أقبل ثانية واحدة أن أعتنق هذه الديانة ولو اعتناقاً صورياً ما دام على رأسها أناس متطرفون يحيدون عن القرآن ويخرجون عنه. لا أحد يعلم مثلي بطلان الحروب بين الأديان. ولكن الأمر هنا لا يتعلق بالتقارب بينها، وإنما بعمل قسري، والقبول به معناه أنني تنكرت لكل ما أؤمن به.

نظر ابن شوحانا إلى هستينكز ثم استدرك قائلاً:

كل ما نؤمن به.

ثم أمسك موسى من كم قميصه بيد قوية تبعث على الدهشة وتابع قائلاً:

- ارحل. «موجود عند أسفل الحائط حيث مغيب الشمس».

• تذكر من كان يقول: «إن جسمي في الغرب بينما قلبي في الشرق.»

تساءل موسى فيما إذا لم يكن الشيخ يهذي، ثم تذكر أن هذه الجملة الأخيرة مأخوذة من قصيدة للشاعر القرطبي إيهودا حليفي الذي رحل ومات في القدس. لماذا كان الحبر يستشهد به؟

لاحظ أن الإنجليزي قد اقترب منه خلسة، فتظاهر كأنه لم ير شيئاً.

- أنا لا أفهم جيداً، أيها المعلم...

بدا الآخر كأنه يهذي وهو يهز رأسه برفق:

- الأربعة إلى داوود والعشرة إلى السماء. لا تهتم إلا بالذين كان من الممكن أن يكونوا أنبياء.

كان ابن طفيل يبدوا مهتماً كثيراً بما يسمعه، وكان متوتراً في الوقت نفسه. فهم موسى أن الحبر الشيخ لا يهذي وأن الأمر يتعلق بلا شك برمز سري.

- الأربعة؟ والعشرة؟

أحس موسى أن الإنجليزي يزداد قرباً منه. لاحظ ابن طفيل لعبته فأبعده بركلة من رجله.

استمسك ابن شوحانا بموسى، واغتاظ لعدم فهمه الرسالة المرموزة:

- ستفكر في الأمر. ولا تنسَ الذين كان بالإمكان أن يكونوا أنبياء.

- ما زلت لا أفهم.

كان المعلم الشيخ يختنق ويزمجر وصار يطلق الكلمات كأنها الخناجر:

- أن يكون المرء نبياً هو أن تنزل عليه حقيقة من الله. فمن الممكن أن تنزل حقيقة من الله على معلم أو تلميذ كسول أو عالم أو جامع للفراشات أو شبه إغريقي أو رحالة من آسيا.

انقطع نفسه فتوقف ثم استأنف كلامه بعد صمت طويل:

- قال يسوع: «سيأتي كثيرون من الشرق والغرب وسيجلسون على الطاولة نفسها التي جلس عليها إبراهيم وإسحاق ويعقوب.» وقال محمد أيضاً: «لا يحق لأحد غيري بعد الآن أن يقول إنه ينتسب لعيسى ومريم لأن بيني وبينه لا يوجد أي نبي...»

- لا أرى عن أي شيء تتكلم، يا معلمي. ما زلت لا أفهم ما تعني.

قاطعه ابن طفيل قائلاً:

- هذا يكفي. أنا من عليه أن يتكلم الآن، أنا وحدي. دعنا وحدنا.

نظر موسى وهو خارج إلى الحبر الذي كان يبتسم له وإلى الإنجليزي الذي كان يبدو أنه يتوسل إليه.

في اليوم التالي وقبل طلوع الفجر المصادف الرابع والعشرين من جمادى، والموافق الثامن من نيسان لعام ألف ومائة وخمس وستين قطع رأس ابن شوحانا بحد السيف أمام مدرسة بوحنانيا عند مدخل الحي اليهودي. وأعلن الحاكم أن الإنجليزي هستينكز المتآمر مع المرتدين قد أعدم وألقيت جثته طعاماً للغربان.

عندما استيقظ سكان الحي، عثر آخر من في المدينة من يهود على جثة الشيخ ورأسه قد قطع واستقر على بعد أربع خطوات منه. فقرروا أن يعدوا له جنازة تليق بمقامه قبل أن يسرعوا إلى سبتة • ويركبوا منها إلى أي مكان بعيداً عن هذا الجحيم. كان داوود يريد الآن أن ينتقم للحبر المنكود، ولكن موسى هدأ من حميته إذ كان لديه أمور أفضل يقوم بها.

وهكذا مشى موسى في آخر جنازة ليهودي في مدينة طردوا منها كما مشى في جنازة والدته قبل ست عشرة سنة في قرطبة. تذكر كل الذين انتهوا هذه النهاية في القرون المنصرمة في أرجاء المعمورة. لماذا كان البشر يتصرفون تصرفاً شريراً؟ ولماذا كان القدر يلاحق بعناد دائماً الأشخاص أنفسهم؟ وتذكر أيضاً هذه الأبيات الرائعة لعمر الخيام التي كان غالباً ما ينشدها له صديقه ابن عزرا (لماذا مات؟ ومن قتله؟):

«يا إلهي، لقد حطمتَ دنّي من الخمر.

يا إلهي، لقد أغلقتَ دوني باب اللذة.

يا إلهي، لقد سكبتَ على الأرض خمري الصافي.

ولكن يا إلهي، هل ممكن أن تكون قد سكرت بالمصادفة؟»

وإذا كان الله قد شربَ الخمر وفقد فجأة الحكم؟ وإذا كان الله قد نسي عبيده؟

جرى كل شيء بعد الظهر على عجل.

قام ابن رشد بمراسم زواج موسى وليلى في دار الفتاة. كانت ترتدي عندما نزلت من غرفتها جلباباً طويلاً مطرزاً بالذهب ويحوطه

نطاق من المرجان عند الخصر. وكانت تضع في جيدها عقداً من العنبر. لاحظ ابن رشد أنها تضع في شعرها قطعة موسى الذهبية، وكان القاضي يمسك بقطعته في راحة يده. وكان قد ألح على حضور الحاكم كشاهد على صحة هذا الزواج واعتناق موسى للإسلام. هنأ الحاكم موسى لكونه اعتنق أجمل ديانة بين الديانات وأكثرها صحة. وليته يستطيع أن يقنع جميع أبناء دينه أن يحذوا حذوه فالمدينة بأمس الحاجة إليهم. وقال لموسى إنه بعد أن أصبح مسلماً سيعاين من الآن فصاعداً المزيد من المرضى بصفته طبيباً، وهو نفسه يتمنى أن يذهب إليه ابتداءً من الغد. لكن موسى اعتذر وقال إنه ذاهب غداً برفقة زوجته إلى مكة من أجل العمرة، وأن عليه ركوب السفينة من سبتة إلى الجزيرة العربية، فهنأه الحاكم وأسرع يعد تقريراً لابن طفيل عن مراسم الزواج الغريبة هذه التي لم يكن يريد أن يكون هو المسؤول عنها.

صعدت ليلى إلى غرفتها لتعد حقائب السفر بينما بقي موسى لبرهة مع ابن رشد. لقد زال الآن كل ما كان من شأنه أن يجمعهما ويفرقهما في آن واحد. فابن شوحانا والكندي اللذان كانا يربطانهما بالكتاب السري كانا قد ودعا الحياة، وفقد كلاهما كل أمل في حل اللغز. لقد تقابلا دون شك للمرة الأخيرة. سيحاول ابن رشد العودة إلى قرطبة، وسيحاول موسى من جهته الرحيل إلى الإسكندرية مع عائلته. لقد خاب كلاهما في مسعاه.

ولهذا قرر كل منهما أن يخرق المحظورات وأن يكشف للآخر عن كل ما كان يعرفه.

قص موسى على ابن رشد أحاديثه مع خاله إليفار. وشرح له كيف أرسله إلى كريمون الذي خيره بعد ذلك بين ابن طيبون وابن شوحانا. وكلمه أيضاً عن رسائل التهديد وعن إحساسه بأنه ملاحق باستمرار. وسرد عليه مقتل دوسوزا وابنته وسفره إلى ناربون ولقائه بالأب نحمين الذي عرفه على ابن شوحانا الذي أرسله بدوره إلى البيريك دومونبا، ثم مقتل هذا الأخير بعد أن كلمه عن قواعد التواضع التي تشكل دستوراً لأخوية غامضة. ثم كشف له عن قراره بالذهاب إلى فاس ولقائه بالحبر ابن شوحانا الذي أرسله إلى الكندي الذي كانا قد التقيا في منزله من جديد كما التقيا عند كريمون. وأخير حكى له آخر حديث له مع الحبر في سجنه.

وقص ابن رشد بدوره لموسى كيف استدعاه ابن طفيل للمرة الأولى، وكان ذلك قبل عامين. ثم حديثه بعد مغادرة موسى بدقائق مع كريمون الذي خيره بين مونبا والكندي. وفهما سبب دهشة كريمون عندما شاهد قطعتين ذهبيتين بدل من قطعة واحدة، وكذلك السبب الذي دفعه لإرسالهما إلى أشخاص مختلفين. كان كل شيء يجري كما لو أن حراسة مشددة عن قرب كانت تؤمن الحماية لمن يمتلك الكتاب. وروى ابن رشد أيضاً فترة إقامته في سبتة ووصوله إلى فاس وأحاديثه مع الكندي. وأدرك أن كلا منهما يبحث عن كتاب، وهو الكتاب نفسه الذي ترجمه كريمون إلى اللغة العربية واللغة اللاتينية. أخرج كل منهما من جيبه القطعة الذهبية، فكانتا متطابقتين. وتكلما أيضاً عن الإنجليزي: ماذا كان يفعل مع الكندي وابن شوحانا في الكنيس السري؟ ولماذا

وضع في زنزانة واحدة مع الحبر ثم أعدم؟ هل كان ينتمي إلى جماعة «اليقظانين»؟

ثم تناقشا في كلمات ابن شوحانا الأخيرة. أصغى ابن رشد بعناية شديدة إلى قصة موسى المفصلة عن حديثه مع الحبر والذي ما زال يتذكره بحرفيته بفضل ذاكرته المدهشة. فكر القاضي وقال:

- لا شك أن ابن شوحانا أراد أن يفهمك كيف تستمر في البحث. ولا بد أنه كان يعرف أين خبأ خالك نسخته. ولا شك أنه كشف عن مكان الكتاب لبقية أعضاء الأخوية خوفاً من أن يضيع. فعلينا أن نراجع كل كلمة قالها لك، ويجب ألا نهمل أياً منها... بدأ الحبر كلامه بالحديث عن ايهودا حليفي، أليس كذلك؟

- نعم. ولكنني لا أدري ما السبب في ذلك. وإذا توجب علي أن أعيد حديثه بالكامل لكي أفهم...

- كلا. أعد فقط الجملة التي قالها.

- «إن جسمي في الغرب بينما قلبي في الشرق.» هذه الجملة لا تعني شيء مطلقاً...

- ربما أراد منك أن تفعل كما فعل حليفي؟

- وماذا يعني ذلك؟

- الرحيل إلى الشرق.

- ولكن الشرق واسع.

- بصورة أدق أن تذهب إلى الأرض المقدسة كما فعل. وقد ذكر حليفي لأنه كان يأمل أن ابن طفيل يجهل هذا الشاهد لشاعر

عبري. وما هي الجملة التي جاءت بعدها؟ يبدو أنك تتمتع بذاكرة لا تخطئ، وهذه هي اللحظة المناسبة لكي تستخدمها.

- قال: «موجود في أسفل الحائط حيث مغيب الشمس.»

قفز ابن رشد من مكانه قائلاً:

- ولكن هذا واضح وضوح الشمس! لماذا لم تفهم؟ «الحائط حيث مغيب الشمس» هو الحائط الغربي. أليس هكذا تسمي ما بقي من هيكل سليمان في القدس؟ كان عليك أن تفكر بذلك قبلي. إن نسخة خالك موجودة بالتأكيد بالقرب من الحائط في فلسطين.

أجاب موسى وقد شعر بالغيظ لكونه لم يخمن ذلك قبله:

- ولكن هذا مستحيل! كيف وصل الكتاب إلى هناك؟ وخالي لم يغادر قرطبة مطلقاً...

- ربما سلمه لمسافر في طريقه إلى الأرض المقدسة، وربما يكون هذا المسافر هو إيهودا حليفي، وقد هاجر إلى هناك منذ عشرين سنة. نعم، إن هذا هو ما حصل بلا شك، فهو الذي أخذ النسخة معه إلى هناك.

- وخبأها عند الحائط الغربي قبل أن يقتل؟ هذا يعني أن نسخة إليفار ليست في قرطبة منذ زمن طويل؟

- تماماً! وربما لهذا السبب قد اغتيل إيهودا حليفي. حاول أن تتذكر، ألم يكلمك خالك عن فلسطين أبداً؟

حاول موسى أن يتذكر الأحاديث الكثيرة بينه وبين خاله. لا شك أنهما كانا يتكلمان في معظم الأوقات عن الأرض المقدسة، وكان يكلمه عنها كأنه يتكلم عن الفردوس. ثم

تذكر موسى فجأة، ففي آخر لقاء معه وجهاً لوجه سأله أن يريه الكتاب السري، فأجابه إليفار: «لا أستطيع. وحتى لو رغبت في ذلك فلن أستطيع. ولكن عندما أشيخ سوف أقول لك كل شيء. سوف أقول لك كيف تذهب لإحضار نسختي من قدس الأقداس...» ألا يعني قدس الأقداس بالفعل ما بقي من هيكل القدس؟ كان ذلك هو بالفعل! لقد كان هناك إذاً نسخة عن «الأبدية المطلقة» في القدس، في مكان ما بالقرب من حائط الهيكل. ولكن أين؟

قال ابن رشد:

- لقد كلمك أيضاً عن أربعة وعشرة، أليس كذلك؟

أجاب موسى:

- الأربعة سهلة، فهي تعني القطعة الذهبية.

- لو كان هذا هو المعنى لكان ذلك سهلاً، ولما تكلم عن ذلك أبداً. كان يعني شيئاً آخر.

هذه المرة كان موسى هو الذي عثر على الجواب:

- نعم، بالتأكيد. كيف لم أفكر في ذلك؟

- ما هو إذاً؟

- قال: «الأربعة نحو داوود والعشرة نحو السماء». وهذا يعني أنه يجب أن نعد أربعة أحجار من الحائط أفقياً باتجاه قبر داود، والعشرة نحو السماء، أي نحو الأعلى. فتحت الحجر الرابع من صف الأحجار العاشر من الحائط مخبأة نسخة خالي. ولن يستطيع أحد أن يكتشفها هناك إذ لا يحق لأحد أن يحفر في الحائط. كان لا بد أن يكون هذا

الكتاب من الأهمية بمكان كي يجرؤ أحدهم أن يزيح حجراً من الحائط الغربي ليخبئ الكتاب فيه.

- من المستحيل إذاً الذهاب إلى هناك والعثور عليه؟

- سوف أتدبر الأمر. وينبغي ذلك. سنرحل قريباً إلى مصر وسنعرج على القدس.

- هذا إذا نجحت في مغادرة المغرب! لا توجد سفينة واحدة ترغب أن تقلك على متنها. انتظر لحظة، لقد كلمك خالك عن أشياء أخرى، أليس كذلك؟

- نعم، لقد كلمني عن الأنبياء، عن يسوع ومحمد. ثم قرأ قائمة من الكلمات غير منسجمة مع بعضها. قال: «معلم، تلميذ كسول، عالم، جامع فراشات، مفكر إغريقي، رحالة من آسيا، بالإمكان أن تنزل عليهم جميعاً حقيقة من الله.»

- ألا ترى أنها كلمات لم يلفظها عبثاً؟

- كيف ذلك؟

- لا يوجد سوى رجل واحد تنطبق عليه كل هذه الصفات.

فكر موسى للحظة ثم قال متعجباً:

- معك حق. كان علي أن أنتبه لذلك في الحال. لقد كان أرسطو معلماً وتلميذاً كسولاً ويهوى جمع الفراشات وكان مقدونياً أي شبه إغريقي، وقد رحل إلى آسيا. كان الحبر يريد إذاً أن يقول إن...

- إن أرسطو نبي.

- ولكن هذا مستحيل.

رد ابن رشد بحماس:

- على كل حال هذا ما أراد أن يقوله. تذكر أنك أخبرتني أنه استشهد بيسوع في إنجيل متى: «سيأتي كثيرون من الشرق والغرب وسيجلسون على الطاولة نفسها التي جلس عليها إبراهيم وإسحاق ويعقوب.» وهذا يعني أن يسوع قد تنبأ بالظهور المقبل لروح القدس، وهو محمد. ثم استشهد بدوره بمحمد: «لم يعد يحق لأحد غيري أن ينتسب إلى يسوع ومريم، فبينه وبيني لا يوجد أي نبي.»

- وماذا يعني هذا؟

تابع ابن رشد:

- حسناً! لقد أراد أن يقول لنا إنه إذا كان لا يوجد بين يسوع ومحمد نبي مجهول، ففي المقابل كان يوجد قبل يسوع أنبياء آخرون غير الذين نعرفهم. ولهذا السبب سألك الكندي إن كان قد وجد نبي غير يهودي.

- ولكن هذا هراء. نبي مجهول... فلا يحق لأحد منذ أن هدم الهيكل أن يكون نبياً إلا للأطفال والمجانين. كلا لا يمكن أن يكون هناك نبي جديد.

- أولاً كان ذلك قبل هدم الهيكل للمرة الثانية. فكر جيداً، كان علينا أن نفكر بذلك منذ زمن طويل. ولقد تكلمنا عن ذلك أمام الكندي. لقد طرح علينا السؤال. وأنت وأنا نعلم أكثر من أي شخص آخر أن أرسطو هو مفكر عملاق، وأنه يحسن التكلم عن الله أفضل من أي شخص آخر، وأنه ينطق بالحقيقة فيما يخص الكون أفضل من كتبنا المقدسة لأنه لا يضيع في الاستعارات المجازية.

ونعلم أنه يجسر على القول أنه ليس على الإنسان أن ينتظر شيئاً من الله، وأن عليه أن يلتزم بالأخلاق دون أن يعد نفسه بجنة ما، وأنه يعلم أننا عن طريق العلم سنقترب من الحقيقة. الأنبياء الآخرون تكلموا عن شعوبهم في فترة لم يكن من الممكن فيها أن يقولوا لهم كل شيء. أما أرسطو فيتكلم بحرية تامة بوساطة العقل، وربما يكون الله قد كشف له بعض قوانين الكون.

- لقد استلهم في الواقع الأنبياء، ولكن أن يكون...

صحح ابن رشد قائلاً:

- إنه واحد منهم. هذا على كل حال ما أراد ابن شوحانا أن يقوله لك.

- إذاً كتابه «الأبدية المطلقة» هو نبوءة؟

- ربما يكون أكبر من ذلك بكثير. ربما يكون مجموع قوانين الكون الرياضية. تذكر ما قال لك خالك عنه: «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور». لقد أراد أرسطو بتأكيده على سلطان العقل وبتوضيحه لقوانين الكون أن يقول إن العلم هو كلام الله وإن الله لا يتكلم عن طريق الأديان فحسب، وإنما يتكلم عن طريق العقل أيضاً. فإذا الأمر كان كذلك، فالحقيقة المنزلة هي كبيرة جداً.
همس موسى قائلاً:

- هذا ليس كل شيء، فابن شوحانا تكلم أيضاً عن آسيا وغالباً ما كان خالي يقول لي إنه سافر إلى هناك، كما أن ابن عزرا قد أفصح لي أن أرسطو قريب من البوذية. وإذا كان أرسطو وبوذا هما الحلقتين المفقودتين بين أنبيائنا ويسوع؟

- حلقة مفقودة؟ تمتم ابن رشد. ولكن من سبق أن قال هذه العبارة أمامي؟ هو كريمون؟ يا ليتني كنت أملك ذاكرتك لكي أعرف...

قال موسى مغتبطاً:

- هو كذلك بكل تأكيد. فكل شيء عند أرسطو مستوحى من البوذية كمفهومه عن الخلود واتحاد الأرواح في أبدية جماعية...
ران صمت ثم قال ابن رشد:

- أرسطو نبي غير يهودي فهم قوانين الكون وأعلن أن الله يتكلم عن طريق العلم وأن على الأديان أن تغرب أمام العقل... أنا أدرك أنه لمن الصعب القبول بذلك.

- في الواقع كان لدى الذين يعلمون بوجود هذا الكتاب كل الأسباب لكي يخفوا محتواه.

- كان خالك من بينهم...

- لا بد أن إليفار كان ينتمي إلى أخوية (هؤلاء «اليقظانون» التي كانت رسائل التهديد تأتي على ذكرهم) كانت تتعقبني منذ اليوم الأول.

- وربما يكون ابن طفيل أيضاً واحداً منهم. إلا إذا كان يريد أن يتلف هذا المخطوط الذي يمثل خطراً كبيراً على المؤمنين.

صرخ موسى:

- كلا، فهو بلا شك ينتمي إلى هذه الأخوية، وإلا كيف حصل على القطعة الذهبية التي استودعك إياها؟ إنه عضو في الأخوية ولكنه يريد أن يمنعني من الدخول إليها.

- من يعلم؟

قال موسى:

- على كل حال سواء كان ابن طفيل منهم أم لا ، فليس لديه أيَّ مصلحة ليترك شهوداً وراءه. لا بد أنه يظن بأننا نعلم أكثر مما ينبغي، وما ينتظرنا نحن الاثنين شر مستطير.

الفصل السابع

١٨ نيسان ١١٦٥:
جريمة قتل في الكنيس
٤ أيار ٤٩٢٥ ـ ٤ جمادى ٥٦٠

سار كل شيء بسرعة. فبعد إعدام ابن شوحانا بعشرة أيام أبحر موسى وعائلته باتجاه عكا، وأصبح ابن رشد مرة أخرى المفضل عند الخليفة.

بعد زواجه وحديثه مع ابن رشد أخبر موسى والده وأخاه بزواجه من ليلى واعتناقه الإسلام اعتناقاً صورياً. وروت ليلى التي كانت ترافقه قصة عائلتها ودهش الحبر الطاعن في السن لما سمعها تتحدث باللغة العبرية باللكنة نفسها التي كانت تتكلم بها العربية، وهي لكنة صينية.

قال موسى إن عليهم أن يشدوا الرحال في أقرب وقت ليس إلى مصر وإنما إلى الأرض المقدسة. وحاول أن يجد تبريراً لهذا التغيير المفاجئ فقد بلغه أن الجفاف قد أدى إلى انخفاض مستوى نهر النيل وتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية وحدوث المجاعات واندلاع أعمال الشغب.

عجز الخليفة الشيعي الفاطمي عن مواجهة الموقف فاستنجد بقوات أتابك حلب السني نور الدين الذي أرسل له قائداً كردياً يدعى صلاح الدين ابن أيوب - أو صلاح الدين - من أجل القضاء على الفوضى وإعادة النظام. وعُين صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي قبل أن يطيح بحكمه ويعيد حكم السنة في القاهرة. فوضع مصر لم يكن إذاً مناسباً لليهود، ولكن من المؤكد أن صلاح الدين كان يتمنى أن يعود يهود العالم إلى احتلال فلسطين وطرد الصليبيين منها. وأغلب الظن أن حاكم مصر الجديد كان يفضل مجاورة اليهود على مجاورة المسيحيين. أوهم موسى والده وأخاه أنه يريد أن يستقر في مدينة الخليل ليكون قريباً من القبور المقدسة.

وكان ميمون مسلوب الإرادة، فاعتناق موسى للإسلام ولو بصورة شكلية وزواجه من فتاة كان يظنها مسلمة كان يثقل كاهله. لكنه كان مستعداً لأن يسير خلف ولده إلى أي مكان، فما بالك إذا كان هذا المكان هو الأرض المقدسة. كان يشعر بدنو أجله. وكان يتمنى أن يموت في فلسطين إذا كان لا يستطيع أن يموت بجوار زوجته. لذا كان ينبغي عليهم الرحيل بسرعة فليس هناك متسع من الوقت.

أما داوود فلم يبد حماساً أو اندفاعاً، وتساءل لماذا تغيير الرأي في آخر لحظة؟ لم تكن الأرض المقدسة مكاناً للتجارة ولم تكن تقع على مفترق الطرق المهمة للقوافل، وكان يستحيل أن تقام فيها أيّ دولة يهودية. أما في مصر فقد كان اليهود منذ سنة ألف ينعمون بحرية ويتمتعون برخاء لا نظير لهما. وكان الفلاحون والصناع والصيارفة

والسماسرة والصائغون يشاركون في بناء العاصمة الجديدة القاهرة إلى جانب العاصمة القديمة الفسطاط. وكان اليهود المثقفون يجاورون المفكرين المسلمين وعلماء اللاهوت البيزنطيين. وكان المهندسون اليهود يرسمون المخططات للمسجد الأزهر. وكان البحارة اليهود يبحرون كما درجت العادة منذ أكثر من ألف سنة بين الإسكندرية و آسبانيا و صقلية و بيزا و أمالفي و كورفو و عمان و كوشان. فداوود قد يجد فيها عملاً له. أضف إلى ذلك أنه هو الذي جمع بعرق جبينه الأموال الضرورية لدفع كلفة سفرهم واستقرارهم. وهو أيضاً الذي سيؤمن لهم الحماية أثناء الرحلة بفضل أسلحته، لذلك كان يستطيع أن يدلي بدلوه بخصوص المكان الذي سيرحلون إليه.

توصلوا أخيراً إلى حل. سيرحلون أولاً إلى فلسطين في أول سفينة متجهة إلى هناك. فإذا وجدوا الحياة هناك لا تحتمل ولا تطاق (بعد أن يعثر موسى على الكتاب المدفون تحت حجر من أحجار الحائط) يتجهون بعدها إلى مصر لكي يستقروا فيها بصورة نهائية بعد ستة عشر عاماً من التيه. ومن مصر كان داوود ينوي أن يتاجر مع الهند ولكن موسى كان يأمل أن يثنيه عن عزمه في الوقت المناسب، فقد كان يخاف دائماً من أن يبتلع البحر أخاه وكان غالباً ما يرى الكابوس نفسه في منامه.

رحل الشيخ وولداه وسفيرة وليلى في نفس الليلة إلى سبتة. وكانوا في كل لحظة يخشون أن تقوم إحدى الدوريات من الخيالة الذين يرتدون اللباس الأزرق بإلقاء القبض عليهم، وكانوا يتصورون أنهم يطاردونهم. وكانوا يدّعون في كل نزل ينامون فيه أنهم تجار

مسلمون. وكان موسى وداود لا ينامان إلا في ساعة متأخرة وهما في حالة من اليقظة والحذر، ولكن لم يكن هناك في واقع الأمر أي شيء يدعو إلى ذلك. وإذا كان داوود لم يغمض له جفن وهو يمسك بالخنجر في يده استعداداً للقتال، كان موسى في النهاية يغفو ويحلم بالمستقبل. كان يحلم بمكان هادئ لا يخشى فيه أن يجهر بهويته اليهودية، فيعيش فيه وينجب الأولاد ويعكف على الدراسة وكتابة هذا الكتاب المهم الذي يدلل فيه على أن الإيمان ينبغي ألا يخاف من العلم. إلا إذا حملت إليه قراءة «أهم كتاب خطته يد كائن بشري على مر العصور»، وهو واثق الآن من العثور عليه تحت حجر من أحجار الحائط الغربي، أفكاراً جديدة؟ كان موسى غالباً ما يقلب بين أصابعه القطعة الذهبية التي كانت الدليل المحسوس الوحيد على أن كل هذه القصة لم تكن أضغاث أحلام.

وجدوا عند وصولهم إلى سبتة من بقي في المدينة من اليهود في أسوء حال: فإما أن يعتنقوا الإسلام فوراً كما هو الحال في سائر أرجاء الإمبراطورية أو أن يجلوا دون أن يأخذوا معهم شيئاً من مواردهم. ولم يكن في مقدور أحد منهم أن يبيع منزله أو محله التجاري. كان بعضهم يتمنون أن يهاجروا بأي ثمن إلى طليطلة، وكانوا يبحثون عن سفينة متجهة إلى برشلونة، فلم يكن من المعقول المرور بالعامرية وقرطبة لأن الحرب كانت مستعرة بين قوات الخليفة والمسيحيين. كان معظمهم يبحث عن وسيلة نقل في طريقها إلى القسطنطينية لكي يلتحقوا بحبرهم إسبتي أواكنين الذي هاجر إليها منذ سنتين. وكان الجميع مستعدون للإبحار على متن أيّ سفينة وإلى أي وجهة

كانت وإلى أبعد وجهة ممكنة. وربما ذهب اليهود إلى الميناء ليعرفوا كلفة السفر فيرجعون إلى منازلهم ليجدونها وقد سكنها جيرانهم المسلمون. وكانت أسعار السفر تتزايد باضطراد من ساعة إلى أخرى. وكان من لا يملك المال أو من لا يجد من يعينه مجبراً على البقاء ومكرها على اعتناق الإسلام. وقيل إن عدداً من الأحبار أوصوا بالانتحار في مثل هذه الحالة.

بينما كان موسى في ميناء سبتة يبحث دون جدوى عن أماكن شاغرة على متن أي مركب،

كان ابن رشد في فاس يفكر أن ساعته الأخيرة قد أزفت.

ففي بحر الأسبوع الذي أعقب زواج موسى، وبينما كان في طريقه إلى المسجد ليؤدي صلاة العشاء، فإذا برضوان ابن كوبي يوقفه ويقول له بابتسامة عريضة إن ابن طفيل قرر أخيراً إتلاف جميع كتبه العلمية والفلسفية، واستثنى بالطبع كتبه التي تتعلق بالطب والحساب وعلم الفلك الأساسي من أجل حساب طول النهار والليل وتحديد اتجاه القبلة. وأضاف ابن كوبي، وفي عينيه شره إلى الانتقام، أن بعض رجال ابن طفيل ينتظرونه لاصطحابه إليه.

فكر ابن رشد أن هذه هي المرة الثالثة التي يقابل فيها كبير الوزراء، وأنها المرة الثالثة التي يذهب فيها إليه وهو مقتنع أنه لن يخرج من عنده على قيد الحياة. استقبله كبير وزراء الإمبراطورية بهيئة عبوس كان سببها سوء الأحوال، ففي قرطبة لم يفلح الخليفة الجديد في التخلص من أحفاد أعضاء المجالس الأولى من الموحدين، ولا سيما أحفاد أبو حفص عمر، الصحابي الأول للمهدي. وكان أولاد عمومته

من آل السيد يظنون أن لا شيء محظور عليهم. فكانون يتصرفون مع الدين كما يحلوا لهم. فكان لدى ابن طفيل أمور أخرى غير استتباب النظام والأمن في مدينة من مدن الأقاليم، وكان على وشك المغادرة في اليوم التالي. ولكن كان عليه أولاً أن ينتهي من هذه القصة ويحاول محاولة أخيرة للحصول على الكتاب.

• دخل ابن رشد إلى غرفة كبير الوزراء فلم يحرك هذا الأخير ساكناً، فقد كان يقرأ في كتاب. لم ينبس ابن رشد ببنت شفه وراح ينتظر.

قال ابن طفيل وهو يشير إلى الكتاب الذي كان يتفحصه:

- إذاً أنت الآن تعقد الزيجات. ولا شك عندي أنك مارست جميع المهن.

- لا يمكن رفض مثل هذا لأحد المؤمنين.

- لأحد المؤمنين؟ في الواقع... ليس لدي متسع من الوقت، فأنا راحل بعد قليل لموافاة الخليفة في قرطبة، وقد تأخرت كثيراً في الرحيل. أما أنت فعقلي يقول لي أن أصدر حكماً بإعدامك، فأنت تتكلم أكثر مما ينبغي، وتنتقد ديننا وتقيم العلاقات مع اليهود وتعلم أشياء كثيرة من شأنها أن تضر بعملنا. ولكن يشق علي أن أنفذ مثل هذا الحكم ليس لأن طبيباً لا يمكن أن يعدم طبيباً آخر، وليس لأنني أنا الذي أوقعتك في هذه المعمعة دون أن تطلب مني شيئاً، وإنما لأنني ما زلت بحاجة إلى خدماتك، فعليك قبل كل شيء الاستمرار في تأليف الكتاب الذي أمرك به الخليفة الجديد.

أدرك ابن رشد أنه ربما يكون لديه الآن فرصة للخروج حياً من هذا المكان. كان قد استلم الأمر من الخليفة شخصياً بدراسة أعمال

أرسطو، ولن يجرؤ ابن طفيل إذاً على التخلص منه، ناهيك عن أن الخليفة يوسف قد احتفظ لنفسه بحق إصدار حكم الإعدام في سائر أرجاء الإمبراطورية، وكان هذا أول قرار من القرارات التي اتخذها. استعاد ابن رشد هدوءه ورباطة جأشه.

- هل ما زلت بحاجة إلى أن أكتب عن أرسطو على الرغم من إصدارك أمراً بإحراق جميع الكتب؟

- لم تكن الكتب التي أمرت بإحراقها تساوي شروى نقير، فهي عبارة عن تفاسير من الدرجة الثالثة. أما ما يمكنك أن تكتبه فسيكون مفيداً بشكل آخر للرد على من يريد إغراق الإسلام في لجة الجهل.

- لم أكن أتصور أن يكون عملي ضرورياً لاستمرار نظام يطارد اليهود والمسيحيين ويحظر دراسة الفلسفة...

- إياك والسخرية، فأنت تعرض نفسك للموت... أنا مستعد للإبقاء على حياتك إن أنت واصلت العمل على كتابة المؤلفات التي أمرتك بها منذ سنتين...

قال ابن رشد مصححاً:

- ... التي أمرني الخليفة بكتابتها

تابع الوزير دون أن يرفع رأسه:

- أولاً لقد عينتك قاضياً في إشبيلية. وهناك ستكون طليقاً في التصرف والتفكير على هواك، ولكن عليك أن تتعهد بعدم البوح بأي شيء تعلمه عن هذه القصة. فهل أنت موافق معي؟

- موافق ولكن بشرط واحد.

- بشرط؟ أظن أنك لم تفهم جيداً، فأنت لست في موقف يتيح لك إملاء الشروط. إما أن تقبل وإما الخازوق بعد ساعة من الآن. ماذا تقرر؟

- لا أظن أنك تستطيع أن تضعني على الخازوق، فقد أعلن الخليفة الجديد في طول الإمبراطورية وعرضها أنه الوحيد الذي يملك السلطة في إصدار حكم الموت. ولكي تستطيع أن تطلب منه إعدامي ينبغي عليك أن تقص عليه القصة كاملة، وأنا لست متأكداً من حرصك على ذلك...

ران صمت طويل بينهما. تابع ابن رشد قائلاً:

- ألا ترغب في معرفة شرطي؟

أجاب الآخر متذمراً:

- قل إن كان ذلك يسرك.

- أن تخبرني بكل شيء.

حاول ابن رشد أن يكبت خوفه، فربما كان قد تجاوز حدوده. ابتسم الآخر وقال:

- أنت تسبق رغباتي، فأنا أنوي بالفعل أن أحكي لك الكثير إذ ما زلت بحاجة إليك في شيء آخر.

ظن ابن رشد أنه نجا بذلك، ولكن ليس بعد.

- بحاجة إلي؟ ولكن لماذا؟

- لن تستطيع أن تفهم إلا بعد أن أروي لك قصتي، أو بالأحرى بما أنني روائي بعد أن أستودعك سر موضوع روايتي المقبلة.

قرر ابن رشد أن يجاريه في اللعبة:

- روايتك المقبلة؟ أظن أنها رواية ذاتية؟

- على الإطلاق. ليس هناك من روايات سيئة سوى الذاتية منها. أما الروايات الجيدة فهي التي تهدف إلى جلاء الطبيعة الإنسانية، وهذا لا يكون إلا في الروايات الخيالية.

- أنا كلي آذان صاغية.

- تبدأ الرواية بحكاية مقدوني عاش قبل أربعة عشر قرناً. ظن ذات يوم أنه سمع صوتاً قادماً من السماء. وكان هذا الصوت الذي لم يكن يعرف له صاحب يملي عليه جملاً صعبة معقدة على قدر كبير من التجريد، بالإضافة إلى معادلات رياضية لا يمكن لإنسان أن يتخيلها. ففهم أنه سمع كلمات «الله». وكانت هذه الكلمات خاصة جداً لأنها موجهة لعالم وليس لأحد الرعاة أو لأحد الأحبار. كان الله يشرح له بلغة العلم الطبيعة الحقيقية للفضاء والكون والمادة والحياة. وكان يكشف له معادلة الزمن الجوهرية وديناميكية الطبيعة الإنسانية وماهية الخلود وكيفية بلوغها. أماط له اللثام عن جميع الأشياء التي لا يمكن أن تقال إلا بلغة علمية صعبة المنال على الناس في ذلك الوقت، لا بل وفي عصرنا اليوم. وبين له أيضاً أهمية العقل ووحدة المعتقدات وضرورة عدم فسح المجال أمام الأديان لتصبح أدياناً صوفية بعيدة عن التسامح، وكذلك أهمية إدانة الأنظمة التيوقراطية[1] والقضاء عليها.

سرح تفكير ابن رشد إلى الحديث الذي دار بينه وبين موسى، فقد كان تفكيرهما في محله. وهذا بالضبط ما كان الحبر يريد أن يقوله لهما قبل أن يموت. همس قائلاً:

١- نظام يسيطر فيه رجال الدين على الحكم. (المترجم)

- كان أرسطو نبياً إذاً؟

أجاب ابن طفيل موبخاً:

- أنا لم أقل شيئاً من هذا القبيل ولم أذكر أيّ أسماء. ففي روايتي أكبّ الشاب من أجل فهم أفضل لما سمعه على دراسة الفلسفة والطب وعلم النباتات والمنطق والرياضيات والأديان. ونجح في أن يكون تلميذاً لأعظم فيلسوف بين الفلاسفة الإغريق، ألا وهو أفلاطون. ولكنه سرعان ما أدرك أن ما كان يتعلمه لا يمت بصلة إلى فحوى الرسائل التي كان يسمعها. فقام بتسجيل جميع هذه الكلمات وجميع هذه المعادلات في كتاب أطلق عليه اسم «الأبدية المطلقة». وأمره صاحب الصوت القادم من السماء أن يرحل إلى الهند، فأصبح تلميذاً من تلاميذ بوذا. ومن ثم رجع إلى مقدونيا وصار معلماً للملك الشاب ونصحه أيضاً بالذهاب إلى الهند ثم تخاصم مع ملكه لأنه ادعى أنه عثر بنفسه على طريقه الخاص إلى الأبدية، ألا وهو طريق المجد. فانسحب من معترك الحياة ليواصل كتابة مؤلفه. وقبل أن يموت سلم المعلم مخطوطه الذي لم يكتمل إلى ابنه:

- هل كان اسمه نيكوماك Nicomaque

- قلت لك بعدم ذكر أسماء. وسلمه أيضاً كيساً ورسالة يجب ألا يقرأها إلا بعد موته. وعندما ووري المعلم الثرى عثر ابنه في الكيس على أربع عشرة قطعة ذهبية ثقيلة جداً ونادرة جداً، وكانت قد أخذت من كنز دمنهور وتعود إلى مسكوكات مازايوس، حاكم كليكية المحب للبذخ والترف. تفحص الابن إحدى القطع الذهبية فرأى على الوجه صورة الإسكندر، ورأى على القفا رسماً لزيوس جالساً وهو يضع

ساقاً فوق أخرى كما درجت العادة في رسمه على القطع التي ضربت بعد وفاة الإسكندر. وكان حول الصورة إشارات لم يفهم منها الابن شيئاً. أما فيما يخص الرسالة فقد طلب الأب من ابنه فيها ألا يكشف لأحد عن محتوى الكتاب إذ إنه لم يكن يريد مطلقاً أن يصبح رئيساً لكنيسة. وطلب منه أيضاً أن يتصرف بحيث ينتقل الكتاب من جيل إلى جيل إلى أن يصبح الناس قادرين على إدراك محتواه.

- لماذا لم يكشف عنه في الحال؟ لكان شيئاً رائعاً أن يسمع به كل الناس!

- كان ذلك مستحيلاً. فهو يحتوي على براهين رياضية عصية على الفهم حتى اليوم.

أضف إلى ذلك أن الكتاب يبرهن على أن جميع الأديان ليست سوى نسخ مبسطة عن الحقيقة، موجهة لعقول بسيطة، وأن مصدر جميع هذه الأديان واحد، وأن لا أحد منها يحمل امتيازاً يجعلها أفضل من الأخرى، وأن التسليم بإله واحد لا يعبر لوحده عن الإيمان، وأن الحقيقة حول الإنسان والكون ممكنة عن طريق العقل.

- إنني أفهم ما تقول، وأفهم أيضاً على نحو أفضل روايتك الأولى التي تتحدث عن طفل يسمع أصواتاً ويقيم حواراً مع الله وجهاً لوجه لكي ينشئ بعد ذلك ديانته الخاصة به...

ينكر ابن طفيل هذا التلميح بحركة من يده ويتابع كلامه قائلاً:

- طلب المعلم من ابنه في رسالته أن يعمل أربع عشرة نسخة من مخطوطه وأن يقوم بتسليم كل نسخة مع قطعة ذهبية إلى أربعة عشر

شخصاً اختارهم لقوة أخلاقهم، وعدد له أسماءهم، وكانوا يعيشون في أماكن متفرقة من العالم، على الطريق التي قطعها وهو مسافر إلى الهند.

وقد أسسوا «أخوية اليقظانين»

- هكذا إذاً... لهذا السبب أطلقت اسم يقظان على أول كتاب لك...

- ... وطلب منه أن يسلم باليد كل شخص من هؤلاء الأشخاص نسخة واحدة وقطعة ذهبية واحدة، وأن يأمر كلاً منهم بإخفاء المخطوط في مكان يصعب جداً العثور عليه، وليس بالضرورة أن يكون هذا المكان قريباً منهم، ثم يختار كل واحد منهم خلفاً له لينقل إليه المخطوط من جيل إلى جيل، ويعلمه رموز التعريف ويقتل كل غريب عن الأخوية ممن يسعى إلى معرفة محتوى هذا المخطوط.

- ولماذا أعطاهم هذه القطعة الذهبية؟ ألم يكن المخطوط يكفي لوحده؟

- لقد عمل حساباً لكل شيء، ولا سيما عندما يموت واحد من الأخوية دون أن يستطيع نقل نسخته من «الأبدية المطلقة» لمن سيخلفه. لذلك عندما يشعر أحد اليقظانين أنه مهدد أو أن منيته قد اقتربت عليه أن يبحث عن الشخص الذي من الممكن أن ينقل إليه نسخته فيما بعد، ويسمى هذا الشخص «مختاراً». وعلى «المختار» من ذكر أو أنثى أن يتمتع بقوة الشخصية وبصلابة أخلاقية لا تتزعزع وأن يكون واسع الاطلاع على المستوى الفلسفي، كما يجب أن يكون قادراً على مقاومة التعذيب وعلى قتل كل من يقف في طريق الأخوية. وعندما يعثر «اليقظان» عليه يسلمه القطعة الذهبية ويعلمه رموز التعريف

ويرشده إلى كيفية الاتصال بيقظان آخر في حال توفي قبل أن ينقل إليه نسخته. فإذا ما حصل ذلك فعلى «المختار» أن يبين قطعته الذهبية إلى اليقظان البديل الذي يطرح عليه سلسلة مكوّنة من ثلاثة أسئلة يكون «المختار» قد أُعد لها من قبل من اختاره. فإذا اقتنع اليقظان البديل بالأجوبة عليه أن يخرج نسخته من مخبئها وينسخ نسخة عنها ويسلمها «للمختار». ويعلم اليقظانون كيف يجتمعون ببعضهم بعضاً، فعلى الجميع أن يعلم أين هي مخبأة جميع نسخ الكتاب الموجودة، ولكنهم لا يكشفون أبداً عن هويتهم «للمختارين» قبل أن يصيروا «يقظانين».

- ومنذ ذلك الحين وعددهم أربعة عشر؟

- نعم، أربعة عشر شخصاً على معرفة بمحتوى الكتاب منذ أربعة عشر قرناً. وفي كل مرة أناس استثنائيون يختارون لأخلاقهم ولعلمهم ولقوة شكيمتهم، وأحياناً لبأسهم ولكن ليس هذا دائماً. رجال وبعض النساء. وقد يخطئ «اليقظان» في اختياره وقد يرغب «مختار» في استخدام ما تعلمه لمصلحته الذاتية...

- هل حدث ذلك؟

- سأكلمك عن ذلك بعد قليل، فكل شيء في حينه.

- وإلى متى ستستمر عملية النقل هذه؟

- حتى يقرر الأربعة عشر شخصاً بالإجماع أن الناس أصبحوا قادرين على فهم النص وقراءة معادلاته الرياضية، وعدم تشويه طبيعته ومواجهة الخلود والاعتراف أن العلم يقود إلى الله، والإقرار أن جميع الأديان هي تعبير عن إيمان واحد والاتحاد في احترامهم للكائن الحي وتمجيدهم للعقل.

- أفهم أننا بعد أربعة عشر قرناً لم نصل بعد إلى هذه المرحلة. هل تعرف أسماء بعض «اليقظانين» الذين أعقبوا بعضهم بعضاً؟

- ورد في روايتي «معلم العدل» ويسوع والقديس بولس والقديس أغسطين ومحمد وآخرون أيضاً وعددهم كبير مثل إيلوابيز و هيلدغارد دو بنجان وألبير الكبير الذي يسمى أحياناً بألبير دومونبا.

و على الرغم من أنهم لا يملكون الحق في الإفصاح عما يعرفونه فقد استلهموا جميعهم الكتاب لينقلوا رسالة تتوافق مع أفراد عصرهم.

فكر ابن رشد بيسوع ومحمد وقال في سره: هذا ما كان الحبر شوحانا يريد أن يقوله. فهو لم يتكلم عن أرسطو وإنما تكلم عن «اليقظانين». كانوا جميعاً أعضاءً في الأخوية، وكانوا جميعاً تلاميذاً لأرسطو. قال:

- وهل نستطيع أن نتصور أنه في عصرنا هذا قد برزت بين «اليقظانين» في روايتك وجوه مثل إليفار بن عطار وجيرار الكريموني والكندي وابن شوحانا وهستينكز...؟

- أكرر لك أن لا تذكر أسماء.

ألح ابن رشد:

- ولكن هل أنت واحد منهم؟

بدا ابن طفيل متردداً ثم قال:

- إذا أخذنا بفرضيتك المفرطة في الخيال التي تقول إنني وبطل روايتي واحد، أقول إنه منذ ست عشرة سنة كانت قرطبة قد بلغت درجة من اندماج الأديان وأصبح فيها كل شيء ممكناً، فكان

اليقظانون على وشك الكشف عن كل شيء. ولكن وصول الموحدين إلى السلطة أعاد كل شيء إلى سابق عهده. فاكتشف شخص وجودهم، وقد يكون هذا الشخص هو من يكلمك الآن...

- كيف ذلك؟

أصبح الآن ابن طفيل يتقمص شخصية بطله تقمصاً كاملاً:

- لنقل إن شخصاً قادماً من الهند قد أعطاني القطعة الذهبية... كان واحداً من «المختارين»، وكان الذي اختاره قد مات، وكان الذي يمتلك المخطوط لا يثق به فرفض أن يسلمه إياه. كان «المختار» مهتماً بالمال أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر، فعدل عن أن يصبح «يقظاناً» وحاول أن يستفيد مما كان قد تعلمه.

سأل ابن رشد دون أن يجعل ابن طفيل يلاحظ أنه انتقل من الرواية إلى الاعتراف:

- هل هو كريمون؟

- كلا، هو تاجر من طليطلة يدعى دو سوزا. جاء يقص علي، أو بالأحرى على بطل روايتي الحكاية كاملة مقابل مبلغ كبير من المال. أصغيت إليه دون أن أصدق كلامه. ومن كان بإمكانه أن يصدق كلامه؟ ثم فكرت أنه يمكن أن يكون في كلامه شيء من الصحة، فكتبت رواية بنيتها كأنها مصيدة لأجتذب انتباه «اليقظانين» إن كان لهم وجود فعلي. تساءل كثيرون لماذا يكتب مستشار الخليفة كتاباً. حسناً، إليك السبب. لقد قرأته أنت وتعرف محتواه. هل تتذكر عنوان الكتاب؟ حي ابن يقظان. فكل تاريخ الأخوية موجود في هذا الكتاب ما عدا اسم أرسطو.

- وهل خدمك هذا بشيء؟

- قرأه أحد «اليقظانين» في قرطبة، فاتصل مع الآخرين، واعتقدوا جميعاً أن أحدهم على وشك أن يفضح سرهم. كان الوضع في غاية الخطورة. وعندما دخلنا المدينة حاول هذا «اليقظان» أن يغتالني...

- إنه خال موسى بن ميمون؟

- يا لك من ذكي! ادعى أنه يحمل لي أخباراً سرية عن مواقع طليطلة الدفاعية، فأمرت بإلقاء القبض عليه مع آخرين لسبب آخر حتى لا أثير انتباه الأخوية. وعرضت عليه إنقاذ حياته مقابل نسخته من الكتاب، فأنكر معرفته به لا من قريب ولا من بعيد. وحاولت أن أعلم منه إن كان لديه «مختار»، فرفض أن يجيب، ولهذا تم إعدامه. وعندما علمت أن ابن أخته موجود في طليطلة، وهي مدينة أعدائنا، وفي حوزته قطعة ذهبية مطابقة للقطعة الذهبية التي باعني دو سوزا إياها، أدركت أن القصة التي رواها لي هذا الأخير صحيحة. فأرسلت أفضل عميل لي، وهو الذي أحتفظ به للمهمات الشائكة، وهو قادر على التكلم باثنتي عشرة لغة وعلى الخيانة والقتل ببرودة أعصاب، لكي يعرف ما كان هذا الغلام يبحث عنه في طليطلة.

- ماذا كان اسم عميلك؟ هل كان اسمه كريمون؟

- كلا، كان اسمه هستينكز.

- أكان عميلاً؟ ألم يكن «يقظاناً»؟ لقد كان في السجن مع ابن شوحانا ومات مخنوقاً.

- ستفهم بعد قليل... علم هستينكز أن صديقك موسى يسأل عن المدعو كريمون ولكنه كان قد رحل، فحاول هستينكز أن يثنيه عن

انتظار عودته عن طريق كتابة رسالة تهديد له باسم الأخوية. بقي موسى في طليطلة بينما رحل هستينكز للبحث عن كريمون وعثر عليه بعد ثلاث سنوات. ونجح بعد ذلك في أن يصبح واحداً من تلاميذه وفي قتل أربعة من أعضاء الأخوية الذين كان كريمون قد التقى بهم ولكن دون أن يعثر على نسخهم من الكتاب. وفي هذه الأثناء أرسلت دوسوزا وابنته إلى طليطلة لمراقبة موسى وانتظار عودة كريمون. وبعد عشر سنوات أبلغني هستينكز أن كريمون قد عاد، فقررت أن أبعث بأحدهم لكي يقابله قبل موسى، ووقع اختياري عليك أنت.

- ولماذا اخترتني أنا بالذات؟

- لقد لاحظت جرأتك في محاضراتك في قرطبة. وفكرت أن كريمون ربما طرح عليك بعض الأسئلة الدينية الحساسة والشائكة، لذلك طلبت منك أن تدرس أرسطو واستودعتك القطعة الذهبية وأرسلتك إلى كريمون.

- لماذا لم تلجأ إلى دوسوزا فقد كان واحداً من «المختارين»...

- لم أكن واثقاً منه، فقد خان مرة من أجل المال، وقد يخون مرة ثانية. أضف إلى ذلك أن هستينكز العائد إلى طليطلة برفقة كريمون ظن أن دوسوزا وهذا الأخير يكرهان بعضهما بعضاً، ولكن كل منهما كان يعرف الآخر. وليس من المستبعد أن يكون كريمون هو «اليقظان» الذي رفض أن يسلم دوسوزا الكتاب قبل ثماني سنوات. فلم يغفر له دوسوزا هذا الرفض. أخاف هستينكز كريمون بإخباره أنه مهدد، فعمل كريمون نسختين من كتابه، ولكن الإنجليزي لم يتوصل مطلقاً إلى معرفة المكان الذي خبأهما فيه.

- عند كريمون إذاً رأيت أنا هذا الإنجليزي لأول مرة؟

- نعم. وهو الذي دبر لقاءك بموسى عند كريمون لكي يصيبه بالدهشة على وجه الخصوص ويحمله على أن يكشف أمامكما عن مخبأ النسختين. ونجحت الخطة. صعق كريمون لرؤية قطعتين ذهبيتين في وقت واحد تقريباً، فشعر بالخوف. كان يشعر بالاضطراب لدرجة أنه بدلاً من أن يطرح عليكما الأسئلة الثلاثة التقليدية بعث كل منكما إلى «يقظان» مختلف. وكشف لكما عن أسماء الذين يحمون مالكي النسختين. ودون أن يطرح أي سؤال ذكر اسم اثنين من «اليقظانين»، وهذا ما كان يجب أن يتجنبه. ولكنني كنت أجهل ذلك حينئذ لأن هستينكز لم يستطع أن يعرف شيئاً عن أحاديثكما، ولم أعلم ذلك إلا متأخراً جداً. وكنت أجهل لا سيما أن كريمون قد كلمك عن «يقظانين» آخرين. فأصدرت أمري إلى هستينكز بقتل دوسوزا وابنته إذ لم أعد بحاجة إليهما. فهم كريمون أن هستينكز قد خرق الأخوية وأنه يعمل جاسوساً فهرب إلى الهند قبل أن يغتاله الإنجليزي. أراد الإنجليزي أن يتعقبه ولكنني أمرته بالتخلي عنه وبتعقب موسى للحصول على الكتاب. لا يخسر كريمون شيئاً بانتظاره فقد عثرت عليه في كوشان.

فكر ابن رشد: هذا هو السبب الذي جعله متأكداً أنه رأى هو و موسى هستينكز وشعره الأحمر المجعد في مكان ما. لقد كان في طليطلة عند كريمون. وهكذا تفسر رسائل التهديد التي استلمها موسى في طليطلة وناربون وفاس، والسبب الذي أدى إلى مقتل دوسوزا وابنته. قال:

- و هستينكز هو الذي قتل أيضاً ألبيريك دومونيا؟

- أنت تعرف ألبيريك؟ أرى أنك وموسى قد تحادثتما كثيراً. في الواقع كان هذا «اليقظان» حذراً جداً، ولكن هستينكز كشفه عندما جاء إلى موسى ليعالجه من لدغة أفعى. وبعد ذلك تبعه لينتزع منه المخطوط وحين لم يعثر عليه قتله.

- ولماذا تركتني أنا أتعفن في سبتة؟

- فكرت أولاً أن كريمون لم يخبرك بشيء لأنك استلمت منصبك من دون تردد. لقد صدقتك فكنت مخطئاً. عندما قلت لي إن كريمون سوف يرجع ومعه الكتاب، صدقتك مرة أخرى. وبقيت شهوراً حتى علمت بواسطة هستينكز أنك تكذب، وأنك أردت الذهاب إلى فاس لتقابل هناك «يقظاناً». كان باستطاعتي أن أقتلك، ولكنني كنت بحاجة إليك كي أتقرب من «اليقظانين». ولما علمت أنك تبحث عن شخص اسمه الكندي، وأنك قد عثرت عليه، أرسلت أحدهم في إثره لكنني لم أجد في المدينة أحداً بهذا الاسم. ولم أعلم إلا متأخراً أن الكندي هي كنية والدة زوجته، وكانت يهودية ألمانية. أعلمت الكندي أنك تبحث عنه من قبل كريمون، فأكل الطعم وعلق في الصنارة. طلب منك أن تأتي لمقابلته. وفي هذه الأثناء كان هستينكز مستمراً في تعقب موسى الذي نزل في فاس ليعثر على الشخص الذي كان كريمون قد أرسله إليه، ألا وهو الحبر ابن شوحانا، وأصيبت أنا بالدهشة. فتدخلت لكي أجنب هذه الطائفة اليهودية مغبة الاستئصال مثل الآخرين، لأنني كنت بحاجة إليها. ولا أحد يعرف حتى الآن لماذا حميتها. كان علي أن أعرف ماذا ينوي

موسى أن يفعل. بعث له هستينكز رسالة تهديد دون أن يظهر له ليرى كيف ستكون ردة فعله ويبعده عن طريقه. ذهب موسى لرؤية ابن شوحانا الذي أرسله فوراً إلى الكندي. وهكذا التقيتما أنتما الاثنان في آن واحد أمام الكندي كما التقيتما فيما مضى عند كريمون. واحتار الكندي فيما يفعل كما احتار قبلاً المترجم الايطالي، فأمامه «مختاران» في وقت واحد. ظل الكندي بعكس كريمون على رباطة جأشه وقرر أن يذهب لاستشارة «اليقظانين» الآخرين وتداول الرأي معهم. فأرسلت هستينكز وراءه وتخلصت من خمسة منهم، قتلتهم واحداً تلو الآخر. ولكنني لم أعثر على نسخة واحدة من الكتاب، فقد كان المخبأ سرياً للغاية. وهكذا التقى هستينكز صديق موسى في روما.

- ابن عزرا؟ هل كان «يقظاناً»؟

- بالطبع. لقد أرسل إلى طليطلة ليتأكد من أن موسى يستحق امتلاك المخطوط.

- وهل أخذ هستينكز منه نسخته؟

- كلا، لا هستينكز ولا غيره. استمر في تعقبه للكندي ولكن دون جدوى. فهو لم يعثر على أيّ نسخة من الكتاب. أخبرني الإنجليزي أن الكندي في طريقه إلى فاس. فأسرعت بالمجيء حتى أصل وإياه في وقت واحد. وما آن حط الكندي رحاله حتى أرسل في طلبكما وطرح عليكما الأسئلة التقليدية ثم اختار، فقد فهم أنك أنت الدجال لأنك لم تكن تعطي الإجابة التي كان يجب عليك أن تتعلمها من الذي استودعك القطعة الذهبية. ولكن هناك سبب، هو أنني

عندما استودعتك القطعة الذهبية كنت أجهل كل شيء عن هذه الأسئلة. وقبل أن يأمر بقتلك جمعَ حراسه الذين كانوا يؤمّنون حمايته من أجل التحضير للهرب. ولكن هستينكز الذي كان يتعقبه علم بذلك. وفي الوقت المناسب ألقيت القبض عليهم لكي أحملهم على الاعتراف بمكان الكتاب.

- لماذا ألقيت القبض على هستينكز معهم؟

- كان هذا في الظاهر لكي أضعه مع الحبر في زنزانة واحدة. ولكن الهدف الحقيقي من ذلك هو حمل الحبر على الكلام، ولكن الكندي والحبر ماتا دون أن يبوحا بشيء.

- ولماذا مات هستينكز، لأنك لم تعد بحاجة إليه؟

ابتسم الأمير:

- ولكنه لم يمت، بل تبع صديقك إلى سبتة وشاهده يصعد على متن سفينة مبحرة إلى الأرض المقدسة.

اطمأن ابن رشد:

- لقد رحل؟ لقد أفلت منك إذاً؟

- لا أحد في سبتة يجد سفينة إذا أنا لم أقرر ذلك.

- أنا سعيد برحيله. إن الله يحب هذا الرجل كثيراً، وصلاته تنفذ إلى أقطار السماوات.

- لماذا أنت متمسك كثيراً بهذا اليهودي؟

- لأننا نفكر بطريقة متقاربة جداً.

- أليس لأنه قد يحصل على الكتاب ويتقاسمه معك؟

تردد ابن رشد:

- كلا. وكيف يمكنه أن يحصل عليه؟

- ربما يكون إليفار قد أرشده إلى مكانه.

قال ابن رشد في سره إن ابن طفيل ليس بعيداً عن الحقيقة. جازف قائلاً:

- لهذا السبب تركته على قيد الحياة؟

- لهذا السبب كان من الواجب أن أعذبه.

- ما هي الخدمة التي تريدني أن أؤديها لك؟

- مازال هستينكز في سبتة. أريده أن يرحل إلى الهند مع القطعة الذهبية ليقابل كريمون ويحصل على الكتاب مهما كلف الثمن. هذه فرصتي الأخيرة. ستذهب وتوافيه عند الحاكم وستسلمه القطعة الذهبية، فهو يعلم ما يصنع بها.

فكر ابن رشد في الاحتفاظ بالقطعة الذهبية، ولكنه لم يكن يرى من الآن فصاعداً أيّ فائدة يمكن أن يجنيها منها. وإذا حاول أن يهرب بها دون أن يسلمها للإنجليزي فسيخبر ابن طفيل بذلك فيأمر بقتله. أين المفر؟ وعلى كل حال ما زال حياً يرزق، وهذا هو الأمر الجوهري. أجاب:

- هذا كل ما تطلبه؟

- نعم. بعد ذلك تركب السفينة إلى إشبيلية وتستلم منصب القاضي.

- وإذا رفضت؟

- إذا رفضت، سأقنع الناس أنك اعتنقت اليهودية، وسأقوم بسجنك في الحي اليهودي القديم في قرطبة، ثم أصدر الأمر بإعدامك.

وكن واثقاً أنني لست بحاجة إلى إذن من الخليفة من أجل تنفيذ إعدامك أنت وجميع من كان يعرفك في يوم من الأيام...

التقى ابن رشد في سبتة صديقه الحاكم الموسوي الذي كان قد علم مسبقاً بوصوله. وكان مزاج الحاكم سيئاً، فقد صدر الأمر بنقله إلى مراكش بناءً على طلبه، غير أن هذا النقل كان قد فقد كل أهميته منذ أن نقل الخليفة الجديد بلاطه إلى قرطبة.

ثم جاء هستينكز إليه ومد له يده مبتسماً، فسلمه ابن رشد القطعة الذهبية، وكأن الحياة قد شارفت على نهايتها. ونصحه هستينكز أن يذهب بسرعة لركوب السفينة المتجهة إلى إشبيلية، وأن ينسى كل شيء. سأله ابن رشد ماذا ينوي أن يصنع بالقطعة الذهبية.

أجاب الإنجليزي:

- هناك في الميناء سفينة اسمها «الخلاص». يكفي أن أبين هذه القطعة للقبطان حتى يبحر حيث أقول له أن يبحر. سوف يأخذني إلى الهند لأقابل كريمون. السلام عليك!

تركه هستينكز بعد أن انحنى بالطريقة نفسها التي انحنى بها عندما قابله لأول مرة. قرر ابن رشد أن يتبعه، فرآه يصرف حراسه الذين كانوا يرافقونه ويسرع باتجاه الحي اليهودي ويدخل إلى كنيس. استرق ابن رشد النظر من النافذة فارتسمت على وجه علامات الدهشة لما رأى أن الإنجليزي قد لحق بموسى. فهل كان صديقه متواطئاً مع ابن طفيل؟

تسمر موسى في مكانه عندما رأى هستينكز، فآخر مرة رآه فيها كانت في السجن، وكان مقيداً بالسلاسل إلى جانب ابن

شوحانا. وكان مقتنعاً أنه قد حكم عليه بالإعدام خنقاً. فكيف فعل حتى يكون في هذا الكنيس الذي جاء إليه للصلاة قبل أن يجد مركباً يبحر على متنه.

روى له الإنجليزي أنه لاذ بالفرار وأظهر له القطعة الذهبية التي سلمه إياها ابن رشد. وشرح له أنه كان واحداً من «المختارين» وأن على موسى إذا كان يعلم بمكان كتاب «الأبدية المطلقة» أن يشاطره سره ويعطيه نسخة منه حتى يتم الحفاظ على العدد أربعة عشر. لم يشعر موسى بالثقة، فكيف يتأكد من أن هستينكز «مختاراً»؟ هل يطرح عليه الأسئلة الثلاثة؟ فهي طويلة جداً كما أنه لا يعرف الإجابات بكل تنويعاتها. وتذكر ما قاله ألبيريك قبل سنة عندما كان يعالجه في ناربون:

- هل تعرف القواعد؟

- أيّ قواعد؟

- قواعد التواضع.

- لا أعرف ماذا تقصد بذلك.

تجرأ موسى على استفزازه دون أن يكون واثقاً من نفسه:

- ما من «يقظان» لا يعرف هذه القواعد. وإذا كنت لا تعرفها أنت، فهذا لأنك نصّاباً.

سار كل شيء بسرعة. أخرج هستينكز من جيبه خنجراً، وراح موسى يبحث بعينيه عن أخيه. لم يكن من المعقول أن ينظر باتجاه المدخل الذي كان يدير له ظهره. كم كان يحب أن يكون أخوه إلى جانبه، ولكن داوود فضل البقاء في الخارج لكي يراقب مدخل الكنيس الذي دخل إليه موسى

للصلاة. تقدم هستينكز نحو موسى شاهراً خنجره بيده. وفجأة أحس موسى بشيء يلامس شعر رأسه، وجمد الإنجليزي في مكانه مذهولاً. نظر إلى موسى ثم إلى صدره الذي استقر فيه النصل، ورفع عينيه إلى جهة خلف موسى، فاستدار هذا الأخير فرأى من فتحة الباب ليلى وداوود يبتسمان له. تقدم هستينكز خطوة أخيرة وهوى جثة هامدة.

بعد برهة من الصمت، همس داوود:

- أنا من يتمنى أن يعرف قواعد الأخوية هذه.

ابتسم موسى وقال:

- سأقولها لك: الندم ونكران الذات والاعتراف والسعي إلى المغفرة.

- إنني بحاجة ماسة إلى المغفرة فقد ارتكبت للتو جريمة داخل الكنيس!

خرج داوود تاركاً ليلى وموسى لوحدهما ليتأكد من أن أحداً لم يكن مع الإنجليزي. فرأى موسى الفتاة الشابة تمد له يدها بقطعتين ذهبيتين متطابقتين تطابقاً تاماً، فسألها:

- قطعتان؟ كيف يمكن ذلك؟ بحوزتك قطعتي، فهل أعطاك ابن رشد قطعته؟

ابتسمت ليلى وقالت:

- كلا، فهذه قطعتك وهذه قطعة أبي التي أصبحت من الآن ملكي. لقد كان والدي «يقظاناً»، فاختارني وسلمني قطعته دون أن يقول شيئاً عن كيفية العثور على الكتاب. وقال لي أن أذهب إليك في

الوقت المناسب إذا مات دون أن يستطيع أن يكشف لي عن مكانه. وهذا هو الوقت المناسب إذ لم يعد يفرقنا شيء بعد الآن.

تذكر موسى ما قاله الكندي له في آخر لقاء بينهما: «إذا لم أرجع أختارك أنت لكي تهتم بها.»

كانت إذاً «مختاراً» مثله.

عاد موسى أدراجه مع ابن رشد الذي كان ينتظر في الخارج. روى ابن رشد لموسى لقاءه بابن طفيل. فأدرك بذلك موسى ما كان الباعث إلى السهرات الطويلة مع خاله، وإلى جميع الأسماء التي ذكرها من هيلوييز إلى هيلدغراد، إلى الأحاديث مع كريمون ومونبا وابن عزر وابن شوحانا. وشرح ابن رشد بعد ذلك كيف خطر بباله أن يتعقب هستينكز دون أن يشك بأن موسى ما زال في المدينة.

- القطعة التي أظهرها لك الإنجليزي هي قطعتي. وبما أنه قال لي إن قبطان إحدى السفن واسمها «الخلاص» سيأخذ حامل هذه القطعة إلى حيث يريد...

- أصبح لدينا إذاً وسيلة نقل للرحيل إلى الأرض المقدسة.

انحنى ابن رشد ليلتقط القطعة الذهبية من يد القتيل.

- بالضبط. أما أنا فسوف أستعيد بعد موافقتك قطعة الإنجليزي، فيظن ابن طفيل أن الإنجليزي قد رحل للبحث عن الكتاب، وبما أن السفينة لن تبحر من غير إظهار القطعة...

- وليلى؟

حكى له موسى ما كانت قد أخبرته به، ثم أضاف:

- لن يكون طريقنا واحداً أبداً.

سأل ابن رشد:

- ماذا ستفعل إن حصلت على الكتاب؟

نظر موسى إلى ليلى فابتسمت له. أجاب:

- سأقرؤه وسأحافظ على سريته وسأستمر على نهج «اليقظانيين». ومن أجل أن يكتمل العدد سأعمل نسخة منه لشخص آخر في حوزته القطعة الذهبية.

- ماذا تعني؟

رمق موسى ليلى بنظرة أخرى وقال:

- تمتلك ليلى قطعة ذهبية. فلها الحق إذاً بنسخة من الكتاب. ولا أرى ما يمنعني من الوثوق بها. وأنت أيضاً تمتلك الآن قطعة، أليس كذلك؟ فقدرك أن تصبح إذاً «مختاراً». وحيثما تكون سأجد وسيلة لأرسل لك نسخة أخرى، بشرط أن تكون مستعداً للدخول في الأخوية على الأقل.

- سأفعل ذلك. وبعدها ستبقى في فلسطين؟

- كلا، فأنا أحلم ببعث دولة إسرائيل، دولة لا يحكمها رجال الدين. ولكنها ما تزال حتى الآن سراباً، فالشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله هو مساعدة شعبي على البقاء على قيد الحياة في الشتات لكي لا يلقى المصير الذي لاقاه الأثينيون وغيرهم من الشعوب الأخرى.

- وماذا تنوي أن تفعل لتبلغ ذلك؟

- سأستقر بعد أن أحصل على الكتاب في مصر وسأكتب لنخبة ذكاؤها أعلى من ذكاء عامة الناس، وسأمنحها وسائل

التفكير في مغزى الوجود والمبادئ الأخلاقية وجوهر الأشياء وأسباب عدم الخوف من الأعداء. يحضرني هنا قول كان يردده خالي على مسامعي: «ليست الأرانب هي من سيفرض القوانين على الأسد.» وأنت، ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأذهب للاستقرار في إشبيلية وسأكرس نفسي للكتابة لأبين كيف نستخدم العلم دون أن نتخلى عن القرآن، ولأقول إن التيوقراطية هي حكم بربري، ولأناضل من أجل مجتمع تسكن فيه روح الله في كل إنسان، ولا يتصرف فيه أحد بدافع الخوف من الأمير أو من الجحيم، ولا ينادي فيه أحد بقوله «هذا لي»، ويحصل فيه كل إنسان على وسائل تحقيق الإمكانات التي وضعها الله فيه.

قال موسى:

- إذا نجحنا نحن الاثنين فسوف يستطيع «اليقظانون» ذات يوم، إذا بقي منهم أحد، الكشف عن أنفسهم.

تنهد ابن رشد:

- أخشى أن ذلك لن يحدث قبل مرور زمن طويل.

قال موسى مؤكداً:

- سيحدث ذلك، وسوف نلتقي في قرطبة في يوم من الأيام.

- إن شاء الله.

- نعم، إن شاء الله، وإن شاء البشر.

من هم؟

إن لجميع شخصيات هذه الرواية وجود فعلي، فقد عاشوا جميعاً في الأماكن المذكورة في هذه الرواية وعاصروا أحداثها.

موسى بن ميمون: ولد في قرطبة سنة ١١٣٥ وغادرها سنة ١١٤٩ كما ورد في الرواية. ويعود للظهور سنة ١١٦٢ في مدينة فاس حيث من المحتمل أن يكون قد علم الطب في جامعتها. وليس من المستبعد أن يكون في تلك الأثناء قد مر بطليطلة وناربون كما هو مذكور في الرواية. ومن المؤكد أنه غادر فاس كما جاء في الرواية، بعد عشرة أيام على إعدام الحبر ابن شوحانا في ٨ نيسان ١١٦٥ لرفضه اعتناق الإسلام. ويقال أن موسى بن ميمون قد اعتنق الإسلام في تلك الفترة.

كان والده هو حقاً الحبر ميمون الذي اشتهر كثيراً بكونه عالماً في الدين. وكانت أمه هي حقاً ابنة قصّاب، كما كان أخوه داوود تاجر ألماس.

ابن رشد: ولد سنة ١١٢٦ في قرطبة وعاش فيها إلى أن أصبح كاتماً للسر عند حاكم سبتة سنة ١١٦٢ كما هو وارد في الرواية. ولعله قبل ذلك قد أقام لفترة قصيرة في طليطلة، ثم درس الطب في جامعة القرويين في فاس قبل أن يعين قاضياً في إشبيلية كما هو مذكور في الرواية.

ابن طفيل: كان كما جاء في الرواية كاتباً ومستشاراً ووزيراً ثم كبيراً للوزراء. وهو كما ذكر هنا مؤلف رواية «حي بن يقظان» التي نشرت في حياته وكان موضوعها هو الموضوع الذي تتطرق إليه الرواية.

جيرار الكريموني: كان حقاً مترجماً قدم من إيطاليا وعاش فترة طويلة في طليطلة، وكان محاطاً بطلاب من الإنجليز.

بوسكيار: كان حقاً حبراً مختصاً بالقبالة وكان قد قدم من الأقاليم.

ابن طيبون: كان حقاً مترجماً ذائع الصيت من ناربون، وأصبح فيما بعد مترجماً لموسى بن ميمون إلى اللغة العبرية.

إيهودا حليفي: كان حقاً شاعراً وفيلسوفاً قرطبياً شهيراً، وقد لقي مصرعه تحت حوافر خيل أحد الصليبيين.

أبراهام ابن عزرا: توفي في روما.

وماذا بعد؟

لم يلتق موسى بن ميمون وابن رشد بعد ذلك قط.

يروي المؤرخون أنه ابتداء من سنة ١١٦٥ شغل ابن رشد منصب قاض في إشبيلية، وأصبح مساعداً لابن طفيل كطبيب للخليفة الجديد واشتهر بكونه فيلسوفاً كبيراً وخطيباً مفوهاً. كتب عنه أحد معاصريه قائلاً: «كان ذلق اللسان في مجالس السلطان كما في المجالس العامة»، وكان يتكلم «بلغة رشيقة ذات تراكيب جميلة». وبعد مضي عدة سنوات رجع فجأة ومن غير سبب معروف إلى قرطبة وهجر الحياة الاجتماعية ليكرس نفسه للكتابة و «يروى أنه لم يتخل عن القراءة والكتابة إلا ليلة وفاة والده وليلة زواجه».

كانت إمارة ابن مردانيش المعادية للموحدين في مرسية، وظلت تقاومهم حتى سنة ١١٧٢. وعندما توفي ابن طفيل سنة ١١٨٢ خلفه ابن رشد في منصبه كطبيب للسلطان يوسف الذي قاد بنفسه سنة ١١٨٤ جيشاً ضخماً وشن هجوماً برياً وبحرياً ضد المسيحيين فهُزم أمامهم هزيمة نكراء. وأصيب أبو يوسف الأول في أثناء تقهقره بجروح قاتلة وتوفي في السنة نفسها وهو عائد إلى إشبيلية.

وخلفه في الحكم ابنه أبو المنصور وطلب من ابن رشد أن يذهب معه إلى مراكش. ويروي أحد معاصريه في سنواته الأخيرة أنه «كان

يرتدي ثياباً بالية» على الرغم من أنه كان يشغل مناصب عالية. وفي سنة ١١٩٧وكان في السادسة والستين من عمره، نفاه الخليفة الجديد إلى أليسانه، لاهتمامه «بحكمة الأقدمين وعلومهم»، وأمر بحرق مؤلفاته ما عدا التي تختص بالرياضيات والطب. وفي عام ١١٩٨عفا عنه واستدعاه في شهر تشرين الأول إلى مراكش ليموت هناك بعد أقل من ثلاثة أشهر، في ١٠ أو ١١ كانون الأولى في العام نفسه. دفن في البداية في مقبرة باب طغزوت، وبعد ثلاثة أشهر نقلت رفاته إلى قرطبة حيث يرقد الآن. يروي ابن عربي أن «جثمانه نقل على ظهر دابة على أحد جانبها ووضع ما يوازي ثقله من مؤلفاته على الجانب الآخر».

وتقول رواية أخرى وردت في مؤلفات عديدة كرواية ليون الأفريقي في القرن السادس عشر إن نهايته كانت نهاية مأساوية، فقد نفي عندما زالت حظوته عند الخليفة إلى حي اليهود في قرطبة فهرب إلى فاس حيث ألقي القبض عليه وأودع السجن ثم أرغم علانية على إنكار محبته لأرسطو. ثم عاش بعد ذلك من تدريسه للقانون وعاش عيشة الضنك في فاس ثم في قرطبة.

غادر آل ميمون سبتة على متن سفينة مبحرة مباشرة إلى عكا في ١٨ نيسان ١١٦٥ تماماً كما هو مذكور في الرواية. ولا يعرف شيء عما فعلوه في الأرض المقدسة. وبعد ثلاثة شهور توفي الحبر ميمون من شدة الإعياء والتعب. وبعد خمسة شهور سافر موسى إلى الإسكندرية مع زوجته وأخيه داوود، ولكنها توفيت بعد وصولهم إلى مصر بفترة قصيرة ولم تنجب له ذرية. فغادر الإسكندرية إلى الفسطاط (التي ستصبح القاهرة فيما بعد). وعاد داوود إلى تجارة الأحجار الكريمة،

ومات غرقاً بين مصر والهند بعد ست سنوات في عام ١١٧١. ثم أصبح موسى طبيباً للفضيل، وزير صلاح الدين، وحاكم مصر وزعيم الطائفة في الفسطاط. وكان يكنى «بنسيج وحده وأعجوبة زمانه» إلى أن جاء يهودي من فاس ووشى به على أنه مسلم فأنكر ذلك. وصل الخبر إلى صلاح الدين فقال إنه إذا كان الفيلسوف الكبير قد اعتنق الإسلام في فاس، فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بالإكراه، وبالتالي لا يمكن اعتباره من المرتدين. وفي سنة ١١٨٦ تزوج موسى مرة ثانية من أخت ابن المال، كاتم سر الوزير. وبعد سنة من زواجه رزق بابن سماه أبراهام. وفي سنة ١١٩٠ انتهى من تأليف كتابه «دليل التائهين» وتوفي في الفسطاط في ١٣ كانون الأول من سنة ١٢٠٤. فأعلن الحداد ثلاثة أيام لدى جميع الطوائف اليهودية في مصر. وأعلن في أماكن أخرى من العالم عن صيام يوم مع تراتيل عبرية ولا سيما ترتيل مقطع من كتاب صموئيل ينتهي بهذه العبارة: «هجر المجد إسرائيل لأن سفينة الله قد غرقت». ويوجد ضريحه اليوم في إسرائيل وقد أصبح قبلة للحجيج وللممارسات السحرية التي كان يمقتها أشد المقت.

عرف الموحدون سلسلة من الهزائم: ففي سنة ١٢١٢ أنزل بهم المسيحيون الهزيمة في معركة لاس نافاس في تولوزا. وفي سنة ١٢٢٨ جلا الموحدون عن قرطبة وتخلوا عنها لأمير محلي. وبعد رحيلهم بثماني سنوات عادت قرطبة إلى ملك قشتالة المسيحي فرديناند الثالث الذي سمح لليهود بالعودة إليها، كما أنه لم يلجأ إلى طرد المسلمين منها. وأعلنت مقاطعات الإمبراطورية استقلالها تباعاً وأقام على رأس كل منها سلالة ملكية محلية مثل بني حفص في تونس

سنة ١٢٣٦ وبني عبد الوديد في تلمسان سنة ١٢٣٩. واستولى المرنيون على مراكش وقضوا على سلالة الموحدين سنة ١٢٦٩. وبدءاً من هذا التاريخ صار اليهود من جديد محط ترحيب في المغرب. أما غرناطة التي كانت آخر مملكة إسلامية في الأندلس فلم تسقط إلا في سنة ١٤٩٢.

وفي القرن السادس عشر أمر شارل كنت ببناء كاتدرائية داخل مسجد قرطبة الكبير، لكنه ندم فيما بعد على فعلته هذه.

ببليوغرافيا

ARNALDEZ (Roger), *Averroès, un rationaliste en Islam*, Paris, Balland, coll. « Le Nadir », 1998.

—, « Averroès l'Andalou : un croyant rationaliste », *Qantara*, n° 28, Paris, Institut du monde arabe, été 1998.

AVERROÈS, *L'Intelligence et la Pensée. Grand commentaire du « De anima », livre III*, Paris, Flammarion, coll. « GF », 1998.

BADAWI (Abdurrahmân), *Averroès (Ibn Rushd)*, Paris, J. Vrin, coll. « Études de philosophie médiévale », 1998.

BAKR IBN TUFAIL (Abu), *The History of Hayy Ibn Yaqzan*, Londres, Darf Publishers Limited, 1986.

BRAGUE (Remi) éd., *Maïmonide. Traité d'éthique, « huit chapitres »*, Paris, Desclée de Brouwer, coll. « Midrash références », 2001.

CHEBEL (Malek), *Dictionnaire amoureux de l'islam*, Paris, Plon, 2004.

HAYOUN (Maurice-Ruben) et LIBERA (Alain de), *Averroès et l'averroïsme*, Paris, PUF, coll. « Que sais-je ? », 1991.

—, *Maïmonide et la pensée juive*, Paris, PUF, coll. « Questions », 1994.

—, *Maïmonide ou l'autre Moïse*, Paris, J.-C. Lattès, 1994 ; Pocket, 2004.

—, *Les Lumières de Cordoue à Berlin*, Paris, J.-C. Lattès, 1996.

HESCHEL (Abraham Joshua), *Maïmonide*, Paris, Payot, 1936.

HULSTER (Jean de) éd., *Moïse Maïmonide, Épîtres*, Paris, Verdier, coll. « Les dix paroles », 1983.

KINDI (Al-), *Le Moyen de chasser les tristesses*, Paris, Fayard, 2004.

MENJOT (Denis), *Les Espagnes médiévales 409-1474*, Paris, Hachette, coll. « Carré Histoire », 1996.
MIQUEL (André), *L'Islam et sa civilisation*, Paris, A. Colin, coll. « Destins du monde », 1990.
MOSES BEN MAIMON, *Ethical Writings of Maimonides*, Edited by Raymond L.Weiss with Charles Butterworth, New York University, 1975.
MUNK (Salomon) éd., *Moïse Maïmonide, Le Guide des égarés*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1866 [rééd. 1981].
PELAEZ DEL ROSAL (Jesus), *Les Juifs à Cordoue (X^e-XII^e siècle)*, Ediciones El Almendro-Cordoba, 2003.
RENAN (Ernest), *Averroès et l'averroïsme*, Paris, Maisonneuve et Larose, 2002.
RUCQUOI (Adeline), *L'Espagne médiévale*, Paris, Les Belles Lettres, 2002.
SOURDEL (Dominique et Janine), *La Civilisation de l'islam classique*, Paris, Arthaud, coll. « Les grandes civilisations », 1983.
STRAUSS (Leo), *Maïmonide*, Paris, PUF, 1988.
URVOY (Dominique), *Ibn Rushd (Averroès)*, Paris, Cariscript, 1996.
—, *Averroès. Les ambitions d'un intellectuel musulman*, Paris, Flammarion, coll. « Grandes biographies », 1998.

الفهرس

تمهيد للقارئ.......... ٥
الفصل الأول.......... ٧
الخميس ٢٧ أيار ١١٤٩، الطرد من قرطبة
الفصل الثاني.......... ٥٧
الأربعاء ٦ كانون الثاني ١١٦٢، ثيران Zocodover
الفصل الثالث.......... ١٢١
الأربعاء ٥ آذار ١١٦٢، أفاعي ناربون
الفصل الرابع.......... ١٦٥
الثلاثاء ٦ أيلول ١١٦٢، فضيحة القرويين
الفصل الخامس.......... ٢٢٣
٥ كانون الأول ١١٦٤، غارة عاشوراء
الفصل السادس.......... ٢٦٧
٨ نيسان ١١٦٥، تنفيذ حكم الإعدام بالحبر ابن شوحانا أمام مدرسة بو حنانيا
الفصل السابع.......... ٢٩٩
١٨ نيسان ١١٦٥، جريمة قتل في الكنيس
من هم؟.......... ٣٢٧
وماذا بعد؟.......... ٣٢٩
ببليوغرافيا.......... ٣٣٣

من منشورات دار علاء الدين

- مساء ذبول الوردة
  ....إردال أوز
- قرب النهر أبكي
  ....باولو كويلهو
- محارب النور
  ....باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  ....بريم ستوكر
- مشاهد من حياة كهنوتية
  ....جورج إليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  ....جوزيه لويس دي فيلالونغا
- إيفا
  ....جيمس هادلي تشيز
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  ....خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  ....خوليو كورتاسار
- نذير بالشر
  ....دافيد سلتزر
- أنماط غريبة من الحب
  ....سومرست موم
- فصل الراحة
  ....غور فيدال
- عودة الإنسان
  ....ف. م. دستويفسكي
- نوافذ على العالم
  ....فريديريك بيغبيدير
- عائلة كاردينال
  ....لدوفيك هاليفي
- الخطيئة الأولى المميتة
  ....لورنس ساندرز
- اليعازار
  ....ميشيل تورنيي
- جيل وجان
  ....ميشيل تونيي
- فالس الوداع
  ....ميلان كونديرا
- رفاق شقائق النعمان
  ....هنري ترويا
- النبيلة الروسية
  ....هنري ترويا
- مجد المهزومين
  ....هنري ترويا
- سيدات سيبيريا
  ....هنري ترويا
- صوفيا أو نهاية المعارك
  ....هنري ترويا
- ابنة الكاتب
  ....هنري ترويا
- ألوشا
  ....هنري ترويا
- محاكمة سقراط
  ....يوري فانكين

دار علاء الدين
PUBLISHER ALADDIN

La Confrérie Des Éveillés

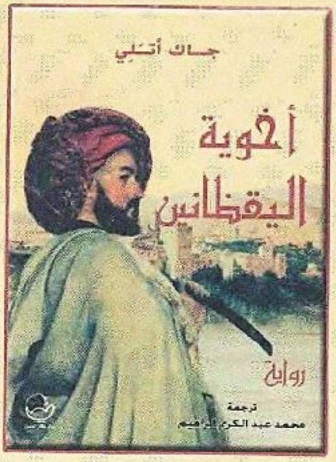

La Confrérie Des Éveillés

تمثل هذه الرواية نموذجاً إبداعياً للرواية التاريخية في تناولها للأحداث والوقائع، ووضعها في إطار فني رائع، حيث تدور أحداث هذه الرواية في الأندلس والمغرب العربي في القرن الثاني عشر، إذ تعايشت المسيحية والإسلام واليهودية بانسجام واحترام وغنى فكري وحرية معتقد.

إن معظم شخصيات هذه الرواية واقعية كما معظم أحداثها، ونلتقي فيها بأعظم ثلاث شخصيات في الفلسفة والفكر والسياسة وهم ابن رشد الفيلسوف الإسلامي، وموسى بن ميمون اليهودي وما دار بينهما من حوارات، وأرسطو بألقه الفلسفي الذي كان عصياً على ظلام القرون.

لقد جمعت هذه الرواية الإبداع من جميع أطرافه: الفلسفة والأدب والتاريخ وقدمتها جميعاً دفعة واحدة بأسلوب فني رائع ولغة أدبية رشيقة.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy